ماذا خسر العالم

بانحطاط المسلمين ؟!!

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار الغد الجديد

دار الغد الجديد

المنصورة - مصر

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار الغد الجديد

المنصورة - مصر
أمام جامعة الأزهر

ت وفاكس: 2254224 - 050 - 002
صندوق بريد: 35111

EMAIL: DAR-ALGHAD@YAHOO.COM

رقم الإيداع: ١٧٨٨٥ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: .I.S.B.N

977-372-105-1

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة كتاب يحكيها مؤلفه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلعل كثيرا من القراء الفضلاء لا يعلمون أن هذا الكتاب كان باكورة مؤلفاتي، وكان بداية تاريخ التأليف، وقد ألفت هذا الكتاب وأنا قد جاوزت الثلاثين من عمري تقريبا(١)، وكان أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة، وفي بلد بعيد عن مركز اللغة العربية وآدابها وثقافتها، وقد ولدت في الهند ونشأت وتعلمت فيها، ولم يقدر لي أي سفر خارج الهند، وكانت الرحلة الأولى المباركة التي وفقني الله لها هي الرحلة التي قمت بها لأداء فريضة الحج سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)، يعني بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات، فكانت في الحقيقة مغامرة علمية لم أكن متهيئا ولا مرشحا لها، وكان من الجسارة أن أتناول هذا الموضوع الذي كان جديرا بقلم أكبر من قلمي، وبعقل أوسع من عقلي، وبتجربة أطول وأوسع من تجربتي كمؤلف، ولكن الله يفعل ما يشاء.

لقد كنت أشعر برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها، كأن سائقا يسوقني إلى الكتابة في هذا الموضوع، ولو استشرت العقل واعتمدت على تجارب المؤلفين، وعلى مقاديرهم ومكانتهم العلمية، لأحجمت ولعدلت عن هذه الفكرة، ولو ذكرت ذلك لأحد من العقلاء العلماء، والكتاب الفضلاء لأشاروا علي بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية، ولكنه كان من الخير أنني لم أستشر أحدا، كما يقول الدكتور محمد إقبال: ليس من الخير أن تستشير عقلك دائما، فنح عقلك جانبا في بعض الأمور، فإن العقل يصور لك الخوف في معارك خطيرة، ويشير عليك الابتعاد عن مثل هذه التجارب المريرة.

وكانت المراجع العربية التي كان لابد من أن أستشيرها في هذا الموضوع قليلة، لأن ذلك العهد كان قريبا بالحرب العالمية الثانية، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند

---

(١) كان تأليفه بين ١٣٦٣- ١٣٦٤هـ (١٩٤٤- ١٩٤٥م).

والبلاد العربية، فكانت الهند تستورد قليلا من البضاعة العلمية والمراجع التاريخية والثقافية باللغة العربية، التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة، ومصر بصفة خاصة، أما المراجع العلمية باللغة الإنجليزية والأوردية فكانت متوفرة، وكانت بمتناول يدي، وكان في لكهنؤ- مدينة العلم والثقافة- مكتبات غنية فيها أحدث المطبوعات الإنجليزية والموسوعات العلمية، وكنت على اتصال بها، أستعير منها الكتب وأطالعها، وأستفيد من بعض المكتبات الشخصية، وكان من تيسير الله تعالى والإرهاص لتأليف هذا الكتاب؛ أني كنت طالعت قريبا تاريخ أوروبا سياسة واجتماعا، وديانة وخلقا، وحضارة وثقافة، بنهامة وفي توسع وعمق، وعنيت بموضوع الصراع بين الديانة والعلم، والبلاط والكنيسة؛ دراسة اختصاصية، وتاريخ الأخلاق في أوروبا وتطورها، والعوامل التي صاغتها صياغة خاصة، انتهت بها إلى هذا المصير المادي، الذي أثر في مسيرة الشعوب الغربية والشرقية واتجاهاتها تأثيرا عاما وحاسما.

هذا عدا تاريخ الأقطار الشرقية الإسلامية، ودياناتها وحركاتها وفلسفاتها، وتاريخ الإسلام والمسلمين، وتاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، من خلال الكتب المختصة بهذا الموضوع، ومن خلال الشعر والأدب، فكان أيسر لي نسبيا بفضل ثقافتي الدينية والأدبية والتاريخية، ولأن موادها كانت متوفرة في مكتبة ندوة العلماء الكبيرة، ومكتبات شخصية، وبفضل الاتصال الدائم بحركة الترجمة والنشر في شبه القارة الهندية، ومطالعة المجلات والصحف العلمية الراقية، وما تنشره من بحوث ودراسات علمية.

زد إلى ذلك التكوين العقلي والنفسي الممتاز، المؤمن بخلود رسالة الإسلام، وقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، وإمامته للأجيال البشرية عبر العصور، وبالنقص الواقع في طبيعة الحضارة الغربية، ومزاج الأمم الغربية، الذي لا يفارقها في حال من الأحوال وظهوره - في شكل مجسم- في قيادتها وذلك نتيجة تربية أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني أمين ندوة العلماء العام، الذي كان مثالا فريدا في الجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية العصرية، وعمق فهمه للإسلام واتزانه الفكري البعيد عن كل غلو وتطرف، وقد جعلني كل ذلك أنتفع من دراساتي المتنوعة- المتناقضة أحيانا- المشوشة لكثير من القراء الذين لا يزالون في سن المراهقة الفكرية- وأستخرج منها نتائج إيجابية معينة، و﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] ، وتزداد بها ثقتي بصلاح الإسلام للقيادة والسيادة في كل عصر، وإيماني بأن محمدا ﷺ، هو «خاتم الرسل، وإمام

الكل، ومنير السبل».

وكنت أشعر بخطر الموضوع وأهميته، وبقلة بضاعتي وحداثة سني، وقلة أعواني، وجدة موضوع الكتاب وطرافته، ولكن لم أكن في الحقيقة مخيرا، بل كنت مسيرا، كأن هاجسا يهجس في ضميري، ويقول لي: لابد من وضع كتاب في هذا الموضوع.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة الكثير منهم، أن الموضوع كان طريفا مبتكرا: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، هل للمسلمين صلة وثيقة بالمصير الإنساني وبالأوضاع العالمية، حتى يجوز أن يقال: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أو ماذا سيربح العالم ويجنيه من الفوائد بتقدم المسلمين وتسلمهم لقيادة البشرية؟

كان الناس قد اعتادوا في ذلك العصر، وقبل العصر الذي ألف فيه هذا الكتاب، أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمي، أو ينظروا إلى المسلمين كشعب عادي وكأمة من أمم كثيرة، ولكن تشجع مؤلف هذا الكتاب وتخطي هذه الحدود المرسومة، وخرج من الإطار التقليدي الذي فرض على المؤلفين والكتاب في العرب والعجم، فأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين، وشتان بين النظرتين؛ نظرة ينظر بها إلى المسلمين من خلال العالم ومن خلال الحوادث التي جرت في العالم، ومن خلال التطورات التي حدثت في التاريخ، المسلمون شعب من الشعوب، يخضعون لما يجري في العالم في إطار عام واسع، فكان المنهج الفكري العام وأسلوب البحث الدائم، ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلاني؟ وبسبب انقراض الحكومة الفلانية، ماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة؟ ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرى التي حدثت في الغرب؟ ماذا خسر المسلمون بانقراض الخلافة العثمانية؟ وماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين، ماذا خسر المسلمون بفقرهم في الاقتصاد، وفي السياسة، وفي القوة الحربية؟

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدي الذي اعتاده الناس، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمني وشرح صدري لأن أكتب في موضوع «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، كأن المسلمين هم العامل العالمي المؤثر في مجاري الأمور في العالم كله، ليس في بقعة جغرافية محدودة، أو منطقة سياسية خاصة. هل المسلمون حقا في وضع يمكن أن يقال إن العالم

قد خسر شيئا بانحطاطهم، هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال إن العالم قد خسر شيئا بتقهقرهم، وبتخلفهم عن مجال القيادة العالمية، إنني أخاف وأخشى أن كثيرا من الكتاب الإسلاميين الذين كانت لهم مواقف جليلة. وكانت لهم سوابق عديدة، لم يفكروا هذا التفكير، إن تشويه التاريخ الإسلامي والنظر إليه من من زاوية ضيقة، ومركب النقص الذي أصيب به الجيل الجديد المثقف، كان يعوق كثيرا من الباحثين عن أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم وبقضية الإنسانية، أين المسلمون من القيادة العالمية؟ المسلمون فقراء، المسلمون ضعفاء، المسلمون محكومون من الغرب، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة، فهل يصح أن يربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين وواقعهم؟ لا! إن كثيرا من الناس لم يكونوا يصدقون في ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير، ومن المكانة ما يؤهلهم لهذا البحث، ويسوغ لمؤلف أن يؤلف كتابا، فيبحث عن مدى خسارة العالم الإنساني والعالم المعاصر بانحطاط المسلمين، إن الموضوع كان خطيرا، وكان البحث فيه شبه مجازفة ومغامرة علمية، ولكن الله سبحانه وتعالى أعان على ذلك.

ألفت هذا الكتاب على تردد وتخوف، لأنني كنت جديدا في مجال التأليف، خصوصا في اللغة العربية[1]، فقد كانت صلتي بها صلة دارس يولد بعيدا ويعيش بعيدا عن مركز الثقافة العربية وعن مركز العلوم الإسلامية الأصيل، وكان يساورني شك، هل ينال هذا الكتاب تقديرا في البيئات العربية والإسلامية البعيدة؟ فأرسلت قائمة محتوياته إلى الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر، ورئيس الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، وقد نالت كتبه خصوصا سلسلة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» إعجاب القراء الباحثين، كان لها دوي في الأوساط العلمية، وكنت معجبا بها، وقد درستها دراسة عميقة، وعلقت على آرائه بالموافقة في الغالب، وبالنقد والاختلاف في بعض الأمكنة، وأعجبت بأسلوبه المركز الذي يجري مع الطبع، وآثرت أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسسة العلمية التي كانت لها ولما يصدر منها قيمة علمية كبيرة في الشرق العربي، فيقبل على قراءته الشباب المثقف والمعنيون بالأبحاث العلمية

---

(١) سبق للمؤلف تأليف سلسلة «قصص النبيين للأطفال» (١-٢) و«القراءة الراشدة» (١-٢-٣) و«مختارات من أدب العرب». وكلها كتب دراسية ألفت لأبناء المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المعاهد الدينية في الهند.

والدراسات الموضوعية، وأنا لا أعلم مصير هذه الأوراق التي تعطي فكرة إجمالية عن الكتاب، ومؤلفه مجهول، ليس له أثر علمي ولا شافع ولا مزك.

وفوجئت بكتاب تلقيته منه يطلب مني فيه نموذجا من هذا الكتاب، فأرسلت إليه قطعة من الكتاب.

وقعت موضوعات الكتاب، والعناوين الجانبية التي كانت تدل على محتويات الكتاب، وما حوته من مادة وبحوث؛ من الدكتور موقعا حسنا، ولكنه تخوف أن يكون هذا الكتاب الذي صدر من قلم عالم ديني، نشأ وتثقف بعيدا عن العالم الغربي، يغلب عليه الطابع الديني واللغوي- شأن علماء الأزهر والمعاهد الدينية القديمة- فسأل هل استفاد المؤلف من المراجع الأجنبية؟ فلما كان الجواب بالإيجاب، وأرسل المؤلف ثبت المراجع الإنجليزية؛ اطمأن قلب الدكتور، وأخبر بأن اللجنة قررت طبع هذا الكتاب، وأبدى إعجابه بالكتاب سواء من الناحية الأدبية أو الناحية المعنوية، وكان اليوم الذي تلقى فيه المؤلف هذه الرسالة من الدكتور، من أعظم أيام العمر فرحا وسرورا، لا ينساه المؤلف حتى اليوم.

ومضت على ذلك شهور، وأنا لا أعلم مصير هذا الكتاب، وقد سافرت في أثناء هذه المدة إلى الحجاز للمرة الثانية، وذلك في سنة ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م)، وفوجئت بنسخة مطبوعة عند سفير سورية الأستاذ جواد المرابط عضو المجمع العلمي بدمشق، كان قد استصحبها من القاهرة، وكان يبدي إعجابه بعمق فكر علماء الهند وأصالته، مستشهدا بهذا الكتاب، الذي وقع إلى يده في زيارته القريبة لمصر، وهو لا يعرف أنه يتحدث إلى مؤلفه، ومن السهل الميسور تقدير فرح المؤلف الشاب المغمور، الذي يفاجأ بأثره العلمي التأليفي الأول، الصادر من أكبر دور النشر، فاستعاره من سعادة السفير ليرده إليه بعد مطالعته، ولكنه فوجئ كذلك بأن المقدمة الصغيرة التي قدم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب، لم تكن فيها تلك القوة التي كان يتوقعها المؤلف من كاتب إسلامي كبير كالدكتور أحمد أمين، وكان متحفظا شديد التحفظ في إبداء انطباعه عن الكتاب ومؤلفه.

ولم يكن الأمر غريبا- وإن كان ثقيلا على المؤلف- فليس كل من يقدم كتابا يتحمس للموضوع الذي كتب فيه، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدم يتجاوب مع فكرته، ويؤمن بها إيمانا عميقا، وليس كل باحث علمي وكاتب كبير- وإن كان في درجة الدكتور أحمد أمين بك- يرى أن العالم قد خسر حقا، والإنسانية قد نكبت نكبة كبيرة بانحطاط

المسلمين، وانسحابهم عن ميدان القيادة والتوجيه العالمي، فذلك نمط خاص للتفكير والتفسير للتاريخ، ليس من اللازم أن يقتنع به كل مؤلف ودارس، وليست التبعة على الدكتور أحمد أمين- وفضله لا ينكر في نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر الموقرة- ولكن التبعة على مؤلف الكتاب الذي أمل فيه الآمال البعيدة، وحمله ما لم يتهيأ له فكريا وعلميا، ولم تساعد ظروفه التربوية والدراسية الخاصة على انتهاج هذا المنهج، ثم لعل الدكتور أحمد أمين الذي كان يعتبر من أساتذة الجيل الجديد ومن كبار المؤلفين والأدباء؛ خاف- وله الحق- أن يعطي المؤلف- الذي لا يعرفه معرفة شخصية، ولم يتحقق من مستواه العلمي والنظرة التي ينظر بها إليه مواطنوه وعلماء بلاده- مما يستحق، فيقال إنه كساه ثوبا سابغا فضفاضا أكبر من قامته وقيمته، وسامحه الله وجزاه عن المؤلف والقراء أحسن الجزاء، فقد كان السبب في وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلمية المتنورة التي لا تعير كتابا يصدر عن مؤسسة دينية شيئا من العناية والاهتمام.

واتفقت رحلة المؤلف إلى مصر في يناير ١٩٥١م بعد ما مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر، فوجد أن الكتاب قد شق طريقه إلى الأوساط العلمية والدينية، وحل منها محلا لم يكن يتوقعه المؤلف بل يحلم به، وقد قرئ في نطاق واسع من المثقفين والمعنيين بقضية الإسلام وانتفاضته، وصحوة المسلمين، وكان نشاط «الإخوان المسلمين» قد بدأ يدب، وخفف الخناق عليهم بعض التخفيف، وكأن هذا الكتاب قد جاء في أوانه ومكانه، وتناغم مع شعوره وما يدعون إليه، وكان الجرح عميقا وداميا: شهادة الإمام الشهيد حسن البنا، وحل حركة الإخوان، فجاء هذا الكتاب مسليا معزيا، بل كسلاح علمي يدافعون به عن فكرتهم، وشحنة جديدة وزادا ومددا (لبطاريتهم)، فقرؤوه في المعتقلات، وقرروه في منهج الدراسة والمطالعة، واستشهدوا ببعض عباراته في المحاكم، واستقبلوا- بطبيعة الحال- مؤلفه بحماس وحب، وكان الكتاب خير معرف للمؤلف الزائر الجديد، وممهدا للثقة به والحديث معه.

وكان الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ سيد قطب في مقدمة من رحب بهذا الكتاب، وعنى به، وشجع تلاميذه وإخوانه على مطالعته، وفي يوم من الأيام[١] تلقى المؤلف دعوة من الأستاذ سيد قطب لحضوره ندوة تجتمع في منزله بحلوان كل جمعة، وتبحث في

(١) كان ذلك في ١٩ / ٨ / ١٣٧٠هـ (٢٥ نيسان ١٩٥١م)، (مذكرات سائح في الشرق العربي).

موضوع إسلامي، أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين وتتناول البحث فيه، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب (ماذا خسر العالم)، وقد لخصه أحد تلاميذه من خريجي جامعة فؤاد الأول، فلبى المؤلف هذه الدعوة الكريمة الحبيبة، التي هي رمز لتقدير مجهوده العلمي الكتابي المتواضع وتشريف له، فحضر هذا الندوة وساهم في البحث، وأجاب عن بعض الأسئلة الموجهة إليه كمؤلف.

وهناك بدت له فكرة الطلب من الأستاذ سيد قطب ليقدم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القوي، وأسلوبه العلمي الهادف، وقبل الأستاذ سيد قطب هذه الدعوة بسرور وحماس، وكتب تلك المقدمة القوية التي زادت في قيمة الكتاب وقوته.

وصادف ذلك طلب الأستاذ الفاضل والعالم المؤمن الدكتور محمد يوسف موسى، أستاذ كلية أصول الدين في الأزهر، ورئيس جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر- الذي كان من كبار المعجبين بهذا الكتاب المنوهين به، والحافزين على قراءته- إصدار الطبعة الثانية المنقحة من جماعة الأزهر[1]، فسمح له المؤلف شاكرا مسرورا، وأخذ الدكتور التصريح والموافقة من الدكتور أحمد أمين، وكتب مقدمة يتجلى فيها إخلاصه وحبه، واستجابته للفكرة، حلى بها جيد الكتاب. وفاجأ المؤلف صديقه الدكتور أحمد الشرباصي- أحد علماء الأزهر وأساتذته- في إحدى زياراته، فاختلس منه معلومات عن أسرته وبيئته ونشأته، ودراسته وحياته، لا يعلم المؤلف ماذا سيصنع بها، فكون بها مقالا عن المؤلف عنونه بـ«أخي أبو الحسن» (صورة وصفية)، وضمه إلى الكتاب، ولم يعلم به المؤلف إلا حين صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٥٣م، وتلت هذه الطبعة طبعات وترجمات في لغات الشرق والغرب، وها هي ذي الطبعة الثالثة عشرة القانونية.

وهذه قصة الكتاب في إيجاز وصدق وصراحة، ولله المن والفضل أولا وآخرا.

٢٠ رجب ١٤٠١ — أبو الحسن علي الحسني الندوي

٢٥ مايو ١٩٨١م — ندوة العلماء- لكهنؤ

---

(١) وذلك في ٣ حزيران ١٩٥١م.

مقدمة الطبعة الثامنة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيسرني ويسعدني- كأي مؤلف وكاتب، وداع إلى فكرة، وعامل لدعوة- أن أكتب مقدمة للطبعة الثامنة لهذا الكتاب الذي لم أكن أتوقع حين صدرت له الطبعة الأولى، أن تتلوها هذه الطبعات المتكررة الكثيرة، وأن ينال هذا القبول والانتشار في العالمين العربي والإسلامي، وأن تتخطفه الأيدي، وتتنافس في نشره المكتبات الكثيرة التي تعني بالكتاب الإسلامي، وأن ينقل إلى عدة لغات وتكرر فيها الطبعات[١]، ولم يكن ذلك إلا بنصر الله وتأييده، وهو دليل على وجود القبول الطيب، والتجاوب الروحي مع الفكرة التي يحملها هذا الكتاب، والغاية التي يدعو إليها.

ومن غريب المصادفات، أن هذا الكتاب الذي كان أول مؤلف عربي للمؤلف، لم ينل حظه من التنقيح والزيادة، رغم طبعاته المتكررة[٢]، كما نالت مؤلفاته الأخرى، إلا ما كان من زيادة يسيرة في الطبعة الثالثة، وبقي هذا الكتاب يعاد طبعه من غير تنقيح وزيادة، وينفد سريعا، ولا يجد المؤلف فرصة للنظر فيه، وضم بعض ما سنح له من آراء أو معلومات، ولا ينتظر الناشرون- لسرعة نفاد النسخ المطبوعة وكثرة طلبها- أن يتناوله المؤلف بالتنقيح والزيادة، فكانت الطبعات كلها صورة واحدة، ونسخة صادقة للطبعة الثالثة، حتى هيأ الله هذه الفرصة في شهر الله المحرم سنة ١٣٨٩هـ (مارس- إبريل ١٩٦٩م)، حين أرادت دار القلم- الكويت طبع هذا الكتاب من جديد، فانقطع المؤلف إلى قراءته ومقابلته بالنصوص والمراجع، فصحح بعض الأخطاء، وخرج الأحاديث الواردة فيه، وأحال الآيات إلى مواضعها في المصحف الشريف، وزاد زيادات لا يكثر عددها،

---

(١) صدرت للترجمة الإنكليزية ثلاث طبعات إلى حين كتابة هذه السطور، وطبعتان للترجمة الفارسية في (قم) إيران، وطبعة على الأقل في التركية، وظهرت الطبعة السادسة للترجمة الأردية في عام ١٩٦٨م.

(٢) مما يؤسف المؤلف ذكره أن بعض المكتبات طبعت هذا الكتاب من غير استئذان ولا علم المؤلف، ولم تعن بالضبط والتصحيح، بل وقع في بعض الطبعات قلب في المواد المطبوعة وخبط في الصفحات.

ولكنها تزيد في قوة الكتاب وقيمته، وتملأ فراغا كان يشعر به المؤلف.

وبذلك كله تصدر هذه الطبعة أكثر ضبطا وإتقانا، وأحسن تنقيحا وتهذيبا، وأغنى مادة، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وله الحمد في الأولى والآخرة.

٢٨ محرم الحرام ١٣٨٩ هـ — أبو الحسن علي الحسني الندوي

يوم الأربعاء ١٦ / ٤ / ١٩٦٩ م — ندوة العلماء- لكهنؤ

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد، فقد ظهرت الطبعة الأولى لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م فكان الإقبال عليه عظيما تخطى قياس المؤلف ورجاءه، فقد كان كتابا لا يسترعي اهتمام القراء إلا موضوعه- الذي يكاد يكون طريفا- وما يحتوي عليه من مادة ومعنى، ولم يكن من ورائه شخصية المؤلف وشهرته، فلم يكن قد ظهر لمؤلفه كتاب آخر قبل هذا الكتاب في العالم العربي، ولم يعرفه الناس في هذه الأقطار، فكانت العناية بهذا الكتاب عناية خالصة مجردة للكتاب وللموضوع، ليس فيها نصيب لشخصية المؤلف وشهرته.

ولا يعلل هذا الإقبال النادر الذى حظي به الكتاب إلا بفضل الله تعالى ولطفه، وبعد ذلك بأن هذا الكتاب قد جاء في أوانه، وصادف رغبة غامضة واتجاها مبهما في النفوس، وبأنه يتجاوب مع شعور كثير من المفكرين والمثقفين في العالم العربي، ويلتقي مع أفكارهم وآرائهم ودراستهم.

وعلى كل فقد كان الكتاب واسع الانتشار في العواصم العربية والأوساط العلمية، وتناوله طبقات الأمة وبعض قادة الفكر بالدراسة والبحث ، وأشار المربون والمعلمون على الشباب بمطالعة هذا الكتاب، والحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات.

وقد قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة بالطبعة الأولى، وكان لها- ولا شك- فضل في ظهور هذا الكتاب في مظهر جميل لائق، وفي نفوذه في الأوساط العلمية والأدبية، وحرصت جماعة الأزهر للنشر والتأليف- وفيها أصدقاء المؤلف- على إعادة طبع الكتاب، فصرحت لها بذلك، ووافق عليه المرحوم الأستاذ الكبير الدكتور أحمد أمين (بك) رئيس اللجنة، فظهرت الطبعة الثانية سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م، وفيها مقدمات للدكتور محمد يوسف موسى، والكاتب الإسلامي الأستاذ سيد قطب، وصديق المؤلف الشيخ أحمد الشرباصي، زادت في قيمة الكتاب.

ظهرت الطبعة الثانية ، وأنا في جولتي في الشرق الأوسط، فلم أتمكن من أن أضم

إليها زيادات كنت أفكر فيها وأشعر بالحاجة إليـها، وهيأ الله أسباب الطبعة الثالثة، ووقعت إلى مصادر جـديدة، وجد عندي بعض الآراء ونواح جديدة فـألحقتها بالكـتاب، وتأخرت هذه الطبعة لبعض الأسباب إلى سنة ١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م، ونفدت في مدة قريبة، وها هي الطبعة الرابعة مزيدة منقحة.

وأسأل الله سبحـانه وتعالى أن ينفع بهذه الطبعة- وما يليهـا من طبعات إن شاء الله- كما نفع بالطبعات الأولى، وأن يجـعل هذا الكتاب وسيلة للوعي الجديد، والإيمان الجديد الذي تشتد حاجة العالم الإسـلامي إليه، إنه على كل شيء قدير.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

لكهنؤ (الهند)

تصدير بقلم فضيلة الاستاذ
الدكتور محمد يوسف موسى

اتصال السماء بالأرض لأداء رسالة من الله المتفرد في سموه وعليائه، إلى عبيده المحتاجين لهديه وإرشاده، حدث من الأحداث العظام، وخرق لنواميس الطبيعة التي لا تتغير من طريقها المرسوم إلا حين الحاجة القصوى، ولغاية قدرها العزيز العليم.

وليس يحدث أو يكون أمر في هذا العالم إلا عن سبب اقتضى حدوثه وكونه، ولغاية أريدت منه.

وظهور الإسلام، وهو أعظم ما رأى العالم من أحداث، لابد له من أسبابه التي استلزمته، وممهداته التي أعدت له، وغايته التي تنتظر دائما منه.

ولسنا الآن بسبيل الحديث- ولو بالإيجاز الشديد- عن هذه الأسباب والممهدات التي أعدت لظهور الإسلام بعد أن خلا العالم الذي كان معروفا حينذاك من المجتمع الصالح والدين الصحيح، ولسنا كذلك بسبيل الحديث عن الغاية التي جاء الإسلام من أجلها، وعمل نبيه ورجاله الأولون جاهدين على الوصول إليها، فسعد به العالم زمنا طويلا، كل ذلك معروف، يصبح الكلام فيه حديثا معادا، ولا محل لمثل هذا الحديث الآن في الكلمة التي يسعدني أن أقدم بها لهذا الكتاب، استجابة لطلب مؤلفه صديقنا الأستاذ الجليل السيد أبي الحسن على الحسني الندوي، أحد دعاة الإسلام من الطراز الأول في هذا العصر الذي نعيش فيه.

على أن الكتاب في غير حاجة حقا لتقدمة مقدم، فقد تقبله القراء بقبول حسن، وخصوه بحفاوة لم يظفر بها كتاب ظهر عن الإسلام في هذه الأيام، وإنما هو تواضع وفضل من المؤلف الصادق الإيمان جعلاه يطلب مني هذه الكلمة.

وأشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم، وأغرمت به غراما شديدا، حتى لقد كتبت في آخر نسختي وقد فرغت منه: (إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام)، وكل هذا قبل أن أعرف المؤلف الفاضل، فلما سعدت بمعرفته والحديث معه مرات عديدة، فهمت كيف ولماذا فتنت

بالكتاب، وعـرفت أن مرد هذا كله- فـوق ما به من ثمرات التـوفر على البـحث ونشدان الحق- إلى معرفة الكاتب بالإسلام معرفة حـقة، وأخذ نفسه في حياته به، والإخلاص في الدعوة الصحيحة له.

لقد أحس صديقنا الفاضل أبو الحسن ما نحسه جـميعا في حسرة بالغة، وألم شديد، وهو ما ارتضته الدول الإسلامية لنفسها من السير في المؤخرة وراء العالم الغربي، تميل إلى ما يميل وتقبل حكمه فيما يعرض له من شؤونها، وترضى ما يقره من (قيم) حسب موازينه الخاصـة به، وكان مـن هذا أن فقـد العربي- والمسلم بعـامة- ثقـته بنفـسه وجنسـه ودينه ومعاييره، وقـيمه العالية التي كان يحـرص عليها أجداده وأسلافه الأمـاجد، ويحلونها من أنفـسـهم المكان العلي المرمـوق، وهذه علتنا التي يجب أن نطـب لها، وفي ذلك تـتركـز مشكلتنا، أو مـشاكلنا التي يجب علينا أن نجـد الحل الناجع لها من صمـيم ديننا وتاريخنا وتراثنا الروحي العقلي الخالد، وإلى هذا كله نظر مؤلف كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وإليه جميعه عنى نفسه وعمل جهده.

حقا ليست مشكلة العالم الإسلامي اليوم في عدم الدعاوة للإسلام بين غير المسلمين، ولا في اكتساب مسلمين جدد، وإنما هذه المشكلة هي انصرف المسلمين عن الإسـلام، وعن الشرق إلى الغرب بحضارته وقيمـه التي يدعو إليها وموازينه التي بها يزن الأمور، ومن ثم صرنا مـسلمين بالاسم والولادة والموقع الجغرافي فـحسب، وعزفنا عن الإسـلام بالفعل، حتى أصبحنا لا نـعرفه في تشريعنا وتقاليدنا التي نأخـذ هذه الأيام أنفسنا بها ، ولسنا في حاجة في هذا لضـرب الأمثال التي نحسها ونلـمسها جميـعا في رجال الحكم، وفي ممثلي البلاد الإسلامية في الشرق والغرب، وفيمن يجب أن يكونوا القدوة الطيبة بحكم مناصبهم الدينية في مصر وغير مصر، والأمر لله من قبل ومن بعد.

ولقد اختتم الله بالإسلام رسالته للـعالم، فليس لنا أن ننتظر اتصالا جديدا من السماء بالأرض يطهرها مما كاد يعمها من شرك وضلال وفساد، ولا نبيا آخر بعد رسول الإسلام، يخرج العالم برسالة جديدة من الظلمات إلى النور، ولا قرآنا جديدا يهدي الإنسانية الحائرة إلى سبيل الرشد والسعادة، ولكن الله الرحـمن الرحيم ترك فينا بعد هذا، أو بسبب هذا، كتابا لن يضل من اتبعه، وشريعة لن يشقى من عمل بها.

وكل ما يجب أن نعـمل له، لنخرج والعالم كـله من هذه الجاهلية التي احـتوتنا من

جميع الأطراف، هو إعادة الثقة بديننا حتى يكون أساس حياتنا في كل مقوماته، وليس لنا أن نطلب من أحد أن يؤمن بهـذا الدين قبل أن نؤمن نحن أولا به، ولن يكون هذا الإيمان إلا بالقدوة الطيبة الصالحة نقدمها للناس جميعا.

إن العالم- وهذا أمـر لمسناه بأنفسنـا لمـا بأوروبا- يتخـذ من فشل المسلمين سـياسـيا واقتصاديا دليـلا حاسما علي عدم صلاح الإسلام لقـيادة المسلمين، بله العالم كله! مع أن هذا العالم المسيحي نفـسه حين كان المسلمون مسلمين حقا من ناحية الـعقيدة والعمل على السـواء، قد تزعزع عن مسـيحيته عندما شاهد ما أحـرزته سيوف المسلمين من نجاح منقطع النظير، إذ اعتـقدوا- بحق - أن نجاح المسلمين هذا دليل قاطع عـلى صدق دينهم، ما دام الله لا يؤتي نصره إلا لعباده المختارين(١).

وليس ما نقـول من أثر القوى الطيبـة الصالحة في الدعاوة للإسـلام، بالقول الذي لا يرتكز على دليل وشـواهد من التاريخ الصـحيح، إن صاحب كـتاب الدعـوة إلى الإسلام نفسه يذكر ما يأتي حرفيا:

«ويظهر أن أخلاق صلاح الدين، وحـياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خـاصا، حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين، قد بلغ من قـوة انجذابهم إليه، أن هجـروا ديانتهم المسـيحـية،وهجروا قـومهم وانضـموا إلى المسلمين، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية فارس إنكليزي من فرسان المعبد يدعى (روبرت أوف سـانت البـانس » (Robert of St. Aibans) عـام ١١٨٥م واعـتنق الإسـلام، ثم تزوج بإحـدى حفـيـدات صـلاح الدين، وبعـد عامين غـزا صـلاح الدين (فلسطين) وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة (حطين) وكان جوى (Goy) ملك بيت المقدس بين الأسرى. وحـدث في مسـاء المعركة أن ترك الملك ستـة من فرسانه، وفروا إلى معسكر صلاح الدين بمحض إرادتهم »(٢).

هذا شاهد من الشواهد التي لا تحصى كثرة، والـتي تزخر بها كتب التاريخ في القديم

---

(١) نظر في هذا كتاب (الدعـوة إلى الإسلام) للسير توماس أرنولد، الإنجليزي المعـروف، ص ٧ من الترجمة العربية . د. حسن إبراهيم وآخرين.

(٢) ص ٨٢-٨٣ من الكتاب المذكور.

والحديث، ومنها نعلم أثر القدوة الطيبة في النفوس، حتى في نفوس غير المسلمين الذين كنا نراهم خصوما لنا وأعداء؛ ومنها نعلم أيضا سببا من الأسباب القوية التي يسرت للمسلمين ما فتح الله عليهم من فتوح، وما ظفروا به من أمجاد.

إن هذا الإسلام لا يصلح اليوم إلا بما صلح به في الأمس، إيمان بـه إيمانا يخالط شغاف قلب المؤمن، واستعذاب للتضحية في سبيله بما يعتز به المرء من مال ونفس، واعتزاز بما جاء به من تشاريع ومبادئ وتقاليد صالحة لإنهاض العالم وإسعاده، ودعوة له بالعمل الصالح والقوى الطيبة، وعدم القضاء إلا بحكمه، وجعل الحياة في كل جوانبها لا تقوم إلا عليه.

علينا إذا أردنا أن نأخذ مكاننا من جديد في قيادة الإنسانية أن نعتقد اعتقادا حقا يظهر أثره في كل ما نقول أو نعمل- ما يراه شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال- من أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه، ومقام الآمر الناهي، وإذا تنكر له الزمان، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره، ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله، ويظل في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في أمره. إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد[1].

وبعد: ماذا أريد أن أقول بعد ذلك في هذه الكلمة التي أحسبها طالت بعض الشيء في تقديم كتاب هو بنفسه وبكاتبه غني عن كل تقديم، كما قلت في أول الحديث؟

إني- علم الله- لست أذكر فيما قرأت من القديم والحديث كتابا حوى من الخير ما حواه هذا الكتاب، ولا كتابا وضع أيدينا على دواء ما نشكو منه من أدواء وأمراض، كما فعل هذا الكتاب، ولا كتابا نفذ كاتبه إلى روح الإسلام، وأخلص ويخلص في الدعوة له، ويقف كل جهوده على هذه السبيل كهذا الكتاب.

---

(١) من بحث للأستاذ أبي الحسن الندوي نفسه عنوانه (شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، ص ٦٦-٦٨).

علينا إذا أن نفيد من هذا الكتاب، ومن الوسائل التي يدعو مؤلفه الفاضل لاصطناعها، لنصل إلى النهضة المرجوة، والكرامة والمجد في هذه الحياة، وفي الحياة الأخرى، وذلك ما لا يكون لنا إلا إذا غيرنا من أوضاع التعليم ومناهجه وغاياته عندنا، وإلا إذا جعلنا همنا تربية النشء على أسس إسلامية صحيحة، وجعلنا الغاية من التربية والتعليم عندنا: النهضة بالعالم الإسلامي حتى يصل إلى ما يجب أن يكون له من مكانة ملحوظة فى هذا العالم، واصطنعنا لهذا الوسائل الناجعة حقا.

إن هذا حين يتم، إن أراد الله لأمة الإسلام إفاقة من نومها، ونهضة من كبوتها، يجعل من تلاميذ اليوم رجالات مسلمين حقا في المستقبل، يحسنون تصريف شؤون الأمة حين توضع أمور الأمة بين أيديهم، ويجعل منهم رجالا شجعانا أمناء لدينهم وأمتهم، لا هم لهم في حياتهم إلا إعادة مجد الإسلام والعالم الإسلامي.

والوسائل الناجعة للوصول إلى تلك الغاية المجيدة من التربية والتعليم جد كثيرة ومعروفة إن أردناها، ولكن يحسن أن نختم هذه الكلمة بقبس من كلام الأستاذ أبي الحسن الندوي نفسه، إنه يقول:

«والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة منخذلة ناعسة: أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقا على الجاهلية، وسخطا على النظم الخائرة. إن علة العلل في العالم الإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة، والتبذير الزائد في الحياة؛ فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيجه منكر، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس؛ ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية، إن وجدا إلى القلب سبيلا، يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين والشك، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة، بين راحة الجسم ونعيم القلب، وبين حياة البطولة وموت الشهادة، صراع أحدثه كل نبي في وقته، ولا يصلح العالم إلا به، حينئذ يقوم في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، وفي كل أسرة إسلامية ﴿ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤]. هنالك تفوح روائح الجنة، وتهب نفحات القرن الأول ويولد للإسلام عـالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء»!.

من هذه الكلمات التي قبسناها من هـذا الكتاب الذي نكتب هذا التقديم له، نرى أي روح كبيرة أملت على المؤلف ما كـتب! نفع الله به وبكل آثاره، وجزاه عن الإسلام وأمته خير الجزاء.

محمد يوسف موسى

مقدمة

بقلم الكاتب الإسلامي الأستاذ سيد قطب

ما أحـوج المسلمين اليـوم إلى من يرد عليهـم إيمانهم بأنفسـهم، وثقتـهم بماضيـهم، ورجاءهم في مستـقبلهم.. وما أحوجهم لمن يرد عليـهم إيمانهم بهذا الدين الذي يحملون اسمه ويجهلون كنهه، ويأخذونه بالوراثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة.

وهذا الكتاب الذي بين يدي: «ماذا خسـر العالم بانحطاط المسلمين؟» لمؤلفه (السيد أبي الحسن على الحسني الندوي) من خير ما قـرأت في هذا الاتجاه، في القديم والحديث سواء.

إن الإسلام عـقيدة استـعلاء، من أخص خصائصـها أنها تبـعث في روح المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر، وروح الثقة في غير اغترار، وشعور الاطمئنان في غير تواكل، وأنها تشعر المسلمين بالتبعية الإنسانية الملقاة على كواهلهم، تبعة الوصاية على هذه البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة في هذه الأرض للقطعان الضالة، وهدايتها إلى الدين القـيم، والطريق السوي، وإخـراجهـا من الظلمـات إلى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفـرقان: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]... ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا الكتاب الذي بين يدي يثـير في نفس قارئه هذه المعاني كلهـا، وينفث في روعه تلك الخصـائص جميـعها، ولكنه لا يـعتمـد في هذا على مجرد الاسـتثارة الوجـدانية أو العصبيـة الدينية، بل يتخذ الحقائق الموضـوعية أداته، فيعرضـها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعا، ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات عرضا عادلا مستنيرا؛ ويتحاكم في القضية الـتي يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق والضمـير، فتبدو كلها مـتساندة في صفه وفي صف قضيـته، بلا تمحل ولا اعتسـاف في مقدمة أو نتيـجة، وتلك مزية الكتاب الأولى.

إنه يبدأ فيرسم صورة صغيرة سريعة- ولكنها واضحة- لهذا العالم قبل أن تشرق عليه

أنوار الإسلام الأولى. . يرسم الصورة لهذا العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، من الهند والصين إلي فارس والروم، صورة المجتمع وصورة الضمير في هذه الدنيا العريضة، في الجماعات التي تظلها الديانات السماوية، كاليهودية والمسيحية، والتي تظلها الديانات الوثنية، كالهندوكية والبوذية والزرادشتية. . . وما إليها.

إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفا بينا، لا يعتسف المؤلف فيه، ولا يستبد به، إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين، وممن يدينون بغير الإسلام، فلا شبهة في أن يكونوا مغرضين له؛ وللدور الذي أداه في ذلك العالم القديم.

إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية، ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت جامدة، لا حياة فيها ولا روح؛ وبخاصة المسيحية.

. . . فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم بجاهليته هذه، بدأ يعرض دور الإسلام في حياة البشرية، دوره في تخليص روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، ودوره في تخليص المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان ومن التفكك والانهيار ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان ودوره فى بناء العالم على أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة.

كل أولئك في إبان الفترة التي كانت القيادة فيها للإسلام في أي مكان، والتي كان الإسلام فيها يعمل، وهو لا يستطيع أن يعمل إلا أن تكون له القيادة، لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء، ومنهج قيادة، وشرعة ابتداع لا اتباع.

ثم تجيء الفترة التي فقد الإسلام فيها الزمام، بسبب انحطاط المسلمين، وتخليهم عن القيادة التي يفرضها عليهم هذا الدين، والوصاية التي يكلفهم بها على البشرية، والتبعات التي ينوطها بهم في كل اتجاه.

وهنا يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية، ويصف ما حل

مسعود الندوي[١]، واشتغل كذلك بالتأليف في الأوردية وأظهر كتابه (سيرة السيد أحمد الشهيد) (وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره)، فكان الإقبال عليه عظيما حتى طبع أربع مرات.

ثم انتقل إلى دلهي، والتقى بالداعية المجدد العظيم الشيخ محمد إلياس، وكان هذا اللقاء نقطة تحول في حياة أبي الحسن، لأن الشيخ محمد إلياس كان مرشدا شعبيا، له صلة عميقة وثيقة بالجماهير عن طريق الدعوة إلى الله، وأبو الحسن لم يكن متصلا بالشعب قبل ذلك، بل كان مقتصرا على الدراسة والتأليف، فأخذ يتصل بأهل القرى والدساكر، ويقوم برحلات إسلامية قد تستغرق الواحدة منها شهرا،لنشر الدعوة في قرى الهند ومدنها، وكان الشيخ إلياس- ولا يزال- هو مثل أبي الحسن الأعلى في الحكمة الدينية العميقة، وفي قوة الإيمان، لأن الشيخ إلياس- كما يقول أخونا- كان صورة من السلف الصالح، وكان مخلصا غيورا، يتألم لحال المسلمين، ويعمل من أجلهم، ويسير في شؤونهم، ويحترق بروحه القوية الوثابة في سبيلهم[٢].

وتلقى التربية الروحية من العارف الجليل، المربي الكبير الشيخ عبد القادر الرائي بوري[٣] واستفاد من صحبته ومجالسه.

ورأس أبو الحسن تحرير مجلة (الندوة) العلمية التي كانت تصدر بالأوردية وكانت لسان حال الندوة، وكلفته الجامعة الإسلامية في (عليكره) بوضع منهاج، لطلبة (الليسانس) في التعليم الديني، فألف في ذلك كتابا أسماه (إسلاميات) وقبلت الجامعة هذا الكتاب، وكافأت صاحبه عليه، ودعي لإلقاء محاضرات في الجامعة الملية الإسلامية بدلهي في سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م)، فألقى محاضرة في موضوع: (الدين والمدنية) كانت موضع الاستحسان، ونشرت فكان لها تأثير واسع النطاق.

---

(١) انتقل إلى رحمة الله في رجب ١٣٧٣هـ، الموافق ١٦ مارس ١٩٥٤م.

(٢) توفي إلى رحمه الله تعالى عام ١٣٦٢هـ، وللسيد أبي الحسن تأليف في سيرته في أردو، وحديث عنه في محاضرته (الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها) وجماعته التي تعرف غالبا بجماعة التبليغ من أنشط الجماعات، وأوسعها نطاقا في العصر، لها نشاط ملموس، وجولات دائمة في أسيا، وأفريقيا، وأوروبا، وامريكا، ومراكزها في دلهي، عاصمة الهند.

(٣) انتقل إلى رحمة الله تعالى في لاهور ١٥ من ربيع الأول ١٣٨٢هـ (من أغسطس ١٩٦٢م)، وللسيد أبي الحسن تأليف في سيرته.

وألف في هذه الفترة كتبا لطلبة المدارس العربية في الهند، منها كتاب (مختارات في الأدب العربي)، وقد قررت دار العلوم في الهند، وبعض الجامعات تدريسه، ومنها كتاب (قصص النبيين للأطفال) في ثلاثة أجزاء، وغير ذلك من الكتب، وأصدر مجلة (التعمير) التي كانت تصدر بالأوردية مرتين في الشهر، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس، وأصدرت هذه الجمعية التبشيرية الإسلامية عدة رسائل وبحوث عن الملة الغراء باللغة الإنجليزية المنتشرة هناك، وأسس (المجمع الإسلامي العلمي) في لكهنؤ في آخر سنة ١٣٧٨هـ (١٩٥٩م)، وله نشاط وإنتاج في اللغات الإنجليزية والهندية، والأوردية، والعربية، ومطبوعات قيمة.

وألف هذا الكتاب- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وقد تأخر طبعه وظهوره، وهو يزيد مواده، ويتناوله بالتنقيح والتهذيب، إلى أن صدرت له الطبعة الأولى في مصر، عام ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م).

وأخي المفضال أبو الحسن له غرام أصيل عميق باقتناء الكتب ومسامرتها، والحديث عنها، وأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه، وأغلى ما يهدى إليه كتاب يرضيه ويغذيه، ولا يقتني أبو الحسن الكتب ليزين بها داره، بل ليهضمها قراءة وبحثا ونقدا، وكتاباته المختلفة فيها دلائل واضحة على ذلك، وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات- بجوار الهبة والتجربة- قدرة على الارتجال بالعربية، فهو يتدفق فيها كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل، وأغلب محاضراته يستعد لها، وكثيرا ما يكتبها. وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفي الملتهب، ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضا، وهو- كما عرفت عنه، وكما حدثني مرارا- لا يحب أن يهجم على الحديث في موضوع ذي بال، إلا إذا احتفل به وتهيأ له، وليس ذلك عن قلة بضاعة، ولكنه احتراس العالم الذي يريد أن يستيقن ويثبت!... وقد غلب النثر على أبي الحسن فلم تطاوعه قريحته يوما على نظم الشعر...

وقد ظل الأستاذ أبو الحسن يمارس ألوانا من الألعاب الرياضية، كرة القدم، والسباحة، والصيد، (والهوكي والتنس) ثم انقطع عنها أخيرا، وعلى الرغم من هذا أصابته أمراض استمرت مدة طويلة، وخاصة في الصدر، ثم عافاه الله منها، وبقي له سعال يعاوده من حين لآخر.

وهو يكره التصوير بجميع أنواعه، ويحرمه على نفسه في تشديد ملحوظ ، ولقد زرت معه إحدى دور الطبع والنشر الكبرى بالقاهرة، ورغب مصور الدار أن يلتقط لنا صورا تذكارية، فرفض أبو الحسن، وأصر على الرغم من طول المحاولة والرجاء، وذكر أن المسلمين في الهند (متفقون) على حرمة التصوير.

ولقد سألته ذات مرة عن السابقين الذين تأثر بهم، فأجابني بأنهم: الإمام أحمد بن حنبل صاحب الموقف المعروف في المحنة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ أحمد السرهندي (من سرهند، بلد في البنجاب) المتوفي سنة ١٠٣٤هـ صاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والحقيقة، ومحاربة البدع، والمجدد للملة؛ والشيخ ولي الله الدهلوي، المتوفي سنة ١١٧٦هـ، الباحث الإسلامي العظيم، صاحب (حجة الله البالغة) والسيد أحمد الشهيد مؤسس أول دولة شرعية في الهند في القرن الثالث عشر الهجري[(١)]، وقد استمرت هذه الدولة عدة شهور، ثم ثار عليها الإنجليز بمؤامراتهم فأخذوا عليها الطريق.

وأعظم آمال أبي الحسن أن يرى الإسلام سائدا على الأرض، وأن يرى الدول الباغية معذبة مقهورة حتى يسلي نفسه ويستبشر، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلوا المسلمين، وهو يعتقد ويرى أن بقاء القلة المسلمة في الهند من الخير، وفيه فائدة ترجى للهند، فلعل للإسلام مستقبلا ذا بال هناك.

ولقد رحل أبو الحسن إلى الحجاز في سنتي ١٣٦٧هـ - ١٣٦٩هـ (١٩٤٧-١٩٥٠م)، ثم تبعتها رحلات متتابعة، وقدم إلى مصر سنة (١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م)، وطوف بأغلب العالم الإسلامي، وزار تركيا (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م) وزار عواصم أوربا الكبرى بما فيها أشهر مدن الأندلس الإسلامية: مرة في سنة ١٣٨٢هـ، وثانية في ١٣٨٣هـ (١٩٦٢-١٩٦٣م) فرأى وشاهد[(٢)]، ودرس وكتب، وحاضر وخطب، وكان له في كل أرض نزل بها مجهود وجهود، وعهود.

وقد انتخب أمينا عاما لندوة العلماء على أثر وفاة أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني سنة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٢م)، واختير عضوا مراسلا في المجمع العلمي العربي

---

(١) هو من نفس أسرة أبي الحسن، ومن أشهر رجالها ورجال الهند ، ولد سنة ١٢٠١هـ في رائي بريلي (الهند)، واستشهد في سبيل الله في بالاكوت (باكستان الآن) سنة ١٢٤٦هـ.

(٢) طبعت مذكراته في القاهرة بعنوان (مذكرات سائح في الشرق العربي) سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م).

بدمشق سنة (١٩٥٧م)، ودعى لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر في جامعة دمشق سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م) [1]، واختير عضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م)، وعضوا في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وانتخب رئيسا لهيئة التعليم الديني في الولاية الشمالية في الهند سنة (١٩٥٩م).

وقد سألته وهو بيننا في مصر عن حسنات مصر ، فقال موجزا: الإيمان بالله، والدين، والمحبة للمسلم، وخاصة إذا كان غريبا، ورقة القلب، وسلامة الصدر، وكثرة الأعمال المنتجة... ثم سألته عن السيئات، فتحرج ثم أجاب: السفور، وعدم التستر، والصور الخليعة في الصحف والمجلات، واستهانة بعض العلماء ببعض المحرمات، وعدم المحافظة على الجماعات في المساجد برغم كثرتها، والاندفاع في تقليد الحضارة الغربية بلا تبصر.

وأخي أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة، يتخفف في ثيابه وطعامه وفراشه، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة، ولا يقيم للمال وزنا في حياته، وثقته بربه فوق كل شيء، ومثابرته على النضال في سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال، وإخلاصه العميق سر نجاحه، بينما يفشل الآخرون.

لقد طال الكلام ومع ذلك لم أقل كل شيء عن أخي أبي الحسن !

القاهرة

شوال سنة ١٣٧٠هـ — أحمد الشرباصي

أغسطس سنة ١٩٥١م — المدرس بالأزهر الشريف.

---

(١) ظهر مجموع هذه المحاضرات التي ألقاها الأستاذ أبو الحسن في مدرج الجامعة الكبير في دمشق، وهي اثنتا عشرة محاضرة باسم (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) من مطبعة جامعة دمشق سنة (١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م).

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني

الحمد لله العلي الوهاب، آتى رسوله محمد بن عبد الله ﷺ الكتاب والحكمة وفصل الخطاب، وجعله أحكم داع إلى ربه، وجعله المربي الأمثل، والقدوة الحسنة لأولي الألباب.

وجعل وارثي رسالته من أمته الربانيين، هم الحكماء الراشدين، المجاهدين في سبيل ربهم على منهاجه، بكل ما أتاهم من هبات وطاقات، والظاهرين بالحق، ما تعاقبت العصور، وتوالت الأحقاب، ومهما اختلفت أحوال الأمم، وكثر الظلام وعم الضباب، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

وبعد: فقد احتل هذا الكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» للعالم الرباني، الداعية الناصح المرشد الحكيم، سماحة الشيخ «أبي الحسن على الحسني الندوي» مكانة مرموقة عند أهل الفكر والعلم، منذ ظهوره الأول سنة (١٣٦٩هـ- ١٩٥٠م)، إذ اشتمل على وصف تاريخي لأحوال شعوب الأرض قبل ظهور الإسلام، وما كانت عليه هذه الشعوب من انحطاط فكري وعلمي، وتخلف حضاري، ووثنيات سخيفات، وجاهليات قبيحات، وظلم شنيع، واستبداد واستعباد، من ذوي القوة والسلطان والقهر والطغيان، للسواد الأعظم من الجماهير البشرية، التي لا تملك ما تدافع به القوى الطاغية الآثمة، وتحرر به أنفسها من الذل والاستعباد، وسطوات الاستبداد.

وجاء فيه بيان كيف أن الإسلام قد جاء منقذا للعالم من ويلاته ونكباته، وتخلفه الحضاري، ومما كانت تعاني الجماهير البشرية فيه من ظلم وطغيان، وبغي وعدوان.

وكيف أن الإسلام قد كان قوة انتصار لكرامة الإنسان، وتحقيق لحقوقه الطبيعية الفطرية، بالحجة والبرهان، وبالقوة والسلطان.

وأن الإسلام قد أخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ورفع عنهم جور الأنظمة الموضوعة بالرأي والهوى الإنسانيين، وتحريفات أصحاب الأهواء

للأديان ذوات الأصول الربانية الصحيحة، ومد عليهم ظلال سرادقات العدل والرحمة والإحسان، التي اشتملت عليها مبادئه وعقائده وشرائعه وأحكامه وسائر تعليماته.

وجاء فيه إلقاء الضوء على انحطاط المسلمين، بسبب هجرهم لتعليمات الإسلام، وانتشار الجهل بالعلوم التي تعتمد عليها الحضارات الراقيات، وكيف استفادت شعوب العالم الغربي من أسس الإسلام الحضارية، لبناء حضارة مادية عظيمة، دون أن يستفيد منها لبناء مجتمع إنساني فاضل بعقائده وعباداته وأخلاقه وآدابه وتعاملاته بالحق والعدل والإحسان.

وجاء فيه تأكيد أن الحضارة المادية العظيمة التي بلغها الغرب، دون أن يصونها بالأخذ بسائر عناصر أسس الحضارة الإسلامية، ستكون من أسباب دمار العالم، والعودة بشعوب الأرض إلى سيطرة ذوي القوة والسلطان، على الجماهير التي لا حول لها ولا قوة في رفع الظلم والبغي والعدوان عن ظهورها، وتحقيق أحكام الحق والعدل في المجتمع البشري.

وجاء فيه تأكيد أن انحطاط المسلمين قد سبب خسارة عظيمة للعالم، منذرة بخطر جسيم للإنسانية جمعاء، إذ ملكت الدول العظمى في الأرض مقاليد القوة المدمرة للعالم، دون أن تملك معها الدين الحق الذي هو درع الأمان الواقي من انفجار القوة يوما ما بأيدي أصحاب أهواء لا يخشون الله ولا اليوم الآخر، وفي نفوسهم شهوة امتلاك كل شيء في الأرض؛ من أشياء وأحياء وشعوب إنسانية.

وجاء فيه بيان كاف لكثير من قضايا العالم المعاصر الاجتماعية، وما فيه من انحرافات منذرات بالدمار، مع اشتماله على استشهادات كثيرات بأقوال كبار أهل الفكر الغربيين، وهذه الأقوال تؤيد في مضامينها القضايا التي جاء في الكتاب بيان وجه الحق فيها.

وسماحة الشيخ «أبي الحسن علي الحسني الندوي» غني عن أن يعرف به وبكتاباته النفيسة أحد، بعد أن ذاعت شهرته في أرجاء العالم الإسلامي.

وكلمتي هذه بمثابة من يحمل كشافا عاديا بيده، ليدل بنوره الضئيل بعض ذوي الأبصار، حتى تتوجه أعينهم لرؤية مصباح كهربائي عظيم، ينير مساحات واسعات على امتداد جوانب دائرته.

وأخيرا أسأل الله العلي القدير، أن يطيل عمر الشيخ مع كمال العافية، ويجعل النفع بما كتب من مؤلفات وأسس من مؤسسات ممتدا مادام على وجه الأرض إنسان قابل لأن

ينتفع لدينه ودنياه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين.

مكة المكرمة في ١٨ شعبان ١٤١٨هـ عبد الرحمن حبنكة الميداني

و١٨ / ١٢ / ١٩٩٧م

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟!

لم يكن انحطاط المسلمين أولا، وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد، وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيرا، حادثا من نوع ما وقع وتكرر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم، وانقراض الحكومات والدول، وانكسار الملوك والفاتحين، وانهزام الغزاة المنتصرين، وتقلص ظل المدنيات، والجزر السياسي بعد المد. فما أكثر ما وقع مثل هذا في تاريخ كل أمة، وما أكثر أمثاله في تاريخ الإنسان العام! ولكن هذا الحادث كان غريبا لا مثيل له في التاريخ. مع أن في التاريخ مثلا وأمثلة لكل حادث غريب.

لم يكن هذا الحادث يخص العرب وحدهم، ولا يخص الشعوب والأمم التي دانت بالإسلام، فضلا عن الأسر والبيوتات التي خسرت دولتها وبلادها، بل هي مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها؛ فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة، ولو عرف مقدار خسارته ورزيته، وانكشف عنه غطاء العصبية، لاتخذ هذا اليوم النحس- الذي وقعت فيه- يوم عزاء ورثاء، ونياحة وبكاء، ولتبادلت شعوب العالم وأممه التعازي، ولبست الدنيا ثوب الحداد؛ ولكن ذلك لم يتم في يوم، وإنما وقع تدريجيا في عقود من السنين، والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث، ولم يقدره قدره، وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه.

إن العالم لا يخسر شيئا بانقراض دولة ملكت حينا من الدهر، وفتحت مجموعا من البلاد والأقاليم، واستعبدت طوائف من البشر، ونعمت وترفهت على حساب الضعفاء والمحكومين، وإن الإنسانية لا تشقى بتحول الحكم والسلطان والرفاهية والنعيم من فرد إلى فرد آخر من جنسه، أو من جماعة إلى جماعة أخرى مثلها في الجور والاستبداد وحكم الإنسان للإنسان، وإن هذا الكون لا يتفجع ولا يتألم فقط بانحطاط أمة أدركها الهرم وسار فيها الوهن، وسقوط دولة تآكلت جذورها وتفككت أوصالها، بل بالعكس تقتضي ذلك سنة الكون، وإن دموع الإنسان لأعز من أن تفيض كل يوم على ملك راحل وسلطان زائل، وإنه لفي غنى وإنه لفي شغل عن أن يندب من لم يعمل يوما لإسعاده، ولم يكدح ساعة لصالحه، وإن السماء والأرض لتقسوان كثيرا على هذه الحوادث التي تقع ووقعت كل يوم، ووقعت ألوف المرات ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

بل إن كثيرا من هؤلاء السلاطين والأمم كانوا كلا على ظهر الأرض، وويلا للنوع الإنساني، وعذابا للأمم الصغيرة والضعيفة، ومنبع الفساد والمرض في جسم المجتمع البشري، يسرى منه السم في أعصابه وعروقه، ويتعدى المرض إلى الجسم السليم، فكان لابد من عملية جراحية، وكان قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده من الجسم السليم مظهرا كبيرا لربوبية رب العالمين ورحمته، يستوجب الحمد والامتنان من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية، بل من جميع أفراد الكون ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولكن لم يكن انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريحهم- وهم حملة رسالة الأنبياء، وهم للعالم البشري كالعافية للجسم الإنساني- انحطاط شعب أو عنصر أو قومية، فما أهون خطبه وما أخف وقعه، ولكنه انحطاط رسالة هي للمجتمع البشري كالروح، وانهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا.

فهل كان انحطاط المسلمين واعتزالهم في الواقع مما يأسف له الإنسان في شرق الأرض وغربها، وبعد قرون مضت على الحادث؟

وهل خسر العالم حقا- وهو غني بالأمم والشعوب- بانحطاط هذه الأمة شيئا؟ وفيم كانت خسارته ورزيته؟

وماذا آل إليه أمر الدنيا، وماذا صارت إليه الأمم بعد ما تولت قيادتها الأمم الأوربية حتى خلفت المسلمين في النفوذ العالمي، وأسست دولة واسعة على أنقاض الدولة الإسلامية؟ وماذا أثر هذا التحول العظيم في قيادة الأمم وزعامة العالم في الدين والأخلاق والسياسة والحياة العامة وفي مصير الإنسانية؟

وكيف يكون الحال لو نهض العالم الإسلامي من كبوته وصحا من غفوته، وتملك زمام الحياة؟

ذلك كله ما نحاول الإجابة عنه في الصفحات الآتية...

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الباب الأول

العصر الجاهلي

الفصل الأول

الإنسانية في الاحتضار

كان القرن السادس والسابع ـ لميلاد المسيح ـ من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف؛ فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسى خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلا عن البيوت فضلا عن البلاد. وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فرارا بدينهم من الفتن وضنا بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والهدوء، وفرارا من تكاليف الحياة وجدها، أو إخفاقا في كفاح الدين والسياسة والروح المادة، ومن بقى منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم علي إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل...

نظرة في الأديان والأمم:

أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام، وعسف الحكام، وشغلت بنفسها، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعا صافيا من الدين السماوي، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشري.

المسيحية في القرن السادس المسيحي:

لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة قضايا الإنسان، بحيث تقوم عليه حضارة، أو تسير في ضوئه دولة، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء بولس فطمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها، والوثنية التي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية، حتى أصبحت النصرانية مزيجا من الخرافات اليونانية، والوثنية الرومية، والأفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة في

اليم، وعادت نسيجا خشبيا من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح ، ولا تمد العقل، ولا تشعل العاطفة، ولا تحل معضلات الحياة، ولا تنير السبيل؛ بل أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجاهلين، تحول بين الإنسان والعلم والفكر، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية، يقول(Sale)- مترجم القرآن إلى الإنكليزية- عن نصارى القرن السادس الميلادي: «وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر»[١].

الحرب الأهلية الدينية في الدول الرومية:

ثم ثارت حول الديانة وفي صميمها مجادلات كلامية، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة، واستهلكت ذكاءها، وابتلعت قدرتها العملية، وتحولت في كثير من الأحيان حروبا دامية، وقتلا وتدميرا وتعذيبا، وإغارة وانتهابا واغتيالا، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة، وأقحمت البلاد في حرب أهلية، وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية، وبين نصارى مصر، أو بين (الملكانية) و(المنوفيسية) بلفظ أصح، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية، كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له. وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى، كل طائفة تقول للأخرى: إنها ليست على شيء. يقول الدكتور ألفرد.ج.بتلر:

«إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين، نضال يذكيه اختلاف في الجنس واختلاف في الدين، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس، إذ كانت علة العلل في ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية، كانت الطائفة الأولى- كما يدل عليها اسمها- حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة وهي ازدواج طبيعة المسيح على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط المنوفيسيين أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها، وتحاربها حربا عنيفة في حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها في قوم يعقلون، بله يؤمنون بالإنجيل»[٢].

---

(1) Sale's Traslation: P.62(1896).

(٢) فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، ص ٣٧-٣٨ .

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٢٨م جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة، أم صفتان، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد.

وفي صدر عام ٦٣١م حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوثيلي مذهبا رسميا للدولة، ومن تضمنهم من أتباع الكنيسة المسيحية، وصمم هرقل علي إظهار المذهب الجديد علي ما عداه من المذاهب المختلفة له متوسلا إلى ذلك بكل الوسائل، ولكن القبط نابذوه العداء وتبرؤوا من هذه البدعة والتحريف، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة.

وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة، أما المسألة الأخرى، وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل، فأرجأ القول فيه، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراتها، وجعل ذلك رسالة رسمية، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقي، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر، ووقع اضطهاد فظيع علي يد قيرس في مصر استمر عشر سنين، وقع خلالها ما تقشعر منه الجلود، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون إغراقا، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض، ويوضع السجين في كيس مملوء من الرمل ويرمي به في البحر، إلى غير ذلك من الفظائع.

الانحلال الاجتماعي والقلق الاقتصادي:

بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية الشرقية، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات، وتضاعفت الضرائب؛ حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات، ويمقتونها مقتا شديدا، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية؛ وكانت الإيجارات والمصادرات ضغثا على إبالة، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات، وقد هلك عام ٥٣٢م في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة[1]. وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه، ووصولا في التبذل إلى أحط الدرجات. وأصبح الهم الوحيد

(1) Encyclopeadia Britanica. See Justin.

اكتساب المال من أي وجه، ثم إنفاقه في التظرف والترف وإرضاء الشهوات.

ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية [١]. وكان العدل كما يقول (سيل): «يباع ويساوم مثل السلع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع» [٢]. يقول (جيبون): «وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة [٣]. وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولا» [٤]. ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين): «إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبدا، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل، الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران في البلدان» [٥].

مصر في عصر الدولة الرومية ديانة واقتصادا:

أما مصر ذات النيل السعيد، والخصب المزيد، فكانت في القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية، وبالدولة الرومية معا، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومنظارات في طبيعة المسيح، وفي فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية. وقد ظهرت في القرن السابع في شر مظاهرها، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية، وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهادا دينيا فظيعا واستبدادا سياسيا شنيعا تجرعت في سبيلهما من المرائر في عشر سنين ما ذاقته أوروبا في عهد التفتيش الديني في عقود من السنين، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة، وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح، فلا هي تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية، ولا هي تتمتع بالحرية

---

(1) Edward Gibbon: The History of D Decline and fall of the Rooman Empie, V.3.P.327.

(2) Sale's Translation p. 72(1896).

(3) The History of Decline and fall of the Roman Empire, V.V.P.31.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(5) Historian's History of the world V..VII p. 175.

الدينية والعقلية، رغم كونها نصرانية.

يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب):

«ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية. ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحا للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن. وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر- التي أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام- تحقد أشد الحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين»[١].

ويقول الدكتور ألفرد. ج. بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر):

«فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطرا عند الناس من أمور السياسة، فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب، واختلفت بعضها عن بعض فيها، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانات، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح، بل كان الدين في نظرهم هو الاعتقاد المجرد في أصول معينة.

فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات، وكانوا يخاطرون بحياتهم في سبيل أمور لا قيمة لها، وفي سبيل فروق في أصل الدين وفي فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها، ويشق إدراكها»[٢].

هذا، وقد اتخذها الروم شاة حلوبا يريدون أن يستنزفوا مواردها، ويمتصوا دمها؛ يقول ألفرد:

«إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد... مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل»[٣].

---

(١) حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر، الفصل الرابع (العرب في مصر)، ص ٣٣٦.

(٢) فتح العرب لمصر، ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق نفسه..

ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين):

«إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعا كبيرا من حاصلها ومنتجاتها، وكانت طبقات الفلاحة المصرية- مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ- مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومية ككراء الأرض فضلا عن الضرائب، وكانت ثروة مصر في هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط»(١).

وهكذا اجتمع لمصر من الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي ما شغلها بنفسها، وكدر عليها صفو حياتها، وألهاها عن كل مكرمة.

الحبشة:

أما جارتها الحبشة فكانت على المذهب (المنوفيسي) كذلك، وكانت مع ذلك تعبد أوثانا كثيرة استعارت بعضها من الهمجية، ولم يكن التوحيد إلا ضربا راقيا من الوثنية خلعت عليها لباسا من علم ومصطلحات نصرانية، ولم تكن في الدين بذات روح، ولا في الدنيا بذات طموح، وقد قضى مجمع (نيقية) أن ليس لها استقلال بأمورها الدينية، وإنما هي تابعة للكرسي الإسكندري.

الأمم الأوروبية الشمالية الغربية:

أما الأمم الأوربية المتوغلة في الشمال والغرب فكانت تتسكع في ظلام الجهل المطبق، والأمية الفاشية، والحروب الدامية، لم ينبثق فيها فجر الحضارزة والعلم بعد، ولم تظهر على مسرحها الأندلس العربية الإسلامية لتؤدي رسالتها في العلم والمدنية ، ولم تصهرها الحوادث، وكانت بمعزل عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية بعيدة عنها، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلا، ولم تكن- مما يجري في الشرق والغرب مما يغير وجه التاريخ- في عير ولا نفير، وكانت بين نصرانية وليدة، ووثنية شائبة، ولم تكن بذات رسالة في الدين، ولا بذات راية في السياسة.

يقول هـ.ج.ويلز:

«ولم تكن في أوربا الغربية في ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام» (٢).

---

(1) Historian's History of the World, V.VII.P.173.

(2) H.G.Wells: Historian's History of the World, P. 170.

ويقول (Robert Briffaualt):

«لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاما وسوادا. قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب»[١].

اليهـــود:

وكانت في أوروبا وآسيا وإفريقيا أمة هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين وأقربها فهما لمصطلحاته ومعانيه، أولئك هم اليهود، ولكن لم يكونوا عاملا من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر في غيرهم، بل قضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء، والعذاب والبلاء.

وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية، والإدلال بالنسب، والجشع وشهوة المال وتعاطي الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعارا على تعاقب الأعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله.

وقد وصفهم القرآن الكريم وصفا دقيقا عميقا يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقي، وانحطاط نفسي، وفساد اجتماعي، عزلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم.

بين اليهود والمسيحيين:

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم وشوه سمعتهم، ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده (أبنوسوس) ليقضي على ثورتهم، فذهب

---

(1) Robert Briffault: The Making of Humanity, P.164.

وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعا، قتلا بالسيف، وشنقا وإغراقا وتعذيبا، ورميا للوحوش الكاسرة.

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة. قال المقريزي في كتاب الخطط:

«وفي أيام فوقا ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر في طلبهم، وقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر، وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم. وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل، وقرية الناصرية وصور، وبلاد القدس، فنالوا من النصارى كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيستين بالقدس، وأحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيرا من أصحابه»[1].

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر:

«فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفا، وهدموا كنائس النصارى خارج صور، فقوى النصارى عليهم وكاثروهم، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم.

ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد ما خربه الفرس، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجليلة، وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك، فأمنهم وحلف لهم، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خرابا، فساءه ذلك وتوجع له، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى ولتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس، وقاموا قياما كبيرا في قتلهم عن آخرهم، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا له ذلك، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم فإنهم عملوا حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن

(١) كتاب الخطط المقريزية: ٤ / ٣٩٢ .

يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى. . . إلخ».

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان اليهود والنصارى، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني وتحين الفرص للنكاية في العدو، وعدم مراعاة الحدود في ذلك، وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدي رسالة الحق والعدل والسلام، وتسعد البشرية في ظلها وتحت حكمها.

إيران والحركات الهدامة فيها:

أما فارس التي شاطرت الروم في حكم العالم المتمدن، فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم. كان أساس الأخلاق متزعزعا مضطربا منذ عهد عريق في القدم، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش، حتى أن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته ثم قتلها[1]، وأن بهرام جوبين الذي تملك في القرن السادس كان متزوجا بأخته[2].

يقول البروفسور (أرتهر كرستن سين) أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه (إيران في عهد الساسانيين):

«إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني مثل (جاتهياس) وغيره يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتسب قبل أن يتنصر بالمحرمات[3]، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين بل كان عملا صالحا يتقربون به إلى الله، ولعل الرحالة الصيني (هوئن سوئنج) أشار إلى هذا الزواج بقوله: إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء»[4].

---

(1) Historian's History of the World, V.8 P.84.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ١٣٨ .

(٣) إيران في عهد الساسانيين: ترجمة الدكتور محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية، ص ٤٢٩ .

(٤) إيران في عهد الساسانيين، ص ٤٣٠ .

ظهر (ماني) في القرن الثالث المسيحي، وكان ظهوره رد فعل عنيف غير طبعي ضد النزعة الشهوية السائدة في البلاد، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية، فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه، فحرم النكاح استعجالا للفناء وانتصارا للنور على الظلمة بقطع النسل، وقتله بهرام سنة ٢٧٦م قائلا: إن هذا خرج داعيا إلى تخريب العالم، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده. ولكن تعاليمه لم تمت بموته بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة، وتقمصت دعوة مزدك الذي ولد ٤٨٧م، فأعلن أن الناس ولدوا سواء، لا فرق بينهم، فينبغي أن يعيشوا سواءً لا فرق بينهم، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك؛ قال الشهرستاني(١): «أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ». وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى، وسعدت كذلك بحماية البلاط، فأخذ (قباذ) يناصرها ونشط في نشرها وتأييدها، حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات.

قال الطبري: «افترص السفلة ذلك واغتنموا وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله، لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا (قباذ) على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئا مما يتسع به»(٢) إلى أن قال: «ولم يزل (قباذ) من خيار ملوكهم حتى حمله مزدك على ما حمله عليه فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور»(٣).

تقديس الأكاسرة:

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ٨٦ .

(٢) تاريخ الطبري: ٢ / ٨٨ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

ينظرون إليهم كـآلهة، ويعتقدون أن في طبـيعتهم شـيئا علويا مقدسـا، فكانوا يكفرون[١] لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القـانون وفوق الانتقاد وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لـسانهم، ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتـقدون أن لهم حقا على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم، وأن ما يرضخـون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة.

وخصصوا بيتا معينا- وهو البيت الكياني- فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبـسوا التاج ويـجبوا الخـراج، وهذا الحق ينتقـل فيهم كـابرا عن كابر وأبـا عن جد، لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا دعي نذل، فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك لا يبغـون به بدلا ولا يريدون عنه محيـصا، فإذا لم يجـدوا من هذه الأسرة كبـيرا ملكوا عليهم طفلا، وإذا لم يجدوا رجلا ملكوا عليهم امرأة، فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين، وملك فرخ زاد خسروا ابن كسرى أبرويز وهو طفل، وملكوا بوران بنت كسـرى، وملكت كذلك ابنة لكسـرى ثانية يقـال لها : أزرمي دخت[٢]، ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائدا كبيرا أو رئيسا من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكي.

التفاوت بين الطبقات:

وكذلك اعتقادهم فـي البيوتات الروحية والأشراف من قومهم، فيـرونهم فوق العامة في طينتهم، وفـوق مستوى الناس في عـقولهم ونفوسهم، ويعطونهم سلطـة لا حد لها، ويخضعون لهم خضوعا كاملا. يقول البروفسور أرتهركرستن سين مؤلف تاريخ (إيران في عهد الساسانيين) :

«كان المجتمع الإيراني مؤسسا على اعتـبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة[٣]، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقـارا لأمير أو كبير[٤]، وكان من قواعد السيـاسة السـاسانية أن يقنع

(١) كفر الرجل لفلان: وضع يده على صدره وطأطأ رأسه وتطامن تعظيما له.

(٢) راجع تاريخ الطبري ٢ / ٨٨ك وتاريخ إيران لمكاريوس.

(٣) إيران في عهد الساسانيين ، ص ٥٩٠ ..

(٤) المصدر السابق، ص ٤٢٠ .

كل واحد بمركـزه الذي منحه نسبـه، ولا يستشرف لما فـوقه[١]، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة[٢] غير الحرفـة التي خلقه الله لها[٣]، وكان ملوك إيران لا يولون وضيـعا وظيفة من وظائفهم[٤]، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع»[٥].

وكان في هذا التفاوت بين طبـقات الأمة امتهان للإنسانية يظهـر لك جليا في مجالس الأمراء والأشـراف؛ حيـث يقوم الناس على رؤوس الأمـراء كأنهم جـماد لا حـراك بهم ويجلسون مزجر الكلب؛ وقد أكـبر ذلك رسول المسلمين وأنكره. ويتبين مما روى ما وصل إليه الفرس من الاستكانة والخضوع لسادتهم جريا على عاداتهم، قال:

«عن أبي عـثمان النـهدي قال: لما جـاء المغيـرة إلى القنطرة فـعبرها إلـى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم فـي إجازته، ولم يغيروا شيئا من شارتهم تقويـة لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم عليهم التـيجان والثياب المنسوجة بالذهـب، وبسطهم على غلوة، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه.

فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعـبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محـاربا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قـومكم كما نتواسى، وكـان أحسن من الذي صنعـتم أن تخبروني أن بعـضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يسـتقيم فـيكم فلا نصنعه، ولـم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم عـلمت أن أمركم مضمحل، وإنكم مغلوبون، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول»[٦].

تمجيد القومية الفارسية:

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفـارسية ويرون أن لها فضلا على سائر الأجناس والأمم،

---

(١) المصدر السابق، ص ٤١٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢٢ .

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) إيران في عهد الساسانيين، ص ٤٢١ .

(٦) الطبري: ٤ / ١٠٨ .

وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحد، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية.

عبادة النار وتأثيرها في الحياة:

كانوا في الزمن القديم يعبدون الله ويسجدون له، ثم جعلوا يمجدون الشمس والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرهم من الأوائل، وجاء زرادشت صاحب الديانة الفارسية فيقال: إنه دعا إلي التوحيد وأبطل الأصنام، وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون. وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة، لأن النور رمز إلى الإله، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء. وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة؛ فحرموا عليهم الاشتعال بالأشياء التي تستلزم النار، فاقتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عينا ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار، وجهلت الحقيقة، ونسي التاريخ[1].

ولما كانت النار لا توحي إلى عبادها بشريعة ولا ترسل رسولا، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة والمجرمين، أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات خاصة. أما في خارج المعابد، وفي دورهم، ودوائر حكمهم وتصرفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا أحرارا يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم، أو ما توحي به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر ومصر.

وهكذا حرمت الأمة الفارسية في حياتها دينا عميقا جامعا يكون تربية للنفس، وتهذيبا للخلق، وقامعا للشهوات، وحافزا على التقوى وفعل الخيرات، ويكون نظاما للأسرة وتدبيرا للمنزل، وسياسة للدولة، ودستورا للأمة، ويحول بين الناس وطغيان الملوك وعسف الحكام، ويأخذ على يد الظالم، وينتصف للمظلوم، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين في الأخلاق والأعمال.

---

(١) انظر تاريخ إيران، تأليف شاهين مكاريوس، ص ٢٢١-٢٢٤.

الصين: دياناتها ونظمها:

وكانت تسود الصين في هذا القرن ثلاث ديانات: ديانة لاوتسو، وديانة كونفوشيوس، والبوذية، أما الأولى ففضلا عن أنها تحولت وثنية في عهد قريب فهي تعني بالنظريات أكثر منها بالعمليات، وكان أتباعها متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالا، فلم يكن لها أن تكون أسا لحياة سديدة أو حكومة رشيدة، حتى التجأ الذين جاؤوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره.

وأما (كونفوشيوس) فقد كان يعني بالعمليات أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية، وقد كان أتباعه لا يعتقدون- في بعض الأزمنة- بعبادة إله معين، فيعبدون ما يشاؤون من الأشجار والأنهار وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوي، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

البوذية: تطوراتها وانحطاطها:

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت. وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية[١]. يقول الأستاذ (إيشوراتوبا) أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: «لقد قامت في ظل البوذية دولة تعني بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيط الرابطات الأخوية البوذية، وظهرت فيها البدع»[٢].

ولاحظ ذلك أيضا أحد الكتاب العصريين، وكبار السياسيين في الهند فقال:

«جعلت البرهمية بوذا مظهرا للآلهة، وقلدتها في ذلك البوذية نفسها، وأصبحت الرابطة الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة، وأصبحت مركزا لمصالح جماعات خاصة، وفقدت النظام وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام، وبدأت الديانة تتقهقر وتنحط

(١) الزائر لمتحف تكسلا في غربي بنجاب (باكستان) يندهش من رؤية كثرة التماثيل البوذية التي استخرجت من حفائر المدن البوذية المطمورة، ويعرف أن هذه الديانة والمدنية أصبحتا وثنيتين تماما.

(٢) الهند القديمة (أردو) للأستاذ إيشو اتوبا.

بعدما سادت في الهند وازدهرت ألف سنة، وقد ذكرت (Mrs Rhys Davids) ما أصيبت به الديانة البوذية في هذا العهد من الوهن والاعتلال، فقالت كما نقل عنها سير (رادها كرشنن) في كتابه (الفلسفة الهندية):

لقد أظلت الأفكار العليلة تعليم بوذا الخلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة، لقد نشأ مذهب جديد في الديانة وازدهر، وملك على الناس القلوب، ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر، وهلم جرا ، حتى تراكمت هذه الأوهام الخلابة، وحجبت الجو وساد الظلام، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات» [١].

«لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط، ودخلت فيها العادات الساقطة، وأصبح من العسير التمييز بينهما، لقد اندمج البوذية في البرهمية وذابت فيها » [٢].

ولم يزل وجود الإله والإيمان به في البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخي هذه الديانة ومترجمي مؤسسها، حتى يحار بعضهم ويتساءل: كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيق من الآداب التي ليس فيها الإيمان بالله[٣]. فلم تكن البوذية إلا طرقا لرياضة النفس وقمع الشهوات، والتحلي بالفضائل، والنجاة من الألم، والحصول على العلم.

إذن فلم تكن عند الصينيين رسالة دينية للعالم يحلون بها مشاكله، وكانوا في أقصى شرق العالم المتمدن محتفظين بتراثهم الديني والعلمي، لا يزيدون في ثروتهم ولا في ثروة غيرهم.

أمم أسيا الوسطى:

أما الأمم الأخرى في أسيا الوسطى وفي الشرق، كالمغول والترك واليابانيين، فقد كانت بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروة علمية، ولا نظاما سياسيا راقيا، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة، ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية.

---

(1) Jawahar Lal Nehru: The Discovery of Inaia, P. 201,202.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) اقرأ مقالة (بوذا) في دائرة المعارف البريطانية.

الهنـد : ديانة، واجتماعا، وأخلاقا :

أما الهنـد فقد اتفـقت كلمة المؤلفين في تاريخـها على أن أحط أدوارها ديانـة وخلقا واجتماعا ذلك العـهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس المـيلادي، فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحـقبـة من الزمن، وأخذت نصـيبـا غيـر منقـوص من هذا الظلام الذي مد رواقـه على المعمورة، وامتازت عنها في ظواهر وخلال يمكن أن نلخصها في ثلاث:(١) كثرة المعبودات والآلهة كـثرة فاحشـة. (٢) الشهوات الجنسـية الجامحـة. (٣) التفاوت الطبـقي المجحف والامتياز الاجتماعي الجائر.

الوثنية المتطرفة:

قد بلغـت الوثنية أوجهـا في القرن السـادس، فقـد كان عدد الآلهـة في (ويد) ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القـرن ٣٣٠ مليون. وقد أصبح كل شيء رائع وكل شيء جذاب، وكل مرفق من مرافق الحياة إلها يعـبد. وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصـر،وأربت على العد، فمنها أشـخاص تاريخية، وأبطال تمثل فـيهم الله- زعموا- في عهود وحـوادث معروفة، ومنها جبال تجلي عليها بعض آلهـتهم، ومنها معادن كالذهب والفـضة تجلى فيهـا إله، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس (مـهاديو) الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبـحت الديانة نسيجا من خرافـات وأساطير وأناشيد وعقـائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

وقد ارتقت صناعة نحت التـماثيل في هذا العهد، وبلغت أوجهـا في القرن السادس والسابع، حـتى فاق هذا العـصر في ذلك العصـور الماضية. وقـد عكفت الطبقـات كلها وعكف أهل البـلاد من الملك إلى الصـعلوك على عبـادة الأصنام، حـتى لم تجد البـوذية والجينية منها بدا، وتذرعت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحـتفاظ بحياتها وانتشارهما في البلاد.

ويدل على ما وصلت إليه الوثنيـة والتماثيل في هذا العصر مـا حكاه الرحالة الصيني الشهير (هوئن سوئنج) الذي قام برحلتـه بين عام ٦٣٠م وعام ٦٤٤م عن الاحتفال العظيم الذي أقامه الملك هرش الذي حكم الهند من عام ٦٠٦م إلى ٦٤٧م: « أقـام الملك احتفالا

عظيما في قنوج اشترك فيه عدد كبير جدا من علماء الديانات السائدة في الهند.

وقد نصب الملك تمثالا ذهبيا لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعا، وقد خرج بتمثال آخر لبوذا أصغر من التمثال الأول في موكب حافل قام بجنبه الملك (هرش) بمظلة، وقام الملك الحليف (كامروب) يذب عنه الذباب» [١].

ويقول هذا الرحالة عن أسرة الملك ورجال بلاطه: «إن بعضهم كان من عباد (شو)، وبعضهم من أتباع الديانة البوذية، وكان بعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد (وشنو)، وكان لكل واحد أن يخص من الآلهة أحدا بعبادته أو يعبدهم جميعا» [٢].

الشهوة الجنسية الجامحة:

وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت في صميم الديانة في البلاد الهندية، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان- روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارات بعضها على البيوتات الشريفة تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء، وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر (مهاديو)، وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات، زد إليه كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة [٣].

وكان كهنة المعابد الخونة والفساق يرزؤون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته. وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظن القارئ ببلاط الملوك وقصور الأغنياء؟ فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء

---

(١) رحلة هوئن سوئنج (فوكوي كي) الدولة الغربية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) ستيارته بركاش لديانند سرسوتي الهندكي، ص ٣٤٤ .

والشرف وطرحوا الحشمة، فتوارى الأدب وتبرقع الحياء... هكذا أخذت البلاد موجة من الشهوات الجنسية والخلاعة، وأسفت أخلاق الجنسين إسفافا كبيرا.

نظام الطبقات الجائر:

أما نظام الطبقات فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة وأعظم فصلا بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينيا ومدنيا، وخضعت له آلافا من السنين ولا تزال، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها. وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفقت عليه البلاد وأصبح قانونا رسميا ومرجعا دينيا في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ(منوشاستر).

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهي:

(١) البراهمة: طبقة الكهنة ورجال الدين.

(٢) شتريك رجال الحرب.

(٣) ويش: رجال الزراعة والتجارة.

(٤) شودر: رجال الخدمة.

ويقول (منو) مؤلف هذا القانون:

«إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشتري من سواعده، وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم، فعلى البراهمة تعليم (ويد)، أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات، وعلى الشتري حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة (ويد) والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة (ويد) والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث»[١].

---

(١) منوشاستر: الباب الأول.

امتيازات طبقة البراهمة:

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقتهم بالآلهة، فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق، وإن ما في العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض[١]، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم (شودر)- من غير جريرة- ما شاؤوا، لأن العبد لا يملك شيئا وكل ماله لسيده[٢].

وإن البرهمي الذي يحفظ رك ويد (الكتاب المقدس)هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله[٣]، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعا[٤] وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل[٥].

أما الشتري فإن كانوا فوق الطبقتين: (ويش وشودر) ولكنهم دون البراهمة بكثير، فيقول (منو): إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشتري الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده[٦].

المنبوذون الأشقياء:

أما شودر (المنبوذون) فكانوا في المجتمع الهندي- بنص هذا القانون المدني الديني- أحط من البهائم وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن (من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة، وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك[٧]. وليس لهم أن يقتنوا مالا أو يدخروا كنزا فإن ذلك يؤذي البراهمة[٨]، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يدا أو عصا ليبطش بها قطعت يده وإذا رفسه في غضب فدعت رجله وإذا هم أحد المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد[٩]، وأما إذا مسه بيد أو سبه

(١) منوشاستر: الباب الأول.
(٢) الباب الثامن.
(٣) الباب التاسع.
(٤) الباب التاسع.
(٥) الباب الثاني.
(٦) الباب الحادي عشر.
(٧) منوشاستر: الباب الحادي عشر.
(٨) الباب العاشر.
(٩) المصدر السابق نفسه.

فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فائرا[١] وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء»[٢].

مركز المرأة في المجتمع الهندي:

وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء[٣]، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج[٤] فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء، وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفاديا من عذاب الحياة وشقاء الدنيا[٥].

وهكذا صارت هذه البلاد المخصبة أرضا وعقولا، وهذه الأمة- التي وصفها بعض مؤرخي العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة[٦] - لبعد عهدها عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإمعان الناس في القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات.. أصبحت هذه البلاد مسرحا للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والقسوة الهمجية والجور الاجتماعي الذي ليس له مثيل في الأمم ولا نظير في التاريخ.

العرب: خصائصهم ومواهبهم:

أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلي، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية، والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة، والصراحة في القول وجوده الحفظ وقوة

---

(١) منوشاستر.

(2)R.C.Dutt 342-343.

(٣) اقرأ الاستهلال قصة مها بهارات (الملحمة الهندية الكبرى).

(4)R.C.Dutt 331.

(٥) وكان ذلك تقليدا محترما فاشيا في الطبقات الشريفة، والمجتمعات الأرستقراطية، يعرف بـ(ستي) وكان دليلا على وفاء الزوجة للزوج وشرفها. وقد قل عدد (المتحرات) بتأثير الحكومات الإسلامية. وتدخل الحكام المسلمين كما صرح بذلك الرحالة الفرنسي الدكتور (بريتر). حتى ألغاه الإنكليز في العهد الأخير إلغاء تاما.

(٦) صاعد الأندلسي م٤٦٢، طبقات الأمم ص١١.

الذاكرة، وحب المساواة ، وقوة الإرادة، والوفاء والأمانة.

ولكن ابتلوا في العصر الأخير- لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم في شبه جزيرتهم، وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم- بانحطاط ديني شديد ووثنية سخيفة فلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق، فاسدة المجتمع، متضعضعة الكيان، حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية، وبعيدة عن محاسن الأديان.

وثنية الجاهلية :

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة، كانوا يعتقدون في الله أنه إله أعظم، خالق الأكوان ومدبر السموات والأرض، بيده ملكوت كل شيء، فلئن سئلوا: من خلق السموات والأرض؟ ليقولن خلقهن العزيز العليم، ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[الزخرف: ٨٧].

ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تسع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفائه وسموه، وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تسيغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى ويحظى عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة، قياسا على هذا العالم القاصر وعاداته وأوضاع الملوكية الفاسدة ومجارى الأمور فيها، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء، وقاموا نحوهم ببعض العبادات، ورسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر، ثم ترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر، والخير والشر، والإعطاء والمنع، فإذا كان الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى، ويكتفون بالشفعاء والأولياء- كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله، ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر، والنفع والضرر، والإيجاد والإفناء، مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب (١).

أصنام العرب في الجاهلية :

ولم يزل هذا الفريق الثاني يقوى أمره ويستفحل مع إمعان القوم في الجاهلية وقرب

---

(١)راجع كتاب (بيئة النبي ﷺ من القرآن)، للأستاذ محمد عزت دروزة.

هذه النزعة الوثنية إلى الحواس والمحسوسات، واتفاقه مع ضعف التفكير حتى أصبحت هذه العقيدة السائدة، وأصبح الذين يميزون بين الآلهة والوسطاء شواذ في الأمة، ومن رجال الطبقة المثقفة، وهكذا انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.

قال الكلبي: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا[١]، واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتا، ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم، وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب[٢]. وكان في جوف الكعبة- البيت الذي بني لعبادة الله وحده- وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنما[٣]، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة.

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به[٤].

وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاثة أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه[٥].

الآلهة عند العرب:

وكان للعرب- شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان- آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله، ويعبدونهم، ويتوسلون بهم عند الله، واتخذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم

---

(١) كتاب الأصنام، ص ٣٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري، كتاب المغازي: باب فتح مكة.

(٤) الجامع الصحيح، كتاب المغازي: باب وفد بني حنيفة.

(٥) كتاب الأصنام.

وتأثيرهم وعبدوهم[١].

قال الكلبي: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن[٢].

وقال صاعد: كانت حمير تعبد الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدبران، ولخم وجذام المشترى، وطي سهيلا، وقيس الشعري العبور، وأسد عطاردا[٣].

اليهودية والنصرانية في بلاد العرب:

وانتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب، ولم تستفد منهما العرب كثيرا من المعاني الدينية، وكانتا نسختين، من اليهودية في الشام، والنصرانية في بلاد الروم والشام قد طرأ عليهما من التحريف والزيغ والوهن ما شرحناه من قبل.

الرسالة والإيمان بالبعث:

أما الرسالة فقد تصور العرب للنبي صورة خيالية، وتمثلوه في ذات قدسية، لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يلد ولا يمشي في الأسواق، وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هناك بعثا بعد الموت، وحياة بعد هذه الحياة، فيها الحساب، والثواب والعقاب، قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

قال صاعد: كان جمهورهم ينكر ذلك[٤]، لا يصدقون بالمعاد ولا يقولون بالجزاء، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد، وإن كان مخلوقا مبتدعا، وكان فيهم من يقر بالمعاد، ويعتقد أن من نحرت ناقة على قبره يحشر راكبا، ومن لم يفعل ذلك يحشر ماشيا[٥].

الأدواء الخلقية والاجتماعية:

أما من جهة الأخلاق، فكان فيهم أدواء وأمراض متأصلة، وأسبابها فاشية، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم، تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤ .

(٣) طبقات الأمم، لصاعد، ص ٤٣ .

(٤) أي البعث بعد الموت.

(٥) طبقات الأمم، لصاعد، ص ٤٤ .

شربهـا الشعراء، وشغلت جـانبا كبـيرا من شعرهم وتاريـخهم وأدبهم، وكثرت أسـماؤها وصفاتـها في لغتهم، وكـثر فيهـا التدقيق والتفـصيل كثرة تدعـو إلى العجب (١). وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما، يرفرف عليها علم يسمى (غاية).

قال لبيد (٢):

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها.

وكان من شيوع تجـارة الخمر أن أصبحت كلمة التـجارة مرادفا لبيع الخمـر، كما قال لبيد: وغاية تاجر، وقال عمرو بن قميئة (٣):

إذا سحب الريط والمروط إلى أدنى تجارى وأنقض اللمما

وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية. قال الجاهلي (٤):

أعيرتنا ألبانـها ولحومـــها وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

نحابي بها أكفاءنـا ونهينهـا ونشرب في أثمانها ونقامـــر

وكان عدم المشاركة في مجالس القمار عارا، يقول الشاعر (٥):

وإذا هلكت فلا تريدي عاجزا غسا ولا برما ولا معزالا

قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزينا سليبا ينظر إلى ماله في يد غيره، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضا (٦).

وكان أهل الحـجاز، العـرب واليهود، يتـعاطون الربا، وكـان فاشيـا فيـهم، وكانوا يجحـفون فيه ويبلغـون إلى حد الغلو والقسـوة، قال الطبري: كان الربا في الجـاهلية في التضعيف وفي السنين، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له: تقضيني أو تزيدني؟ فإن كان عنده شيء يقضيـه قضى وإلا حوله إلى السن التي فوق ذلك، إن كانت

(١) اقرأ كتاب المخصص، لابن سيده: ١١ / ٨٢- ١٠١ .

(٢) السبع المعلقات، معلقة لبيد.

(٣) ديوان الحماسة.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) تفسير الطبري: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ [المائدة: ٩١].

ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية، ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيا هكذا إلى فوق؛ وفي العين يأتيه، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل، وإن لم يكن عنده أضعفه فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة، يضعفها له كل سنة أو يقضيه[١].

وقد رسخ الربا فيهم وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التي صاروا لا يفرقون بينه وبين التجارة الطبيعية وقالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال الطبري: إن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق: «زدني في الأجل وأزيدك في مالك»، فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: هذا ربا لا يحل، فإذا قيل لهم ذلك قالا: سواء علينا زدنا في أول البيع أو عند محل المال[٢].

ولم يكن الزنى نادرا وكان غير مستنكر استنكارا شديدا، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات، وتتخذ النساء أخلاء بدون عقد، وقد كانوا يكرهون بعض النساء على الزنى، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى يأخذون أجوره[٣].

قالت عائشة: «إن النكاح في الجاهلية كان أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها. ونكاح الآخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتي يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل. ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل

(١) المصدر السابق: ٤ / ٥٩

(٢) تفسير الطبري: ٤ / ٦٩ .

(٣) المصدر السابق: ١٨ / ١٠٤ .

عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك »[١].

· المرأة في المجتمع الجاهلي:

وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، وتؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجا ترضاه[٢]، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة[٣]. عن ابن عباس قال: «كان الرجل إذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها أو تموت فيذهب بمالها»؛ وقال عطاء بن أبي رباح: إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم، وقال السدي: إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته، فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها[٤]. وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتى من مهرها وتمسك ضرارا للاعتداء[٥]، وتلاقي من بعلها نشوزا أو إعراضا، وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة[٦]، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث[٧]،وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد[٨].

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد. ذكر الهيثم بن عدي- على ما حكاه عنه الميداني- أن الوأد كان مستعملا في قبائل العرب قاطبة، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد، فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن، ومنهم من كان يئد البنات من

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، كتاب النكاح باب من قال: لا نكاح إلا بولي.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٣٢ .

(٣) سورة النساء: آية ١٩ .

(٤) تفسير الطبري: ٤ / ٣٠٨ .

(٥) سورة البقرة: آية ٢٣١ .

(٦) سورة النساء: آية ١٢٩ .

(٧) سورة الأنعام: آية ١٤٠ .

(٨) سورة النساء: آية ٣ .

كانت زرقاء أو شيمـاء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجـاء) تشاؤما منهم بهذه الصفات، ومنهم من كان يقتل أولاده خشيـة الإنفاق وخوف الفقر، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب، فكان يشتـريهم بعض سراة العرب وأشرافهم[١]. قال صعصـعة بن ناجية: جاء الإسـلام وقد فديت ثلاثمـائة موءودة[٢]، ومنهم من كان ينذر- إذا بلغ بنوه عـشرة- نحر واحدا مـنهم، كما فعل عـبد المطلب، ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله- سبحانه عما يقولون- فألحقوا البنات به تعالى، فهو تعالى أحق بهن[٣].

وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفـر الوالد وشغله، فلا يئـدها إلا وقد كبـرت وصارت تعقـل، وقد حكوا في ذلك عن أنفسـهن مبكيات، وقد كان بعضهم يلقى الأنثى من شاهق[٤].

العصبية القبلية والدموية في العرب:

وكانت العصبـية القبلية والدموية شديدة جـامحة، وكان أساسها جـاهليا تمثله الجملة المأثورة عن العـرب: «انصـر أخـاك ظـالما أو مظلومـا»[٥]، فكانوا يتـناصـرون ظالمين أو مظلومين.

وكانت في المجتـمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسـها فضلا على غيرهـا وامتيازا، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عـادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج، فلا تقف بعرفات وتتقـدم على الناس في الإفاضة والإجازة [٦]، وتنسأ الأشهر الحـرم، وكان النفوذ والمناصب العليـا والنسيء متـوارثا، يتـوارثه الأبناء عن الآباء، وكانت طبـقات مـسخـرة وطبقات سوقة وعوام، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربي.

وكان الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية، وألهمتهم إياه معيشتهم البدوية،

---

(١) اقرأ بلوغ الأرب في أحوال العرب ، للآلوسي.
(٢) كتاب الأغاني.
(٣) بلوغ الأرب.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) ذكر الحافظ ابن حجر فـي كتابه المشهور (فتح الباري) نقلا عن المفـضل الضبي أن أول من قالها جندب بن عنبر في الجاهلية.
(٦) سورة البقرة: آية ١٩٩ .

حتى صارت الحرب مسلاة لهم وملهى فقال قائلهم[١]:

وأحيانا على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

هانت عليهم الحروب وإراقة الدماء، حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر، فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلا أن كليبا- رئيس معد- رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها، وقتل جساس بن مرة كليبا، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب، وكان كما قال المهلهل أخو كليب: «قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد؛ دموع لا ترفأ وأجساد لا تدفن»[٢].

كذلك حرب داحس والغبراء فما كان سببها إلا أن داحسا فرس قيس بن زهير كان سابقا في رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر، فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله، ففاتته الخيل، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائها، وأسر ونزح للقبائل، وقتل في ذلك ألوف من الناس[٣].

وكانت الحياة كلها شبكة محبوكة من ترات وثارات فشت حبائلها في القبائل وأوصى بها الآباء الأبناء، وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة، والطمع والجشع، والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب، حتى كانت أرض الجزيرة كفة حابل لا يدري الإنسان متى يغتال وأين ينهب. وكان الناس يتخطفون من بين عشيرتهم في القوافل، حتى احتاجت الدول القوية إلى الخفارة الساهرة، والبذرقة القوية[٤]، فكانت عير كسرى تبذرق من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة والنعمان يبذرقها بخفراء من بني ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن علي الحنفي باليمامة، فيبذرقها حتى تخرج من أرض بني حنيفة، ثم تدفع إلي تميم وتجعل لهم جعالة، فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن، وتسلم إلى عمال كسرى باليمن[٥].

---

(١) ديوان الحماسة.

(٢) انظر: أيام العرب.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) البذرقة: الخفارة والحراسة.

(٥) تاريخ الطبري: ٢ / ١٣٣ .

ظهر الفساد في البر والبحر:

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء.

لمعات في الظلام:

وكان النور الضعيف الذي يتراءى في هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبه بالحباحب[1]، الذي يضيء في ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام، ولا ينير السبيل، وكان الذي يخرج في ارتياد العلم الصحيح، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه في البلاد، ترفعه أرض وتخفضه أخرى، حتى يأوي إلى رجال شواذ في الأمم والبلاد، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة، هشمها الطوفان، يدل على ندرتهم خبر سلمان الفارسي أكبر الرواد الدينيين في القرن السادس الذي شرق وغرب في الفحص عنهم، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل، ومن الموصل إلى نصيبين، ومن نصيبين إلى عمورية، ويوصي به بعضهم إلى بعض، حتى أتى على آخرهم لم يجد لهم خامسا، وأدركه الإسلام في هذا الظلام، قال سلمان:

«لما قدمت الشام، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل، فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت: أنا أدلكم على كنزه؛ قالو: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا.

قال: فلما رأوها، قالوا: والله لا ندفنه أبدا، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة، ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، قال: فأحببته حبا لم أحبه من قبل وأقمت معه زمانا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني كنت

---

(١) ذباب ذات الوان يطير في الليل في ذنبه شعاع كالسراج، ويسمى اليراعة أيضا.

معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه؛ لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. قال: فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه؛ فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانا أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى؛ فإلى من توصي بي وما تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين، وهو فلان فالحق به، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي؛ قال: فأقم عندي، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه؛ فأقمت مع خير رجل؛ فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك؛ فإلى من توصي بي وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه؛ فإن أحببت فأته؛ قال: فإنه على أمرنا.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي؛ فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت، كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان؛ وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، له علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل...» .إلخ[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس عن سلمان؛ ورواه الحاكم في مستدركه، والرواية لاتصال سندها وعدالة رواتها من أصح الوثائق التاريخية عن الجاهلية وحالتها الدينية.

الفصل الثاني

النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي

الملكية المطلقة:

كان العصر الجاهلي مسرحا للحكم الجائر المستبد، فقد كانت السياسة في هذا العصر ملكية مطلقة، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة، كما كان في فارس، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله، وقد عملوا كل ما في استطاعتهم للتأثير في رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكي المقدس، صارت لهم عقيدة يدينون بها، وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقا، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور: ابن السماء، ويعتقدون أن السماء ذكر، والأرض أنثى، وقد ولدا الكائنات، وكان الإمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين[1] ، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة، له أن يفعل ما يشاء، وكانوا يقولون له: «أنت أبو الأمة وأمها».

ولما مات الإمبراطور (لي يان) أو (تاي تسونغ) لبست الصين ثوب الحداد، وحزنت الأمة حزنا شديدا، فمنها من أثخن وجهه بالإبر، ومن قطع شعره، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش.

وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان في المملكة الرومية، فكان المبدأ الأساسي هو تقديس الوطن الرومي، والشعب الرومي. ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروقا يجري منها الدم إلى مركزها، فكانت الدولة تستهين في ذلك بكل حق ومبدأ، وتدوس كل شرف وكرامة، وتستحل كل ظلم وشنيعة، ولا يمنع بلادا من هذا الحيف والظلم اشتراك في دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للمملكة، ولا يعترف لها في زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها في أرضها، إنما هي ناقة ركوب في بعض الأحيان، حلوب في بعضها، لا يقدم لها من العلف إلا ما يقيم صلبها أو يدر ضرعها.

يقول (Robert Briffault) عن الدولة الرومية:

---

(١) تاريخ الصين، لجيمس كاركرن.

«لم يكن سبب انقراض الدولة الرومية وسقوطها الأساسي الفساد الزائد (كالرشوة وغيرها) بل كان الفساد والشر وعدم المطابقة بالواقع، مما صحب نشوء هذه الدولة من أول يومها وتغلغل في أحشائها. إن كل مؤسسة بشرية تقوم على أساس زائف منها، ولا تستطيع أن تنقذ نفسها بذكاء أو نشاط، ولما كان الفساد مما قامت عليه هذه الدولة فكان لابد أن تبيد يوما وتنهار وقد رأينا أن الدولة الرومية إنما كانت وسيلة لرفاهية طبقة صغيرة على حساب الجماهير الذين كانت هذه الطبقة تستغلهم وتمتص دماءهم. لقد كانت التجارة تسير في رومة بأمانة وعدل وقد كان ذلك مما طبعت عليه هذه الدولة، وقد كانت فائقة في قوة الحكم والقضاء، وفي الكفاءة، ولكن هذه المحاسن كلها لم تكن لتحفظ الدولة من عواقب الزيف الأساسي والخطأ» [١].

الحكم الروماني في مصر والشام:

يقول الدكتور ألفرد. ج. بتلر عن الحكم الروماني في مصر:

«إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم» [٢].

ويقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشام:

«كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخلها من المشاغب والمتاعب، ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضا رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيرا ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام» [٣].

---

(1) Robert Briffault; The Making of Humanity, P.159.

(٢) فتح العرب لمصر، للدكتور ألفريد.ج.بتلر، تعريب محمد فريد أبو حديد.

(٣) خطط الشام، للأستاذ محمد كرد علي: ١ / ١٠١ .

«حكم الرومان الشام سبعمائة سنة، بدأ معهم في البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والأنانية وقتل الأنفس، وحكم اليونان الشام ٣٦٩سنة سادت في عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم، وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها، وكان حكمهم من أشد الولايات وأشأم النكبات على الأمة الشامية»(١).

وبالاختصار كانت الولايات الرومية والفارسية غير مرتاحة في حكم الأجانب، وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية مضطربة حتى في مراكز الدولة وعواصمها.

نظام الجباية والخراج في إيران:

لم يكن النظام المالي والسياسة المالية في إيران عادلة مستقرة، بل كانت جائرة مضطربة في كثير من الأحوال، تابعة لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية.

يقول مؤلف (إيران في عهد الساسانيين):

«كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال، ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدرين مضبوطين، وقد كانت الحرب تنشب في بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب، فكان يلجئها ذلك إلى ضرائب جديدة، وكانت المقاطعات الغربية الغنية- وخاصة بابل- هدف هذه الضرائب دائما»(٢).

كنوز الملوك ومدخراتهم:

ولم يكن ما ينفق على أهل البلاد في إيران من مالية شيئا كثيرا. وقد اعتاد ملوك إيران من القديم أن يكتنزوا النقود ويدخروا الطرف والأشياء الغالية(٣)، ولما نقل خسروا الثاني في المدائن أمواله إلى بناية أحدثها سنة ٦٠٧-٦٠٨م، وكان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب، وذلك ما يساوي ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبي،

---

(١) المصدر السابق: ١ / ١٠٣ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين، ص ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٢ .

وفي العـام الثالث عـشر من جلوسـه على العرش كـان في خزانتـه ٨٠٠ مليـون مثـقال ذهب[١].

الفصل الشاسع بين طبقات المجتمع:

كـان الغنى لأفراد معدودين والفـقر لمعـظم الأهلين، يقول مـؤلف (إيران في عهـد الساسـانيين) عن أخصب عهـد من عهود إيران وعن أعـدل ملك من ملوكها وهو كـسرى أنوشروان:

«إن ما قام به كسـرى من إصلاح النظام المالي كان في مصلحة ماليـة المملكة أكبر منه في مصلحة الرعية؛ فلم تزل العامة يعيشون في الجهل والضنك كما كانوا في السابق، وما شاهد الفلاسفـة البيزنطيون من فوارق نسبـية بين طبقات المجتمع والفـصل الشاسع بينها، والبؤس الذي كـان يعيش فـيه رجـال الطبقـات المنحطة أقلق خاطرهم وانتـقدوا المجـتمع الفارسي بقولهم: إن الأقوياء فيه يقهرون الضعفاء، ويعاملونهم بظلم وبقسوة شديدة»[٢].

وكانت المناصب وقـفا على بعض البيـوتات والسلائل ذات الثروة والجـاه والنفوذ عند الحكام.

ويقول (Robert Briffault) عن النظام الطبقي في الدولة الرومية:

«مما جرت العادة أنه إذا أصيبت مؤسسة اجتماعية بالزوال والانحطاط لا يرى القائمون عليـها حـيلة إلا أن يمنعوها من الحـركة والتطور، لذلك كـان المجتـمع الرومي (في عـهد الانحطاط) خاضعا لنظام طبـقي جائر يرزح تحته، وما كان لأحد في هذا المجـتمع أن يغير حرفته، وكان لابد للابن أن يتخذ حرفة أبيه» [٣].

الفلاحون في إيران:

أثقلت الضـرائب المتنوعـة المتجـددة كاهـل الجمـهور حـتى ترك كـثيـر من المزارعين أعمالهم،أو دخلوا الأديرة فرارا من الضرائب والخدمة العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له؛ وفشت في الناس البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب.

---

(١) المصدر السابق، ص ٦١١ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين، ص ٥٨٩- ٥٩٠ .

(3) The Making of Humanity, p. 160.

يقول مؤلف (إيران في عهد الساسانيين :

«كان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم وكانوا مرتبطين بأراضيهم، وكانوا يستخدمون مجانا ويكلفون كل عمل، يقول المؤرخ (إميان مارسيلينوس): إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة، كأنه قد كتب عليه الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعا من راتب أو أجرة[(١)] ، وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسادة »[(٢)] .

الاضطهاد والاستبداد :

واضطهد اليهود في الشام والعراق، واليعقوبيون في مصر اضطهادا كبيرا، واستبد الحكام استبدادا شديدا وعاثوا في البلاد والأموال والأعراض. وصام أهل الحل والعقد عن شكواهم، حتى صار الناس يعدون هذه الأوضاع الفاسدة ضربة لازب وقضاء محتوما، وصاروا في بعض الأيام يفضلون الموت على الحياة.

المدنية المصطنعة والحياة المترفة :

استحوذت على الناس في الدولتين ـ الفارسية والرومية ـ حياة الترف والبذخ، وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة وغرقوا فيه إلى أذقانهم. فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غفلتهم لا هم لهم إلا اللذة والتهام الحياة، وبذخوا بذخا عظيما تخطى القياس، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقا عظيما جدا، فكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة، وخمسون ألف جواد، وشيء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة، وقصره مثال في الإبهة والغنى[(٣)] .

يقول مكاريوس:

«لم يرو في التاريخ أن مليكا بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجرايات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى[(٤)] ، ولما خرجوا

---

(١) إيران في عهد الساسانيين، ص ٣٢٤ .

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢٤ .

(٣) تاريخ إيران لشاهين مكاريوس، طبع ١٨٩٨م ص ٩٠ .

(٤) تاريخ إيران، ص ٢١١ .

من العراق في الفتح الإسلامي تركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يدري ما قيمته» .

«وقد وجد العرب قبابا تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص، قال العرب: فما حسبناها إلا طعاما فإذا هي آنية الذهب والفضة»[١].

ووصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذي أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا:

«هو ستون ذراعا في ستين ذراعا، بساط واحد مقدار جريب، أرضه بذهب ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب، فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير، وفي حافاته كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك، وكانوا يعدونه للشتاء، إذا ذهبت الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم في رياض»[٢]، وهذا يدل على ما وصل إليه البذخ والترفه في المدنية الفارسية .

كذلك كان الشام في الدولة الرومية وحواضرها، وكانت الدولتان المدنيتان- الفارسية والرومية- كفرسي رهان في البذخ والترفه في دقائق المدنية، وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم في الشام بذخا عظيما، وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترفه وأسباب الرفاهية شيئا كثيرا، وبلغت من الترف والأناقة شأوا بعيدا، وقد وصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جبلة بن الأيهم الغساني فقال: «لقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن إليه إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة، وأوقد له العود المندي إن كان شاتيا، وإن صائفا بطن بالثلج، وأتى هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه»[٣].

وكان الأمراء والأقيال والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة وأفراد الطبقة الوسطى على آثار الملوك، يحاولون أن يقلدوهم في لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم، وكانوا

(١) تاريخ الطبري.

(٢) تاريخ الطبري: ٤ / ١٧٨ .

(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ١ / ٢ .

يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعا عظيما وتعقدت المدنية تعقيدا عظيما، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة، وكان لابد منه لكل شريف أو وجه، حتى إذا أخل به وأغفله أشير إليه بالبنان وتفادته العيون، حتى صار ذلك واجبا من واجبات الحياة وشريعة من شرائع المجتمع التي لا يحل العدول عنها.

عن الشعبي قال: كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف، وكان هرمز ممن تم شرفه، فكانت قيمتها مائة ألف وكانت مفصصة بالجواهر(١)، وتمام شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة وأن الأزادية كان مرزبان الحيرة أزمان كسرى، وكان قد بلغ نصف الشرف، وكانت قيمة قلنسوته خمسين ألف(٢)، وبيع ما على رستم بسبعين ألفا، وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف(٣).

درج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ورضعوا لبانها ونشؤوا عليها حتى أصبحت لهم الطبيعة الثانية، وعز عليهم الفصال وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى في ساعة عصبية وفي فاقة واضطرار، ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فر من المدائن أخذ معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم للنمور وألف قيم للبزاة وآخرين، وكان يستقل هذا العدد(٤)، واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر فأتي به في قدح غليظ، فقال: «لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا. فأتي به في إناء يرضاه»(٥).

الزيادة الباهظة في الضرائب:

كانت نتيجة هذا البذخ والترف الطبيعية الزيادة الباهظة في الضرائب وسن القوانين الجديدة لابتزاز الأموال من طبقات الفلاحين والصناع والتجار وأهل الحرف حتى وصلت إلى حد الإرهاق، وأثقلت كاهل الأهلين وأنقضت ظهورهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٦ .

(٢) المصدر السابق: ٤ / ١١ .

(٣) المصدر السابق: ٤ / ١٣٤ .

(٤) إيران في عهد الساسانيين، لارتهر كرستن، ص ٦٨١ .

(٥) تاريخ الطبرى ٤ / ١٦١ .

يقول مؤلف (إيران في عهد الساسانيين):

«وقد جرت عادة ملوك إيران بقبول الهدايا والتقديمات من الرعية، وكانوا يسمون ذلك (آيين) وكان ذلك علاوة على الضرائب الرسمية، وكانوا يأخذون من الناس الهدايا جبرا يوم نوروز والمهرجان، وكانت مناجم الذهب في أرمينيا ملكا للملك ولنفقاته الخاصة»[١].

ويقول المؤرخ العربي الشامي:

«كان يقضي على الشعب الشامي أن يؤدي الجزية وعشر غلاته وإتاوة من المال ورسما على كل رأس، وللشعب الروماني موارد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات المتعهدين يسمونهم العشارين، يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج، وفي كل ولاية عدة شركات من العشارين، ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون في مظهر السادة، ويتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه، ويسلبون نعمة الأهلين، وكثيرا ما يبيعونهم كما يباع الرقيق»[٢].

«وأوجز أحدهم السياسة الإمبراطورية في الرومان بقوله: الراعي الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه، فمضى القرنان وأباطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيرا من الأموال، ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجي»[٣].

شقاء الجمهور:

وهكذا أصبح أهل البلاد في كلتا المملكتين طبقتين متميزتين تمام التميز: طبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط الملكي وأسرهم وعشائرهم والمتصلون بهم والأغنياء، فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين ويتقلبون في أعطاف النعيم، وينعلون أفراسهم عسجدا، ويكسون بيوتهم حريرا وسندسا.

وطبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال، كانوا في جهد من العيش: يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ويرسفون في القيود والأغلال ويعيشون عيش البهائم، لا حظ لهم في الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم، ولا هم

---

(١) إيران في عهد الساسانيين، لآرتهركرستن، ص ١٦١ .

(٢) خطط الشام، للأستاذ كرد علي: ٥ / ٤٧ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

لهم إلا الأكل والعلف، فإذا سئموا هذا العيش المر تعللوا بالمسكرات والملهيات، وإذا تنفسوا من هذا العناء رتعوا في المحرمات، ورغم هذا الجهد في المعيشة يجهدون أنفسهم في تقليد رجال الطبقة العليا في كثير من أساليب حياتهم، فكان ذلك أشد من الجهد في سبيل الكفاف من الرزق والبلغة من العيش، فتنغص حياتهم، ويتكدر صفوهم ويشتغل بالهم.

بين غنى مطغ وفقر منس:

وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء، والأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية في العالم المتمدن المعمور بين غنى مطغ وفقر منس، وأصبح الغني في شغل عن الدين والاهتمام بالآخرة والتفكير في الموت وما بعده بنعيمه وترفه، وأصبح الفلاح أو العامل في شغل عن الدين كذلك لهمومه وأحزانه وتكاليف حياته، وأصبحت الحياة ومطالبها هم الغني والفقير وشغلهما الشاغل، وكانت رحى الحياة تدور حول الناس في قوة لا يرفعون فيها إلى الدين والآخرة رأسا، ولا يتفرغون لما يتصل بالروح والقلب والمعاني السامية ساعة.

تصوير الجاهلية:

وقد صور أحد كبار علماء الإسلام(١) هذه الحال فأجاد التصوير، قال:

«اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان، وتعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها، حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجا قيمتها دون مائة ألف درهم، أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن(٢) وحمام وبساتين، ولا يكون له دواب فارهة وغلمان حسان، ولا يكون له توسع في المطاعم وتجمل في الملابس، وذكر ذلك يطول، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم.

فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدنية، وآفة عظيمة، ولم يبق منهم أحد من

---

(١) وهو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (م ١١٧٦هـ).

(٢) فسقية.

أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه، وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموما وهموما لا أرجاء لها، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والدياس والحصاد، ولا تقتني إلا ليستعان بها في الحاجات، ثم لا تترك ساعة من العناء، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلا، ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه»[1].

(١) حجة الله البالغة، باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم.

الباب الثاني

من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الأول

منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير

العالم الذي واجهه محمد ﷺ :

بعث محمد بن عبد الله ﷺ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا؛ فإذا كل شيء فيه في غير محله، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر، ومنه ما التوى وانعطف، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانا آخر، ومنه ما تكدس وتكوم.

نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنسانا قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر.

رأى إنسانا معكوسا قد فسدت عقليته، فلم تعد تسيغ البديهيات، وتعقل الجليات؛ وفسد نظام فكره، فإذا النظري عنده بديهي وبالعكس، يستريب في موضع الجزم، ويؤمن في موضع الشك؛ وفسد ذوقه فصار يستحلي المر ويستطيب الخبيث، ويستمرئ الوخيم؛ وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم، ولا يحب الصديق الناصح.

رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعيا والخصم الجائر قاضيا، وأصبح المجرم فيه سعيدا حظيا، والصالح محروما شقيا؛ لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف، ولا أعرف من المنكر. ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية، وتسوقها إلى هوة الهلاك.

رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار، وتعاطي الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهم، ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد.

رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا، وعباد الله خولا. ورأى أحبارا ورهبانا أصبحوا أربابا من دون الله؛ يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

رأى المواهب البشرية ضائعة زائغة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح، فعادت وبالا على أصحابها وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية، والجود تبذيرا وإسرافا، والأنفة حمية جاهلية، والذكاء شطارة وخديعة، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات،

والإبداع في إرضاء الشهوات.

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ينتفع بها في هيكل الحضارة، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة.

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع، والسياسة كجمل هائج حبله علي غاربه، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه، ويجرح به أولاده وإخوانه.

نواحي الحياة الفاسدة:

إن كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعي اهتمام المصلح وتشغل باله، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوافر على إصلاح ناحية من نواحيها، وظل طول عمره يعالج عيبا من عيوب المجتمع ويعانيه، ولكن نفسية الإنسان معقدة التركيب دقيقة النسيج كثيرة المنافذ والأبواب، خفية التخلص والتنصل، وإنها إذا زاغت أو اعوجت لا يؤثر فيها إصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها، حتى يغير اتجاهها من الشر إلى الخير، ومن الفساد إلى الصلاح، وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التي قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية في أرض كريمة، وتحسم مادة الشر ويغرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عز وجل.

وكل داء من أدواء المجتمع الإنساني وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب إصلاحه حياة كاملة، ويستغرق عمر إنسان بطوله، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر في بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة، أعياه أمرها وحبطت جهوده، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى في السم، وتبتغي النشوة حتى في الإثم، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية ومفاسده الخلقية، وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة[1]، لا تهجره إلا بتغيير نفسي عميق، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير

(١) منعت حكومة أمريكا الخمر، وطاردتها في بلادها، واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها، ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بلايين صفحة. وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس؛ وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس، وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه. ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر وعنادا في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م إلى سحب القانون وإباحة الخمر في مملكتها إباحة مطلقة (من كتاب تنقيحات، للأستاذ أبي الأعلى المودودي).

تسللت إلى غيره من أنواع الجريمة أو استباحته بتغيير الأسماء والصور.

لم يكن الرسول رجلا إقليميا أو زعيما وطنيا :

وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحا إذا كان الرسول ﷺ رجلا إقليميا وسار في قومه سير القادة السياسيين والزعماء الوطنيين، كان له أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية، ويكون إمارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها، ولا شك أن أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهما كانوا في مقدمة من ينضم إلى هذا اللواء القومي، ويقاتلون تحته ويقلدونه الزعامة. أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته؟ أما حكموه في أكبر حادث من حوادث حياتهم المكية ومنحوه أكبر شرف، إذ حكموه في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت؟ أما قالوا له على لسان عتبة، وهم ما عرفوا الإغراء السياسي: «إن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسا ما بقيت»[(١)] .

وإذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمي الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم، وينتصر للعروبة المهضومة، وينتصر من العجم الظالمين، ويغرز علم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم وفارس، وإذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدي الإمبراطوريتين في ذلك الحين، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة أو جارة أخري ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة.

وكانت في الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج إلى حنكة سياسي وكفاية إداري وعزيمة عصامي وابتكار عبقري، فلو قيض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد.

لم يبعث لينسخ باطلا بباطل:

ولكن محمدا ﷺ لم يبعث لينسخ باطلا بباطل، ويبدل عدوانا بعدوان، ويحرم شيئا في مكان ويحله في مكان آخر، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى، لم يبعث زعيما وطنيا أو قائدا سياسيا، يجر النار إلى قرصه، ويصغي الإناء إلى شقه، ويخرج الناس من حكم

(١) البداية والنهاية، لابن كثير الدمشقي: ٣ / ٦٣ .

الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان. وإنما أرسل إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ويخرج الناس جميعا من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن، ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنساني، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافي واستقلالها السياسي خير مركز لرسالته، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته.

قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها:

ولم يكن ﷺ من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسللون إليها من نوافذها، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتا في بعض نواحي البلاد، ومنهم من يموت ولم ينجح في مهمته[١].

---

(١) إن غاندى الزعيم الهندي الكبير هدف من أول حياته السياسية والروحية إلى مبدأين عظيمين، حصر فيهما زعامته السياسية وشخصيته الروحية القوية النادرتين في هذا العصر جعلها شعارا لمبدئه. الأول: «لا عنف ولا مقاومة»، وقد دعا إلى هذا المبدأ كديانة وفلسفة، وظل سنين طوالا يدعو إليه بخطبه ومقالاته وصحفه، واستنفد في ذلك جهوده؛ ولما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسي وعن طريق الدعوة الدينية الأساسية لم تؤثر دعوته في نفسية أمته تأثيرا عميقا، وقد جعلت هذه الأمة دعوته هباء منثورا في الاضطرابات الطائفية العظيمة التي وقعت في بنجاب الشرقية ودلهي عاصمة الهند في سبتمبر سنة ١٩٤٧م التي قتل فيها من المسلمين أكثر من نصف مليون، وكانت مجزرة هائلة وقع فيها من القسوة والهمجية والاعتداء على الأطفال والنساء والأعراض ما لا يكاد يصدقه المؤرخون، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذي بلغت به أمته حد التقديس والتأليه.

والمبدأ الثاني: «نسخ اللمس المنبوذ»، ولم ينجح في مهمته هذه كذلك نجاحا يعتد به، فكان ذلك برهانا ساطعا على أن طريق الأنبياء هو الطبيعي الصحيح في الإصلاح والتغيير.

أتى النبي ﷺ بيت الدعـوة والإصلاح من بابه، ووضع على قفل الطبـيعة البـشرية مفتـاحه، ذلك القفل المعقـد الذي أعيا فتحـه جميع المصلحين في عهـد الفترة؛ وكل من حاول فتـحه من بعده بغيـر مفتاحه. ودعـا الناس إلى الإيمان بالله وحده، ورفض الأوثان والعبادات، والكفـر بالطاغوت بكل معاني الكلمـة، وقام في القوم ينادي: «**يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا!**» ودعاهم إلى الإيمان برسالته، والإيمان بالآخرة .

الفصل الثاني

رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام

دفاع الجاهلية عن نفسها:

ما أخطأ المجتمع الجاهلي فهم هذه الدعوة ومراميها، وما غم على أهله أمرها، وأدركوا عندما قرع أسماعهم صوت النبي ﷺ أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدد إلى كبد الجاهلية ونعي لها، فقامت قيامة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير، وقاتلت في سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت، وأجلبت على الداعي ﷺ بخيلها ورجلها، وجاءت بحدها وحديدها: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⓺﴾ [ص:٦].

ووجد كل ركن من أركان هذه الحياة ومن أثافي الجاهلية نفسه مهددا وحياته منذرة، وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب، وكان ذلك آية توفيق النبي ﷺ لأنه أصاب الغرض، وضرب على الوتر الحساس، وأصاب الجاهلية في صميمها وفي مقتلها، وثبت النبي ﷺ على دعوته ثبوتا دونه ثبوت الراسيات، لا يثنيه أذى، ولا يلويه كيد، ولا يلتفت إلى إغراء. يقول لعمه: «**يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه**»(١).

في سبيل الدين الجديد:

مكث رسول الله ﷺ ثلاث عشرة حجة يدعو إلى الله وحده والإيمان برسالته واليوم الآخر في كل صراحة، ولا يكنى ولا يلوح ولا يلين، ولا يستكين ولا يحابي ولا يداهن، ويرى في ذلك دواء لكل داء. وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب، ورموه عن قوس واحدة، وأضرموا البلاد عليه نارا ليحولوا بينه وبين أبنائهم وإخوانهم؛ فأصبح الإيمان به والانحياز إليه جد الجد، لا يتقدم إليه إلا جاد مخلص هانت عليه نفسه، وعزم على أن يقتحم لأجله النيران، ويمشي إليه ولو على حسك السعدان.

---

(١) البداية والنهاية: ٣ / ٣٣ .

فتقدم فتية من قريش لا يستخفهم طيش الشباب، ولا يستهويهم مطمع من مطامع الدنيا، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة، سمعوا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم، فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وقلقت بهم مضاجعهم، فكأنهم على الحسك، ورأوا أنهم لا يسعهم إلا الإيمان بالله ورسوله، فآمنوا وتقدموا إلى النبي ﷺ، وهو في بلدهم وبين سمعهم وبصرهم- فكانت رحلة طويلة شاقة لما أقامت قريش بينه وبين قومه من عقبات- ووضعوا أيديهم في يديه، وأسلموا أنفسهم وأرواحهم إليه، وهم من حياتهم على خطر، ومن البلاء والمحنة على يقين.

سمعوا القرآن يقول: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾[العنكبوت: ١-٣].

وسمعوا قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾[البقرة: ٢١٤].

فما كان من قريش إلا ما توقعوه، قد نثرت كنانتها، وأطلقت عليهم كل سهم من سهامها؛ فما زادهم كل هذا إلا ثقة وتجلدا، وقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢]. ولم يزدهم هذا البلاء والاضطهاد في الدين إلا متانة في عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتا للكفر وأهله، وإشعالا لعاطفتهم وتمحيصا لنفوسهم، فأصبحوا كالتبر المسبوك واللجين الصافي، وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف بعد الجلاء.

التربية الدينية:

هذا والرسول ﷺ يغذي أرواحهم بالقرآن، ويربي نفوسهم بالإيمان ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب، ونظافة خلق، وتحررا من سلطان الماديات، ومقاومة للشهوات ونزوعا إلى رب الأرض والسماوات، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس؛ لقد رضعوا حب الحرب وكأنهم ولدوا مع السيف، وهم من

أمة من أيامها حرب البسوس وداحس والغبراء، وما يوم الفجار ببعيد.

ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية، ويقول لهم: «كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة»، فانقهروا لأمره وكفوا أيديهم، وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس في غير جبن وفي غير عجز، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم في مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعي الطبيعية إلى ذلك وقوتها، وذلك غاية ما روى في التاريخ من الطاعة والخضوع، حتى إذا تعدت قريش في الطغيان وبلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة: وهاجروا إلى يثرب وقد سبقهم إليها الإسلام.

في مدينة الرسول ﷺ:

والتقى أهل مكة بأهل يثرب، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد؛ فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ. وكان الأوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث، ولا تزال سيوفهم تقطر دما، فألف الإسلام بين قلوبهم، ولو أنفق أحد ما في الأرض جميعا ما ألف بين قلوبهم، ثم آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين، فكانت أخوة تزري بأخوة الأشقاء، وتبز كل ما روى في التاريخ من خلة الأخلاء.

كانت هذه الجماعة الوليدة- المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار- نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس، ومادة للإسلام، فكان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده، وعصمة للإنسانية من الفتن والأخطار التي أحدقت بها؛ لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾[الأنفال: ٧٣].

انحلت العقدة الكبرى:

ولم يزل الرسول ﷺ يربيهم تربية دقيقة عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكي جمرة قلوبهم، ولم تزل مجالس الرسول ﷺ تزيدهم رسوخا في الدين وعزوفا عن الشهوات، وتفانيا في سبيل المرضاة وحنينا إلى الجنة، وحرصا على العلم وفقها في الدين ومحاسبة للنفس، يطيعون الرسول في المنشط والمكره، وينفرون في سبيل الله خفافا وثقالا، قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعا وعشرين مرة في عشر سنين، وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة، فهان عليهم التخلي عن الدنيا، وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم، ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه، وبكل ما

يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة، فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها.

وانحلت العقدة الكبرى- عقدة الشرك والكفر- فانحلت العقد كلها، وجاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى، فكان النصر حليفه في كل معركة، وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى.

حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد. نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة، وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة.

حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم، وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد؛ لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى، ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة، ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم. قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله. واستخلفهم الرسول ﷺ في عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته.

أغرب انقلاب وقع في تاريخ العالم:

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه ﷺ في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر، وقد كان هذا الانقلاب غريبا في كل شيء: كان غريبا في سرعته، وكان غريبا في عمقه، وكان غريبا في سعته وشموله، وكان غريبا في وضوحه وقربه إلى الفهم؛ فلم يكن غامضا ككثير من الحوادث الخارقة للعادة، ولم يكن لغزا من الألغاز. فلندرس هذا الانقلاب عمليا، ولنتعرف مدى تأثيره في المجتمع الإنساني والتاريخ البشري.

تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول:

كان الناس- عربا وعجما- يعيشون حياة جاهلية، يسجلون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصي بعقوبة ولا يأمر

ولا ينهى، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم، كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية، فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر وتولوا إدارة المملكة وتدبير شؤونها وتوزيع أرزاقها، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة، فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية، وكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له: من بنى هذا القصر العتيق؟ فيسمي ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له؛ فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعائه، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم؛ فكانت معرفتهم مبهمة غامضة، قاصرة مجملة، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة.

وهذه الفلسفة اليونانية قد عرفت بواجب الوجود في سلوب ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنع والرحمة، ولم تثبت له إلا الخلق الأول، ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة، ونفت الصفات وقررت كليات كلها حط من قدر الخالق وقياس على الخلق؛ والسلوب إذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد، ولم نعلم مدنية واحدة ولا مجتمعا ولا نظاما ولا عملا ولا بناية قامت على مجرد سلوب، فتجردت الديانة في أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والالتجاء إليه في الحوادث ومحبته بكل القلب. وهكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها وأصبحت طقوسا وتقاليد وأشباحا للإيمان.

انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها، آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم، الغفور الودود، الرؤوف الرحيم، له الخلق والأمر، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه، إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه، يثيب بالجنة ويعذب بالنار، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، يعلم الخبء في السماوات والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه.

فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهرا لبطن؛ تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره، وجرى منه مجري الروح والدم، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها؛ وغمر العقل والقلب بفيضانه، وجعل منه رجلا غير الرجل، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق.

وخز الضمير:

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية، حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون- تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة ووخزا لاذعا للضمير وخيالا مروعا، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئنا مرتاحا، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة.

وقد حدثنا المؤرخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا في التاريخ الإسلامي الديني، فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ماعز بن مالك الأسلمي، أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فرده الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: «أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا؟» فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم.

قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وأنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزا، فوالله إني لحبلى. قال: «إما لا فاذهبي حتى تلدي»، قال: فلما ولدت أتته بالصبي في

خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «فاذهبي فأرضعيه حتى تطعميه»، فلما فطمته أتته بالصبي، في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين. ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها. فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله سبه إياها فقال: «مهلا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له» ، ثم أمر بها فصلي عليها ودفنت[١].

الثبات أمام المطامع والشهوات:

وكان هذا الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته، يملك نفسه من النزوع أمام المطامع والشهوات الجارفة، وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا. وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان.

حدث الطبري قال: لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض. فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به. فعرفوا أن للرجل شأنا. فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس[٢] .

الأنفة وكبر النفس :

وكأن هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عاليا وأقام صفحة عنقهم فلن تحنى لغير الله أبدا. لا لملك جبار ولا لحبر من الأحبار ولا لرئيس ديني ولا دنيوي. وملأ قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته، فهانت وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفخة؛ فإذا نظروا إلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود.

(٢) تاريخ الطبري: ٤ / ١٦ .

فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان.

عن أبي موسى قال: انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره، والقسيسون جلوس سماطين، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان اسجدوا للملك. فقال جعفر: لا نسجد إلا لله [١].

الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء:

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولا إلي رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، فقال له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة:

ولقد بعث الإيمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنينا غريبا إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأي عين، فطاروا إليها طيران حمام الزجل لا يلوي على شيء.

تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب الكعبة، إني أجد ريحها من دون أحد، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثل به

(١) البداية، ج ٣.

المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه [١].

قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض!»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟!. قال: نعم، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟»، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل [٢].

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»، فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل [٣].

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما توجه رسول الله ﷺ إلى أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: « إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد»، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» وقال لبنيه: «وما عليكم أن دعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة» فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا [٤].

قال شداد بن الهاد: جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئا

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) زاد المعاد: ٣ / ١٣٥ .

فقسمه، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمي ها هنا- وأشار إلى حلقه- بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله ليصدقك»، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبي ﷺ وهو مقتول فقال: «أهو هو؟»، قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدقه»[(١)].

من الأنانية إلى العبودية:

وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون في سلك، يسيرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء، فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها، واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهي، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة، وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهي استسلاما كاملا، ووضعوا أوزارهم، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم، وأصبحوا عبيدا لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله، ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره.

ولما كان القوم يحسنون اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول ﷺ وعرفوا الجاهلية ونشؤوا عليها، وعرفوا معنى الإسلام معرفة صحيحة، وعروفوا أنه خروج من حياة إلى حياة، ومن مملكة إلى مملكة، ومن حكم إلى حكم، أو من فوضوية إلى سلطة، أو من حرب إلى استسلام وخضوع، ومن الأنانية إلى العبودية، وإذا دخلوا في الإسلام فلا إفتيات في الرأي ولا نزاع مع القانون الإلهي، ولا خيرة بعد الأمر ولا مشاقة للرسول، ولا تحاكم إلى غير الله ولا إصدار عن الرأي، ولا تمسك بتقاليد وعادات، ولا ائتمار بالنفس، فكانوا إذا أسلموا انتقلوا من الحياة إلى الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها إلى الإسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على أثر قبول الإسلام من غير تأن.

---

(١) زاد المعاد: ٣ / ١٩٠ .

هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ، وهو يطوف بالبيت. فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟»، قال: نعم، فضالة يا رسول الله! قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه؛ وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئا أحب إلي منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: يأبى الله عليك والإسلام[١].

المحكمات والبينات في الإلهيات:

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته، وآتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفوا بدون تعب، وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة، لا تعمل فيها حواسهم، ولا يؤدي إليها نظرهم، وليست عندهم معلوماتها الأولية.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعا، وأبدوا البحث أنفا، وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشدا ولا خريتا، وكانوا في ذلك أكثر ضلالا، وأشد تعبا وأعظم اشتغالا بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنساني في الجغرافية ، وما حدد وضبط في الخرائط على تعاقب الأجيال، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد، ويختبر الصحاري والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره، وضعف قوته، وفقدان آلته، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخانته عزيمته، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة، وكذلك الذين خاضوا في الإلهيات من غير بصيرة، وعلى غير هدى، وجاؤوا في هذا العلم بآراء فجة، ومعلومات ناقصة، وخواطر سانحة، ونظريات مستعجلة، فضلوا وأضلوا.

وكذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة ومحكمات هي أساس المدنية الفاضلة، والحياة السعيدة في كل زمان ومكان، فحرموها على تعاقب الأعصار، فبنوا

(١) زاد المعاد: ٢ / ٣٣٢ .

مدنيتـهم على شفا جرف هار، وأساس منهـار، وعلى قياس واختبار، فزاغ أساس المدنية وتداعي بناؤها، وخر عليهم السقف من فوقهم.

وكان الصحابة ﷺ سعداء موفـقين جدا إذ عولوا في ذلك كله على رسول الله ﷺ فكفوا المؤونة وسعدوا بالثـمرة، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم في غـير جهاد، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيـما يعنيهم من الدين والدنيا، وتمسكوا بالعروة الوثقى، وأخذوا في الدين بلب اللباب.

الفصل الثالث

المجتمع الإسلامي

طاقة زهر:

إن هذا الإيمان بالله واليوم الآخر والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة، ورد كل فرد في المجتمع البشرى إلى موضعه، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها، أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى، يقول النبي ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان»[١]، ويسمعه الناس يقول: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى»[٢]، ويقول: «إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد، كلكم بنو آدم، طف الصاع لم يمنعوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى»[٣]، وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحد ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله» ويسمعه الناس يقول فيما يناجي به ربه في آخر الليل: «وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»[٤].

ليس منا من دعا إلى عصبية :

واقتلع ﷺ جذور الجاهلية وجراثيمها، وحسم مادتها، وسد كل نافذة من نوافذها، فقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٥]، وعن جابر بن عبد الله قال: كنا في غزاة فكسع رجل

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الحجرات.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) رواه أبوداود.

من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار. فقال المهاجرون: " يا للمهاجرين. فقال النبي ﷺ: «دعوها إنها منتنة»[١]، وحرم حمية الجاهلية، وقيد ذلك التناصر الذي جرت الجاهلية العربية على إطلاقه، فكان من الأمثال السائرة وشرائع الجاهلية الثابتة: انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قال النبي ﷺ: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي ردى فهو ينزع بذنبه»[٢]، وتغيرت بذلك نفسية العربي وعقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربي لا يسيغ ذلك المثل العربي السائر، فلما قال النبي ﷺ مرة: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» لم يملك نفسه، فقال: يا رسول الله هذا نصرته مظلوما، فكيف أنصره ظالما؟ قال: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه»[٣].

كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته:

وأصبحت الطبقات والأجناس في المجتمع الإسلامي متعاونة متعاضدة لا يبغي بعضها على بعض، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، لهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وأصبح كل واحد في المجتمع راعيا ومسؤولا عن رعيته والإمام راع ومسؤول عن رعيته؛ والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته[٤]، وهكذا كان المجتمع الإسلامي مجتمعا رشيدا عاقلا مسؤولا عن أعماله.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

وأصبح المسلمون أعوانا على الحق، أمرهم شورى بينهم، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم، فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم، وأصبح شعار الحكم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٥] وأصبحت الأموال والخزائن التي كانت طعمة للملوك والأمراء ودولة بين الأغنياء مال الله الذي لا ينفق إلا في وجهه ولا يخرج إلا في حقه، وأصبح المسلمون مستخلفين فيه، والخليفة كولي اليتيم إن استغنى استعف وإن افتقر أكل بالمعروف،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) حديث متفق عليه..

(٤) حديث متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

وأصبحت الأرض التي اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاؤون ويضيقونها على من يشاؤون ويقطعها بعضهم بعضا كما يقطع الثوب، أصبحت أرض الله التي من ظلم قيد شبر منها طوقه من سبع أرضين.

حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع :

وكان المجتمع البشري قد فقد نشاطه وأريحته في الحياة وفي كل ما يأتي ويذر، وكان مجتمعا مرهقا مخنوقا، فكان مدفوعا إلى ساحة الحرب من غير أن ينشط أو يتحمس لأغراض أولي الأمر، وكان مدفوعا إلى الصلح ولم يقض من الحرب وطرا ولم يشف نفسه، وكان الرجال في هذا المجتمع يرغمون على التضحية والإيثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الأمور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة، لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة، فكانوا مرغمين على أن يطيعوا من لا يحبونه، ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه؛ فانطفأت جمرة القلوب وبردت العواطف، ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل، ونشأت النفوس علي الذل وتحمل الضيم والصغار.

كانت العاطفة القوية- التي يرجع إليها الفضل في غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ، تلك التي يسميها الناس (الحب)- تائهة ضائعة، لم يظهر منذ قرون من يشغلها ويستثمرها؛ فضاعت في ألوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة الفانية مما تغنى به الشعراء قديما وحديثا .

في هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد ﷺ فحل عقاله وفك إساره، ثم حل منه محل الروح والنفس، وشغل منه مكان القلب والعين، وهو البشر الذي جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال وأبلغ معاني الحسن والإحسان، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله، فاندفع إليه الحب الصادق كما يندفع الماء إلى الحدور، وانجذبت إليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد إلى المغناطيس، كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد؛ وأحبه رجال أمته وأطاعوه حبا وطاعة لم يسمع بمثلهما في تاريخ العشاق والمتيمين. ووقع من خوارق الحب والتفاني في طاعته وإيثاره على النفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده.

نوادر الحب والتفاني:

وطئ أبو بكر بن أبي قحافة في مكة يوما بعد ما أسلم، وضرب ضربا شديدا، ودنا

منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته ، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله. قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت، قالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر. وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول الله ﷺ قالت: هذه أمك تسمع؟ قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح! قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله علي ألا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ (١).

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ قالوا: خيرا، هو بحمد الله كما تحبين! قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (٢).

رفعوا خبيبا رضي الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه: أتحب أن محمدا مكانك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه. فضحكوا منه (٣).

وقال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، قل له: يقول لك رسول الله ﷺ « كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول

---

(١) البداية والنهاية: ٣ / ٣٠ .

(٢) رواه ابن إسحاق إمام المغازي؛ ورواه البيهقي مرسلا.

(٣) البداية والنهاية: ٤ / ٦٣ .

لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: على رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته[١].

وترس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك[٢]. ومص مالك الخدري جرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه، قال له: «مجه». قال: والله ما أمجه أبدا[٣].

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني. قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس[٤].

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعدما رجع من الحديبية: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له[٥].

عجائب الانقياد والطاعة:

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود (الحب) المتطوعة، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قواهم، يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر: إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم؛ فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ

---

(١) زاد المعاد: ٢ / ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق: ٢ / ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٣٦ .

(٤) سيرة ابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة.

(٥) زاد المعاد: ٣ / ١٢٥ .

البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك[١].

وكان من شدة طاعتهم له ﷺ أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب، يقول كعب: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس، أو قال: تغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفس الأرض فما هي الأرض التي أعرف، إلى أن قال: حتى إذا طال على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة- وهو ابن عمي وأحب الناس إلي- فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار[٢].

وكان من طاعته أيضا وهو في موضع عتاب وجفوة أن رسول الله ﷺ يأتيه ويقول له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقال: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها فلا تقربنها، فقال لامرأته: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله من هذا الأمر .

وكان من حبه للرسول ﷺ وإيثاره على كل أحد في الدنيا أن ملك غسان بعث إليه يخطب وده ويستلحقه بنفسه، وتلك محنة عظيمة في حال الجفوة والعتاب، ولكنه يرفض ذلك، قال: «**بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذ نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني، فدفع إلي كتابا من ملك غسان- وكنت كاتبا- فقرأته فإذا فيه: أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها**»[٣].

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهي عن الخمر في مجلس

---

(١) المصدر السابق: ٣ / ١٣٠ .

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

شرب، فعن أبي بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة، إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر: ﴿يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾- إلى قوله: ﴿ فهل أنتم منتهون﴾. فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون ﴾. قال: وبعض القوم شربته في يده شرب بعضا وبقى بعض في الإناء، فقاء بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام، ثم صبوا في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا، انتهينا ربنا [(١)].

ومن غرائب الطاعة للرسول وإيثاره على النفس والأهل والعشيرة ما روي عن عبد الله ابن عبد الله بن أبي، روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الله ابن عبد الله بن أبي قال: «ألا ترى ما يقول أبوك؟» قال: ما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال: «يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، فقال: فقد صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به، فقال رسول الله ﷺ «لا». فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي علي بابها بالسيف لأبيه، ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله، فقال: يا للخزرج، ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي!! فقال: والله لا يأويه أبدا، إلا بإذن منه؛ فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال: « اذهبوا إليه فقولا له خله ومسكنه». فأتوه فقال: أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم [(٢)].

---

(١) رواه ابن جرير بسنده في التفسير عند قوله تعالى: ﴿ يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾، تفسير الطبري، ج٧ .

(٢) تفسير الطبري: ج ٢٨ .

الفصل الرابع

كيف حول الرسول خامات الجاهلية

إلى عجائب الإنسانية

بهذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن، بهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته، بعث رسول الله ﷺ في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة.

عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله، فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جمادا فتحول جسما ناميا وإنسانا متصرفا. وكأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حيا يملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائدا بصيرا يقود الأمم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العليا، ولا يحسب له أقرانه حسابا كبيرا، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلا عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحربية في نطاق محلي ضيق، يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم، ولم يحرز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة؛ إذ به يلمع سيفا إلهيا لا يقوم له شيء إلا حصده وينزل كصاعقة على الروم ويترك ذكرا خالدا في التاريخ.

وهذا أبو عبيدة كان موصوفـا بالصلاح والأمانة والرفق، ويقود سرايا المسلمين، إذا به يتولى القـيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشـام ومروجها الخـضراء، ويلقى عليها نظرة الوداع ويقول: سلام على سورية سلاما لا لقاء بعده.

وهذا عمرو بن العـاص كان يعد من عقلاء قـريش، وترسله في سفارتها إلى الحـبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائبا، إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة.

وهذا سعد بن أبي وقـاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كـقائد جيش ورئيس كتيبة، إذ به يتقلد مفاتيح المدائن، وينيط باسمه فتح العراق وإيران.

وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبذان فـي إحدى قرى فارس، لم يزل ينتقل من رق إلى رق، ومن قـسوة إلى قسـوة، إذا به يطلع على أمتـه كحـاكم لعاصـمة الإمبـراطورية الفارسـية التي كان بالأمس أحد رعـاياها، وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغـير من زهادته وتقشفه، فيراه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الأثقال.

وهذا بلال الحبشي يبلغ فضله وصالحه مبلغا يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد.

وهذا سالم مـولى أبي حذيفة يـرى فيه عـمر موضـعا للخلافـة يقول: لو كان حـيا لاستخلفته.

وهذا زيد بن حارثة يقـود جيش المسلمين إلى مؤتة، وفـيه مثل جعـفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد، ويقود ابنه أسامة جيشا فيه مثل أبي بكر وعمر.

وهذا أبو ذر، والمقداد، وأبـو الدرداء، وعمار بن ياسـر، ومعاذ بـن جبل، وأبي بن كعب، تهب عليهم نفحـة من نفحات الإسلام، فيصبـحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين.

وهذا علي بن أبي طالب، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله ابن عباس، قد أصـبحوا في أحضان النبي الأمي ﷺ من علماء العـالم، يتفجر العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم، أبر الناس قلوبا، وأعـمقهم علما، وأقلهم تكلفا، يتكلمون فينصت الزمان، ويخطبون فيسجل قلم التاريخ.

كتلة بشرية متزنة:

ثم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخـام المبعثرة التي استهانت بقـيمتها

الأمم المعاصرة، وسخرت منها البلاد المجاورة، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشري أحسن منها اتزانا، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها، أو كالمطر لا يدري أأوله خير أم آخره، كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الإنسانية.

كتلة هي في غنى عن العالم، وليس العالم في غنى عنها، وضعت مدنيتها، وأسست حكومتها، وليس لها عهد بها، فلم تضطر إلى أن تستعير رجلا من أمة، أو تستعين في إدارتها بحكومة، أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين، وملأت كل ثغر وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة، والقوة والأمانة، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف، فأنجدتها هذه الأمة الوليدة التي لم يمض عليها إلا بعض العقود-كله جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح- برجل من الرجال الأكفاء، فإن منها الأمير العادل، والخازن الأمين، والقاضي المقسط، والقائد العابد، والوالي المتورع، والجندي المتقي.

وكانت بفضل التربية الدينية التي لا تزال مستمرة، وبفضل الدعوة الإسلامية التي لا تزال سائرة، مادة لا تنقطع ومعينا لا ينضب، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحون جانب الهداية على الجباية، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية، وهنا ظهرت المدنية الإسلامية بمظهرها الصحيح، وتجلت الحياة الدينية بخصائصها التي لم تتوفر لعهد من عهود التاريخ البشري.

لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب، وقوى ومواهب، أصاب الجاهلية في مقتلها وصميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحوا جديدا ويفتتح عهدا سعيدا، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين التاريخ.

الباب الثالث

العصر الإسلامي

الفصل الأول:

عهد القيادة الإسلامية

الأئمة المسلمون وخصائصهم:

ظهر المسلمون وتزعموا العالم، وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها، وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم.

أولا: أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم، ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء، قد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة: ٨].

ثانيا: أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة من الماضي والحاضر، بل مكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق، يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها. يقول: «**إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله، أو أحدا حرص عليه**»[1]. ولا يزال يقرع سمعهم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٨٣]، فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء، بل كانوا يتدافعون في قبولها ويتحرجون من تقلدها، فضلا عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ويزكوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعيا وراءها، فإذا تولوا شيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنا لما أنفقوا من مال أو جهد، بل عدوه أمانة في

---

(١) حديث متفق عليه.

عنقهم وامتحانا من الله، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسؤولون عن الدقيق والجليل، وتذكروا دائما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[النساء:٥٨]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

ثالثا: أنهم لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم. إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد: «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(١). فالأمم عندهم سواء والناس عندهم سواء، الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣](٢).

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر- وقد ضرب ابنه مصريا، وافتخر بآبائه قائلا: خذها من ابن الأكرمين، فاقتص منه عمر-: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا(٣). فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد، وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها(٤).

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير.

(٢) من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع.

(٣) القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب، لابن الجوزي.

(٤) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، =

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب- حتى المضطهدة منها في القديم- أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة، وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد، بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين، حتى قال ابن خلدون: «من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية(١) إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته، فهو عجمي في لغته، ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي»(٢).

ونبغ من هذه الأمم في عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء، هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية، وحسنات العالم، فضيلة ومروءة وعبقرية ودينا وعملا، لا يحصيهم إلا الله.

رابعا: أن الإنسان جسم وروح، وهو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها، ويتغذى غذاء صالحا، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة ألبتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة؛ فإذا كان فيهم نقص في عقيدتهم أو في تربيتهم عاد ذلك النقص في مدنيتهم، وتضخم وظهر في مظاهر كثيرة، وفي أشكال متنوعة.

فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة، ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها ومبادئها وميولها في وضع المدنية وشكلها، وطبعتها بطابعها، وصاغتها في قالبها، فكملت نواحي الإنسانية واختلت نواح

=فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به». رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب العلم.

(١) يعني سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية.

(٢) المقدمة، ص ٤٩٩.

أخرى أهم منها؛ عاشت هذه المدنية وازدهرت في الجص والآجر، وفي الورق والقماش، وفي الحديد والرصاص، وأخصبت في ميادين الحروب وساحات القتال، وأوساط المحاكم ومجالس اللهو ومجامع الفجور، وماتت وأجدبت في القلوب والأرواح وفي علاقة المرأة بزوجها، والولد بوالده والوالد بولده، والأخ بأخيه والرجل بصديقه، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة ورواء، ويشكو في قلبه آلاما وأوجاعا، وفي صحته انحرافا واضطرابا.

إذا تغلبت جماعة تجحد المادة أو تهمل ناحيتها، ولا تهتم إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة، وتعادى هذه الحياة وتعاندها؛ ذبلت زهرة المدنية وهزلت القوة الإنسانية، وبدأ الناس- بتأثير هذه القيادة - يؤثرون الفرار إلى الصحاري والخلوات على المدن، والعزوبة على الحياة الزوجية، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها فتطهر الأرواح، ويؤثرون الموت على الحياة، لينتقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح، ويستوفون كمالهم هناك؛ لأن الكمال في عقيدتهم لا يحصل في العالم المادي؛ ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة وتخرب المدن ويختل نظام الحياة.

ولما كان هذا مضادا للفطرة لا تلبث أن تثور عليه، وتنتقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانية وأخلاق، وهكذا تنتكس الإنسانية، وتخلفها البهيمية والسبعية الإنسانية الممسوخة، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية، فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبعي، وتستسلم وتخضع لها، أو تسبق هي- بما يعتريها من الصعوبات في معالجة أمور الدنيا - فتمد يد الاستعانة إلى المادية ورجالها، وتسند إليهم أمور السياسة، وتكتفي هي بالعبادات والتقاليد الدينية، ويحدث فصل بين الدين والسياسة، فتضمحل الروحانية والأخلاق ويتقلص ظلها وتفقد سلطانها على المجتمع البشري والحياة العلمية، حتى تصير شبحا وخيالا أو نظرية علمية لا تأثير لها في الحياة، وتؤول الحياة مادية محضة.

وقلما خلت جماعة من الجماعات التي تولت قيادة بني جنسها من هذا النقص، لذلك لم تزل المدنية متأرجحة بين مادية بهيمية وروحانية ورهبانية ولم تزل في اضطراب.

يمتاز أصحاب النبي ﷺ بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة في قادة العالم،

وكان يمكن لهم- بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية واعتدالهم الغريب الذي قلما اتفق للإنسان، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن، واستعدادهم المادي الكامل وعقلهم الواسع- أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية.

دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة:

وكذلك كان، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور، دور الخلافة الراشدة، فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل، وفي ظهور المدنية الصالحة.

كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، ويساير الرقي الخلقي والروحى اتساع الفتوح واحتفال الحضارة، فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها، وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد، وهو دور كمالي لم يحلم الإنسان بأرقى منه، ولم يفترض المفترضون أزهى منه، ولم يكن إلا بسيرة الرجال الذين يتولون الحكم ويشرفون علي المدنية وبعقيدتهم وتربيتهم وخطتهم في الحكم وسياستهم، فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية أينما كانوا، كانوا أعفة أمناء خاشعين متواضعين، حكاما كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنودا.

يصف شيخ من عظماء الروم جنود المسلمين فيقول: إنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم[١]، وقال آخر: «هم فرسان بالنهار رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه»[٢]. ويقول الثالث: «أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر»[٣]، ويغنم الجند في المدائن تاج كسرى

---

(١) رواه أحمد بن مروان المالكي في المجالسة.

(٢) البداية والنهاية: ٧ / ٥٣ .

(٣) المرجع السابق: ٧ / ١٦ .

وبساطه، وهو يساوي مئات الألوف من الدنانير، فلا تعبث به يد ولا تشح عليه نفس، ثم يسلمونه إلى الأمير، ويرسله الأمير إلى خليفة المسلمين، فيتعجب ويقول: إن الذين أدوا هذا لأمناء[1].

تأثير الإمامة الإسلامية في الحياة العامة:

إن هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقا بأن يسعد النوع الإنساني في ظله وتحت حكمه، وأن يسير بقيادته سديد الخطا رشد الغاية مستقيم السير، وأن يعمر ويطمئن العالم في دوره وتخصب الأرض وتأخذ زخرفها، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها، ولا ينظرون إلى هذه الحياة كقفص من حديد أو غل في عنق، فيعادونه ويكسرونه، ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ونعيم ومتعة لا تعود أبدا فيتهزونها ويهتبلونها، ولا يضيعون منها ساعة ولا يدخرون من طيباتها، وكذلك لا يعدونها عذابا وعقوبة بجريمة فيتخلصون منها.

لا ينظرون إلى الدنيا كمائدة ممدودة فيتهالكون عليها، وإلى ما في الأرض من نعماء وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه، وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون في اقتناصها؛ بل يعدون هذه الحياة نعمة من الله هي أصل كل خير وسبب كل بر، يتقربون فيها إلى الله، ويصلون إلى كمالهم الإنساني الذي قدر لهم، وفرصة من عمل وجهاد لا فرصة بعدها: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝﴾ [الكهف: ٧].

ويعدون هذا العالم مملكة لله استخلفهم فيها- أولا- من حيث أصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ۝﴾ [الإسراء: ٧٠]،- ثانيا- من حيث إنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد لحكمه، فاستخلفه في الأرض واسترعاه أهله﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾

(١) سيرة عمر بن الخطاب، لابن الجوزي.

[النور: ٥٥]. ومنحهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها، فيرشدون الضال ويردون الغاوي ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود، ويرأبون الصدع ويأخذون للضعيف من القوي وينتصفون للمظلوم من الظالم، ويقيمون في الأرض القسط ويبسطون على العالم جناح الأمن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد وصف عالم ألماني مسلم ميزة المسلم وصفا دقيقا، قال:

«إن الإسلام لا ينظر- كالنصرانية- إلى العالم بمنظار أسود، بل هو يعلمنا ألا نسرف في تقدير الحياة الأرضية، وألا نغالي في قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة، إن المسيحية تذم الحياة الأرضية وتكرهها، والغرب الحاضر- خلاف الروح النصرانية- يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه، هو يبتعله ولكن ليس عنده كرامة له، والإسلام بالعكس ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام، هو لا يعبد الحياة بل يعدها كمرحلة نجتازها في طريقنا إلى حياة عليا، وبما أنها مرحلة؛ ومرحلة لابد منها ليس للإنسان أن يحتقرها أو يقلل من قيمة حياته الأرضية.

إن مرورنا بهذا العالم في سفر الحياة لابد منه، وقد سبق به تقدير الله، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى، ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة، وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة: «إن مملكتي ليست إلا هذا العالم»، ولا بالنظرية النصرانية التي تزدري الحياة وتقول: «ليس هذا العالم مملكتي»، وطريق الإسلام طريق وسط بينهما، القرآن يرشدنا أن ندعو: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾ [البقرة: ٢٠١].

فالتقدير لهذا العالم وأشيائه ليس حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية الخصبة،

والرقي المادي مرغـوب فيه مع أنه ليس غـاية في نفسـه. إن غاية جهودنـا ينبغي أن تكون إيجاد أحوال وظروف شخصية واجتماعـية- والمحافظة عليها إن وجدت- تساعد في ارتقاء القوة الخلقية في الإنسان، مطابقة لهذا المبدأ.

الإسلام يهدي الناس إلى الشعـور بالمسؤولية الخلقية في كل عمل يعمله كـبيرا كان أو صغـيرا. إن نظام الإسـلام الديني لا يسمح أبـدا بمثل ما أمر بـه الإنجيل قائلا: «أعـطوا ما لقيـصر لقيـصر، وأعطوا ما لله لله»، لأن الإسلام لا يسـمح بتقسـيم حاجات حـياتنا إلى خلقيـة وعملية، ليس هناك إلا خيـرة فقط، خيـرة بين الحق والباطل، وليس شيء وسطا بينهما، لـذلك هو يلح على العمل لأنه جزء لازم للأخلاق لا غنى عنه، ينـبغي لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسؤولا شخصيا عن المحيط الذي يحيط به وكل ما يقع حوله، ومأمورا بالجهاد لإقـامة الحق ومحق الباطل في كل وقت وفي كل جهة، فـإن القرآن يقول: ﴿كُنتُم خَـيْـرَ أُمَّـةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذا هو المبرر الخلقي للحركة الإسلامية الجهادية والفتوح الإسلامية الأولى والاستعمار الإسـلامي، فالإسـلام استـعمـاري إن كان لابد من هذا الـتعـبيـر، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعا بحب الحكومة والاستيلاء، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية في شيء، ولم يكن يحفـز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع في خفـض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين، ولم يقصـد منه إلا بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحي، كما أن العلم بالفضيلة على حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل.

الإسلام لا يوافق أبدا على الفـصل الأفلاطوني والتفريق النظري البحـت بين الفضيلة والـرذيلة، بل يرى أنه من الوقـاحة والرذيلة أن يميز الإنسـان نظريا بين الحق والباطل، ولا يجاهد لارتقـاء الحق وإزاحة الباطل، فإن الـفضيلة- كمـا يقول الإسلام- تحيـا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض، وتموت إذا خذلها وتقعد عن نصرتها»[1].

---

(1) Mohammad Asad (Leopold Weiss) Islam At The Cross Roads, Fifth Edition. P.29.

المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري :

كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها في القرن الأول لهجرة محمد ﷺ فصلا جديدا في تاريخ الأديان والأخلاق، وظاهرة جديدة في عالم السياسة والاجتماع، انقلب به تيار المدنية، واتجهت به الدنيا اتجاها جديدا، فكانت الدعوة الإسلامية لـم يزل يأتي بها الأنبياء ويبشر بها المبشرون ويجاهد في سبيلها المخلصون، ولكن لم يكن يتمكن دعاتها من إقامة حكومة قائمة على أساسها ومنهاجها متشبعة بمبادئها، ومن إقامة مدنية مطبوعة بطابعها مبنية على أحكامها مثل ما تمكنوا في هذه المرة، ولم تنل هذه الدعوة والجهود من النجاح في هذا السبيل مثل ما نالت أخيرا على يد محمد ﷺ وخلفائه الراشدين.

فكان هذا الفتح المبين للإسلام محنة جديدة للجاهلية لم تعهدها من قبل، ولم تعرف كيف تخرج منها، عهدها بها دعوة دينية روحية، فإذا هي تصبح نجاة وسعادة وروحا ومادة وحياة، وقوة ومدنية واجتماعا وحكومة وسياسة. دين سائغ معقول كله حكمة وبداهة إزاء أوهام وخرافات وأساطير، وشرع إلهي ووحي سماوي إزاء أقيسة وتجارب إنسانية وتشريع بشرى، ومدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الأساس، يسود فيها روح التقوى والعفاف والأمانة، وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه، والروح فوق المظاهر الجوفاء، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة، ويقل التنافس في أسباب هذه الحياة والتكالب على حطام الدنيا، ويقل التباغض والتشاحن.

كل ذلك إزاء مدنية صاخبة مضطربة متناحرة متداعية البنيان متزلزلة الأركان، يظلم الكبير فيها الصغير، ويأكل القوي فيها الضعيف، ويتسابقون في اللهو والفجور، ويتنافسون في الجاه والأموال وأسباب الترف والنعيم، حتى تصبح الدنيا كلها حربا في حرب، وتصبح المدنية جحيما على أهلها، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة: ٢١].

حكومة عادلة تساوي بين رعيتها، وتأخذ للضعيف من القوى، وتحرس للناس أخلاقهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم؛ خيارهم أمراؤهم، وأزهدهم في العيش أملكهم لأسبابه وأقدرهم عليه.. إزاء حكومة عم فيها الجور والعسف، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم، وتسابق أهلها في أكل أموال الناس،

وهتك أعراضهم وسفك دمائهم، تفسد علي الناس أخلاقهم بما تضرب لهم مثلا بأخلاقها، شرارهم أمراؤهم وملوكهم، تشبع دوابهم وكلابهم وتجوع رعيتهم، وتكسي بيوتهم ويعري الناس.

فأصبح الناس لا يجدون عائقا عن الإسلام، ولا يواجهون صعوبة وعنتا في سبيل قبول الإسلام، ولا يرون للجاهلية مرجحا ومصلحة، ويدخل الرجل في الإسلام فلا يخسر شيئا ولا يفقد شيئا، ويجد برد اليقين وحلاوة الإيمان وعزة الإسلام ودولة قوية يعتز بها، وأنصار يفدونه بأرواحهم وأنفسهم، ونفسا مطمئنة، وثقة في الحياة بعد الموت؛ فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم، وصارت أرض الجاهلية تنتقص من أطرافها، وكلمة الإسلام تعلو وظله يمتد، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله.

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيما جليلا، فكان الطريق إلى الله من قبل في دولة الجاهلية وغربة الإسلام شاقا عسيرا محفوفا بالأخطار، فأصبح الآن سهلا يسيرا آمنا مسلوكا، وكان يصعب على الإنسان في الوسط الجاهلي أن يطيع الله، فصعب عليه في الوسط الإسلامي أن يعصى الله، وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرة منصورة، فأصبحت اليوم خافتة مخذولة؛ وكانت أسباب سخط الله وعصيانه مكشوفة موفورة فعادت نادرة مستورة وكانت الدعوة إلى الله في أرض الله جريمة قد ترتكب سرا وخفية، فأصبحت جهرا وعلانية وحرة آمنة لا تلقى معارضة ذات بال، ولا يخاف أصحابها اضطهادا في سبيل العقيدة وأذى في سبيل الدين الجديد: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال:٢٦]، وأصبح أصحابها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يأمرون وينهون بمعنى الكلمة.

صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترق وتخشع، وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل في الأحشاء، وبدأت قيمة الأشياء تتغير في عيون الناس، والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها، وصار الإسلام شيئا راقيا عصريا، كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه والظهور بمظاهره، وكانت الأمم بل كانت الأرض تدنو رويدا رويدا إلى الإسلام، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس، يظهر ذلك في فلسفتهم

وفي دينهم وفي أدبهم وفي مدنيتهم، وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم وتنم عنه الحركة الإصلاحية التي ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين.

جاء الإسلام بالتوحيد ونعي على الوثنية والشرك، فهان الشرك منذ ذلك اليوم في عيون أهله وصغر، وصار أهله يخجلون منه ويتبرؤون منه ولا يقرون به، بعد ما كانوا يجتهدون في إظهاره، ويستميتون في الدفاع عنه، وأصبح أهل كل دين يؤولون ما في نظامهم الديني من شرك أو مظاهر شرك ووثنية ورسومها وتقاليدها ويلوون بذلك ألسنتهم، ويجتهدون في التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامي ويشبهه.

يقول الأستاذ أحمد أمين: «ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام. من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ظهر في سبتمانيا[1] (Septimania) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حق في ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبيعي ألا يكون فيه اعتراف».

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث أو الرابع الهجريين، ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقد أصدر الإمبراطور الروماني (ليو) الثالث أمرا سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمرا آخر سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا جريجري الثاني والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني من مؤيدي عبادة الصور، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله.

وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام، ويقولون: إن كلوديوس (Cladius) أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨م، وحول ٢١٣هـ) والذي كان يحرق الصور والصلبان وينهي عن عبادتها في أسقفيته، ولد وربى في الأندلس الإسلامية. وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت سهوة[2] لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه هتكه، وتلون وجهه، وقال: **«يا عائشة، أشد الناس**

---

[1] سبتمانيا: مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط.

[2] السهوة: النافذة بين الدارين، والقرام: الستر.

عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله». قالت: فقطعتها فجعلنا منه وسادة أو وسادتين». والأحاديث في هذا الباب مستفيضة.

وقد تحدث عن الصور والتماثيل الدينية المؤرخ الأوروبي الشهير (جيون) بتفصيل زائد يقول:

«كانت عبادة الصور قد نالت إعجابا كبيرا في الكنيسة، وكان ضعاف العقيدة من المسيحيين قد قبولها تدريجيا، اعتقادا منهم بقدسيتها وعصمتها عن كل إثم، وفي بداية القرن الثامن عندما كانت هذه البدعة قد وصلت إلى القمة تفطن اليونانيون فجأة إلى أنهم بعثوا دين آبائهم من جديد في ستار المسيحية، تهكم بهم على ذلك اليهود والمسلمون الذين كانوا قد استوحوا من التوراة والقرآن دوافع المقت والكراهية الدائمة لصناعة الأصنام وفنون الوثنية. الأمر الذي أقلقهم وأحزنهم، وقد كانوا يستطيعون أن يصرفوا النظر عن الموضوع إذا كان يتعلق باليهود وحدهم نظرا إلى صغارهم وذلتهم، ولكن ملامة المسلمين الفاتحين الذين كانوا يحكمون في دمشق وكادوا يستولون على القسطنطينية نالت منهم أهمية كبيرة».

يقول (جيبون):

«إن أول من بذل جهوده ضد عبادة الصور والأصنام هو الإمبراطور ليو (كاسر الأصنام) (٧١٧-٧٤١م)، وابنه كانستائن الخامس (٧٤١-٧٧٥م) -ص٢٥٢- وقضى مجلس (SYNOD) المنعقد في القسطنطينية عام ٧٥٤م بعد مباحثات استغرقت ستة أشهر؛ أن عبادة صور المسيح وتماثيله بدعة، ولكن المنطقة الشرقية أبت هذا الحكم ولم تقبله إلا باضطرار، وكان الإيطاليون قد قاموا بثورة ضد هذا الحكم عام ٧٢٨م »[١].

وكذلك وجدت طائفة من النصارى[٢] شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام[٣].

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوروبا الديني وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفي السائد، أما دعوة

---

(١) كتاب انحطاط روما وسقوطها، لجيون ص ٢٥٥- ٢٥٦.

(2) Hainc's Christanity of Islam in Spain p.116.

(٣) ضحى الإسلام: ١ / ١٦٤- ١٦٥.

(لوثر) الإصلاحية الكبيرة، فقد كانت- على علاتها- أبرز مظهر للتأثر بالإسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون.

وترى كذلك تأثيرا للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية في أخلاق الأمم واجتماعها وتشريعها في أوروبا النصرانية وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي[1] تراه وتلمسه في الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته.

يقول الباحث الهندي المعروف (K.M.Panikkar)سفير الهند في مصر سابقا، وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ودياناته:

«من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية كان عميقا في هذا العهد (الإسلامي)، إن فكرة عبادة الله في الهنادك مدينة للإسلام، إن قادة الفكر والدين في هذا العصر- وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى- قد دعوا إلى عبادة الله، وصرحوا بأن الإله واحد، وهو يستحق العبادة، ومنه تطلب النجاة والسعادة، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti) ودعوة (كبيرة)»[2].

ويقول رئيس وزراء الهند الأسبق جواهر لال نهرو في كتابه(Discovery of India) :

«إن دخول الغزاة الذين جاؤوا من شمال غرب الهند، ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ، وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها، أثرت في أذهان الهندوس تأثيرا عميقا، وكان أكثر خضوعا لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية».

ويقول كاتب عصري فاضل وهو (N.C.Mehta) في كتابه (الحضارة الهندية والإسلام) (Indian Civilization and Islam):

«إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلا من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت

(1) Doctor Tarachand: Influence of Islam on Indian Culture.
(2) A Survey of Indian History p.132.

تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي، وأصبحت الغايات الفاصلة معتقدات فكرية: لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة، شأنه في الأقطار الأخرى، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر (الهندي) مرتبطا بالحكومة، فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار».

ولا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدعي أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير.

يقول(Robert Briffault) في كتابه(The making of Humanitu):

«ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير» (١).

ويقول في موضع آخر:

«لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوروبا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا» (٢).

فلو جرت الأمور هكذا وتمتعت الأمم الإنسانية بقيادة الجماعة التي خلقت لقيادتها، وأعطيت القوس باريها، وجرت المياه في مجاريها، لكان للعالم الإنساني تاريخ غير التاريخ الذي نقرؤه.. حافلا بالزلازل والنكبات ناطقا بطول بلاء الإنسانية ومحنها، لكان له تاريخ مجيد جميل يغتبط به كل إنسان ويقر عينا؛ ولكن جرت الأقدار بغير ذلك، وبدأ الانحطاط في المسلمين أنفسهم.

---

(1) p.190.
(2) P.202.

الفصل الثاني

الانحطاط في الحياة الإسلامية

الحد الفاصل بين العصرين:

قال أحد الأدباء: «أمران لا يحدد لهما وقت بدقة: النوم في حياة الفرد، والانحطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا»، إنه لحق في قضية أكثر الأمم، ولكن بدأ التدلي والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين.

نظرة في أسباب نهضة الإسلام:

كان زمام القيادة الإسلامية- والعالمية بالواسطة- بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد ﷺ إيمانا وعقيدة وعملا وخلقا وتربية وتهذيبا وتزكية نفس وسمو سيرة، وكمالا واعتدلا، لقد صاغهم النبي ﷺصوغا، وصبهم في قالب الإسلام صبا، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في أجسام، لا في الميول والنزعات، ولا في الرغبات والأهواء، ولو دقق مدقق لما رأى في سيرتهم وأخلاقهم مأخذا جاهليا ينافي روح الإسلام والنفسية الإسلامية، ولو تمثل الإسلام بشرا لما زاد على أن يكون كأحدهم.

وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما، فكانوا أئمة يصلون بالناس، وقضاة يفصلون قضاياهم، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم، وأمنة لأموال المسلمين وخزنتهم، وقوادا يقودون الجيوش ويحسنون تدبير الحروب، وأمراء يباشرون إدارة البلاد، ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله، وكان الواحد منهم في آن واحد تقيا زاهدا، وبطلا مجاهدا، وقاضيا فهما، وفقيها مجتهدا، وأميرا حازما، وسياسيا محنكا.

فكان الدين والسياسة يتمثلان في شخص واحد، وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين؛ حوله جماعة ممن تخرجوا- إن صح التعبير- في هذه المدرسة، المدرسة النبوية، أو المسجد النبوي، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحا واحدة، وتلقوا تربية واحدة، يستشيرهم

الخليفة ويستعين بهم، فلا يقطع أمرا ذا بال حتى يشهدوه، فسرت روحهم في المدينة، ونظام الحكم، وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدنية وظهرت خصائصهم فيها، فلا عداء بين الروح والمادة، ولا صراع بين الدين والسياسة، ولا فصل بين الدين والدنيا، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ؛ ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق، ولا تناحر بين الطبقات ولا تنافس في الشهوات.

شـروط الزعامة الإسلامية :

إن الزعامة الإسلامية تقتضي صفات دقيقة، واسعة جدا، نستطيع أن نجمعها في كلمتين: (الجهاد) و(الاجتهاد)؛ فهاتان كلمتان خفيفتان بسيطتان، ولكنهما كلمتان جامعتان عامرتان بالمعاني الكثيرة.

الجهاد:

أما الجهاد فهو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب، وأكبر وطر للمسلم؛ طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه والاستسلام لأوامره، وذلك يحتاج إلى جهد طويل شاق ضد كل ما يزاحم ذلك من عقيدة وتربية، وأخلاق وأغراض وهوى، وكل ما ينافس في حكم الله وعبادته من آلهة في الأنفس والآفاق، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله وأوامره في العالم حوله، وعلى بني جنسه، فريضة من الله وشفقة على خلق الله، ولأن الطاعة الانفرادية قد تصعب وتمتنع أحيانا بغير ذلك، وذلك ما يسميه القرآن (الفتنة).

ومعلوم أن العالم كله بما فيه من جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان، خاضع لمشيئة الله وأحكامه التكوينية، وقوانينه الطبيعية: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [آل عمران: ٨٣]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]. فيتعين أن جهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التي جاء بها الأنبياء، وإعلاء كلمته ونفاذ أحكامه، فلا حكم إلا لله ولا أمر إلا له، وهذا الجهاد مستمر ماض إلى يوم القيامة، وله أنواع وأشكال لا يأتي عليها الحصر، منها القتال، وقد يكون أشرف أنواعه، وغايته ألا يبقى في الدنيا قوتان متساويتان متنافستان تتجاذبان الأهواء والأنفس ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الإنسان عارفا بالإسلام الذي يجاهد لأجله، وبالكفر والجاهلية التي يجاهد ضدها، يعرف الإسلام معرفة صحيحة، ويعرف الكفر والجاهلية معرفة دقيقة، فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الألوان، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية. ولا يجب على كل مسلم أن تكون معرفته دقيقة بالكفر والجاهلية ومظاهرهما وأشكالهما وألوانهما، ولكن على من يتزعم الإسلام ويتولى قيادة الجيش الإسلامي ضد الكفر والجاهلية أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم.

كذلك يجب أن يكون استعدادهم كاملا وقوتهم تامة، يقرعون الحديد بالحديد، بل بأقوى من الحديد، ويقابلون الريح بالإعصار، ويواجهون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه، وبكل ما امتدت إليه يدهم، وبكل ما اكتشفه الإنسان ووصل إليه العلم في ذلك العصر، من سلاح وجهاز واستعداد حربي، لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال: ٦٠].

الاجتهاد:

أما الاجتهاد فنريد به أن يكون من يرأس المسلمين قادرا على القضاء الصحيح في النوازل والحوادث التي تعرض في حياة المسلمين وفي العالم وفي الأمم التي يحكمها، وفي المسائل التي تفاجئ وتتجدد، والتي لا يستقصيها فقه مدون، ومذهب مأثور، وفتاوى مؤلفة، ويكون عنده من معرفة روح الإسلام وفهم أسرار الشريعة والاطلاع على أصول التشريع الإسلامي وقوة الاستنباط- انفرادا أو اجتماعا- ما يحل به هذه المشاكل ويرشد الأمة في الغمة.

ويكون عنده من الذكاء والنشاط والجد والعلم ما يستخدم به ما خلق الله في هذا الكون من قوى طبيعية، وما بث في الأرض وتحت الأرض من خيرات ومنابع ثروة وقوة، وأن يسخرها لمصلحة الإسلام بدل أن يستخدمها أهل الباطل لأهوائهم، ويتخذوها وسيلة للعلو في الأرض، ويسخرها الشيطان لتحقيق أغراضه والإفساد في الأرض.

انتقال الإمامة من جماعة إلى جماعة:

ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يعدوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية عميقة متينة كما تلقى

الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد في المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية. وهذا الحكم عام يشمل عددا كبيرا من خلفاء بني أمية وبني العباس.

تحريفات الحياة الإسلامية:

فظهر في ذلك ثلمات في ردم الإسلام لم تسد حتى الآن، ووقعت تحريفات في الحياة الإسلامية.

فصل الدين عن السياسة :

وقع فصل بين الدين والسياسة عمليا، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين، فاستبدوا بالحكم والسياسة، واستعانوا- إذا أرادوا واقتضت المصالح- بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين، واستخدموهم في مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شاؤوا، وعصوهم متى شاؤوا؛ فتحررت السياسة من رقابة الدين، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة، وأصبحت في كثير من الأحيان ملكا عضوضا، وأصبحت كجمل هائج حبله على غاربه.

وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه، وأغمض العين عما يقع ويجري حوله، يائسا من الإصلاح، ومنتقد يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ويسمع ولا يملك من الأمر شيئا، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية؛ ولكل ما نوى. . وحينئذ انفصل الدين والسياسة.

أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي، وأصبحت السياسة مطلقة اليد، حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهي، ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة، ورجال الدنيا طبقة متميزة، والشقة بينهما شاسعة، وفي بعض الأحيان بينهما عداء وتنافس.

النزعات الجاهلية في رجال الحكومة:

ولم يكن كثير من رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة في الدين والأخلاق، بل كان في عدد منهم عروق للجاهلية ونزعاتها، فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة والاجتماع، وأصبحوا أسوة للناس في أخلاقهم وعوائدهم وميولهم، وزالت رقابة الدين

والأخلاق وارتفعت الحسبة وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، لأنها لا تستند إلى قوة ولا تحميها حكومة، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب، والدواعي إلى خلافها متوافرة قوية، فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها، وأخلد عدد كبير من الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتارا.

ونظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هناك من رغبة جامحة إلى اللهو، وتهافت على الملاهي والملذات، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها في كثير من الطبقات. وبهذه السيرة، وبهذه الأخلاق المنحطة، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة تؤدي رسالة الإسلام، وأن تقوم في الدنيا مقام خلفاء الأنبياء؛ وتذكر بالله والآخرة وتحض علي التقوى والدين، وأن تكون أسوة للناس في أخلاقها، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمنا طويلا [1]: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢].

سوء تمثيلهم للإسلام:

وكان هؤلاء في كل ما يأتون ويذرون ممثلين لأنفسهم وسياستهم فقط. لا يمثلون الإسلام، ولا سياسته الشرعية، ولا قانونه الحربي، ولا نظامه المدني، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا في النادر. ففقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها في قلوب غير المسلمين، وضعفت ثقتهم به؛ وفي لفظ مؤرخ أوربي: «بدأ الإسلام بالانحطاط، لأن البشرية بدأت تشك في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة».

---

(١) ولكن يكون من المبالغة والخطأ، أن نعتقد أن المجتمع الإسلامي قد فقد كل ميزة روحية وخلقية، وتشريعية، وتجرد من جميع سماته الإسلامية، وملامحه التاريخية، وأنه قد أصبح كسائر المجتمعات البشرية المعاصرة، بل الحق أنه لم يزل محافظا على كثير من مزاياه وملامحه، وخصائصه، التي أورثها الإسلام، وأرسخها الخلفاء الراشدون، وحماها العلماء الربانيون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، الذين لم يخل عنهم مكان ولا زمان، وتوارثتها الأجيال المسلمة، بل كان أفضل من جميع المجتمعات المعاصرة، والمجاورة قاطبة، وأكثر الحدود لم تعطل، وأكثر الأحكام الإسلامية والتشريعات السماوية كانت نافذة مطبقة؛ وكان هذا المجتمع عرضة الانحراف، لا التحريف، بعكس من واقع المجتمعات الأخرى (كالمسيحية، أو المجوسية، أو الوثنية) التي أصبحت فريسة التحريف والمسخ والنسخ.

قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة :

إن العلماء المفكرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التي تلقوها من اليونان، وما هي إلا وثنيتهم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية، وأضفوا عليها لباسا من الفن، وما هي إلا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب وعملية تجزئة وتحليل في مسائل ذات الله وصفاته وما يتعلق بها أشبه بالتحليل الكيماوي، وبما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم.

ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة العظيمة، وظلوا قرونا طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث في غير جهاد، ويضيعون ذكاءهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تجدى نفعا ولا تأتي بنتيجة، وليس لها دعوة في الدنيا والآخرة، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الإسلام، ويسطون بها سيطرة الإسلام المادية والروحية على العالم كله.

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود، وبذلوا فيها قسطا كبيرا من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم.

أما ما وصل إليه المسلمون في العلوم الطبيعية والتجريبية، فإنه وإن كان أرقى من العصور السابقة وأكثر ثروة في العلم والاختبار، إلا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة في دوائر علمية أخرى، ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التي تمتعوا بها في التاريخ، ولم يظهر فيها من النوابغ والعبقريين مثل ما ظهر في موضوعات أخرى.

وإن ما خلفوه من كتب في الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية، وإن كانت مما استفادت به أوروبا في نهضتها وأقرت بقيمتها، إلا أنها تتضاءل جدا أمام هذه المكتبة الهائلة الزاخرة التي أنتجتها أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقط، فمهما افتخرنا بآثار علماء الأندلس وحكماء الشرق، فإنها لا تعد شيئا بجانب الإنتاج الغربي الضخم في العلم والحكمة والتجربة والاختبار، لا في الكمية ولا في الكيفية، ولا في الإبداع ولا في الابتكار، ولا في التدقيق العلمي ولا في الإتقان الفني.

وإذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الإسلامي بالناحية الروحية ونسبتها إلى

الناحية العلمية والتجريبية فقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي مثلا وبين أكبر كتاب في الطبيعيات والحكمة تر فرقا هائلا في ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد في سبيله، وبذلك تعرف ذوق الشرق الغالب عليه.

الضلالات والبدع :

وكاد يحجب توحيد الإسلام النقي حجب من الشرك والجهل والضلالة، وطرأت على النظام الديني بدع شغلت مكانا واسعا من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح، وعن الدنيا؛ وميزة المسلمين بين أمم الأرض وفضلهم إنما هو من هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ وميزة هذا الدين وإعجازه في صحته وحفظه، لأنه يمتاز بأنه وحي الله وشريعته ووضعه المعجز وشرعه الحكيم ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢]، فإذا عملت فيه عقول الناس، ودخلت فيه أعمال الناس وأهواؤهم لم يكن له على الأديان التي حرفها أهلها، والنظم التي نسجتها أيدي الناس إلا بمقدار ما فيه من الوحي المحفوظ والعلم المعصوم، ولم يكن ضامنا لسعادة الدنيا والآخرة، ولم يكن حقيقيا بأن تخضع له العقول وينجذب إليه الناس.

إنكار الدين على المسلمين وإهابته بهم:

ولا يغربن على البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حيا محفوظا من التحريف والتبديل، مهيبا بالمسلمين ناعيا عليهم انحرافهم عن طريقه، ولم يزل مناره عاليا وضوؤه مشرقا ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٦]. ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان في نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع، وعلى الجهالة والضلالة، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك.

ولم يزل ينهض بتأثيرهما في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي، وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجال يقومون في هذه الأمة على طريقة الأنبياء، يجددون لها أمر دينها، وينفخون فيها روح الجهاد، ويفتحون لها باب الاجتهاد، ويسعون لإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة، فمنهم من استشهد في هذه السبيل، ومنهم من استطاع أن يمثل دورا قصيرا يذكر بالخلافة الراشدة: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وهم مصداق

الحديث: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذالك»** [١]، فتاريخ الجهاد والتجديد في الإسلام متصل لا تقطعه فترة، ومشاعل الإصلاح متسلسلة بعضها من بعض لم تطفئها العواصف[٢].

محن بلاد العالم الإسلامي في القرن السادس:

في القرن السادس الهجري منّ الله على العالم الإسلامي- الذي بدت عليه أمارات الضعف والشيخوخة بعد السلاجقة وتوزعه ملوك وأمراء في الأنحاء- بقادة كبار حفظ الله بهم شرف الإسلام وعزته، وأعاد بهم الحياة في العالم الإسلامي المنهار، بدأت الغزوات الصليبية- التي كانت تهدف أولا إلى الاستيلاء على الأماكن المقدسة عند المسيحيين تتحدى الإسلام والمسلمين كلهم، وتهدد الجزيرة العربية ومهد الإسلام والدول المجاورة للشام، واستولى الصليبيون الأوروبيون فعلا على القدس وعلى عامة مدن الشام وقلاعه، وطمعوا في مدينة الرسول ﷺ، وكانوا أكبر خطر على الإسلام والمسلمين بعد فتنة الردة.

هنالك قيض الله للإسلام عماد الدين أتابك زنكي (م ٥٤١هـ) الذي قارع الصليبيين وهزمهم في معارك كثيرة، وفتح الرها، وقام بعده ولده العظيم الملك العادل نور الدين محمود زنكي (٥٦٩هـ)، وصمم على إجلاء الصليبيين من الشام واسترداد القدس للمسلمين، ومات رحمه الله قبل أن يكمل مهمته.

وخلفه في ذلك أحد رجاله ومرشحيه الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر، وهو الرجل الذي هيأه الله لهذه المهمة العظيمة، وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والإخلاص والتجرد للغاية، والحرص على الجهاد والتفاني في سبيله، وعلو الهمة في نصر الإسلام وقتال أهل الكفر والبغي، وحسن القيادة، وقوة التنظيم، والصلاح والديانة، والفتوة الفائقة، والإنسانية السامية، ومكارم الأخلاق، ما لا يجتمع إلا في أفذاذ الرجال في العالم، فكان بذلك معجزة من معجزات الإسلام، ودليلا على أن الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والإنتاج، وقد توحد العالم الإسلامي من بين نهر الفرات وبين النيل للمرة الأولى بعد مدة طويلة ليقاتل أوروبا التي تدفقت جيوشها واندفع ملوكها وأمراؤها وقوادها الكبار ليهاجموا العالم الإسلامي.

---

(١) رواه مسلم (كتاب الجهاد).

(٢) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف (رجال الفكر والدعوة إلى الإسلام).

وقد اجتمع تحت لواء صلاح الدين للجهاد أجناس كثيرة من المسلمين لم تجتمع قبل، والتهبت شعلة الجهاد والغيرة الإسلامية بعد مدة طويلة، واستخدم صلاح الدين للجهاد كل ما وصل إليه العالم الإسلامي من العلم والاختراع وصناعة الحرب يومئذ، واستخدم هو كل ما أوتي من الذكاء والصبر والتفكير، وهزم الصليبيين في حطين عام (٥٨٣هـ) هزيمة منكرة وكسر شوكتهم، وفتح القدس في نفس العام، واستولى على فلسطين كلها، وانحصر الصليبيون في (صور) فقط، وألقت أوروبا أفلاذ أكبادها، وجاءت بحدها وحديدها، واجتمعت جيوشها الكثيفة تحت قيادة القائد الكبير رتشارد Richard ملك إنكلترا، وكانت الحرب بين الصليبيين والمسلمين سجالا حتى وقعت الهدنة سنة (٥٨٨هـ، ٢ سبتمبر ١١٩٢م)، وجلا معظم الغزاة الصليبيين عن فلسطين، ورجع رتشارد إلى ملكه، وبعد ذلك بسنة استأثر الله بصلاح الدين.

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما علق المؤرخ الإنكليزي (Stanley lane poole) على هذه الهدنة في كتابه عن صلاح الدين، وبه نستطيع أن نعرف قوة العالم الإسلامي ووحدته تحت قيادة صلاح الدين:

«انتهت الحرب المقدسة التي استمرت خمسة أعوام، لقد كان المسلمون قبل انتصارهم في معركة حطين في يوليه سنة ١١٨٧م لا يملكون قيراطا من الأرض غربي نهر الأردن، أما في سبتمبر سنة ١١٩٢م لما وقع الصلح في الرملة ملكوا البلاد كلها إلا سلسلة تمتد من صور إلى يافا، كان المسيحيون لا يزالون يملكونها، ولم تكن هذه الهدنة مما يخجل لها صلاح الدين ويتأسف، لقد بقي معظم ما فتحه الصليبيون في حوزة الإفرنج، ولكن كانت النتيجة تافهة جدا بالنسبة إلى خسائر الأموال والنفوس، فقد زحفت أوروبا كلها إلى الأرض المقدسة، لما استنفرها البابا للغزو الصليبي، وبذل القيصر فريدريك وملوك إنكلترا وفرنسا وصقلية وليوبولد النمساوي والدوق البرجندي والكونست الفلاندري ومئات من النبلاء المشاهير وأمراء الشعوب المسيحية وملك حكومة القدس المسيحية وملوك الحكومات النصرانية في فلسطين، وفرسان طبقة الداوية، وطبقة الأسبتار وأبطالها، لقد بذل هؤلاء كلهم كل ما في وسعهم للاستيلاء على القدس ولتزدهر الحكومة المسيحية التي كان مركزها القدس، والتي أشرفت على الانقراض.

ولكن ماذا كان مصير هذه الجهود كلها، مات القيصر فريدريك في هذه المدة ورجع ملوك إنكلترا وفرنسا إلى بلادهم، ودفن كثير من زملائهم الأمراء والنبلاء في أرض إيليا،

وبقي القدس في حوزة صلاح الدين كما كان، ولم يكن من حظ المسيحيين إلا إمارة عكا الصغيرة على الساحل.

لقد وقف العالم المسيحي وقفة رجل واحد إزاء المسلمين، ولكنه لم يستطع أن يزحزح صلاح الدين عن مكانه، كان جيش صلاح الدين قد أعياه الجهاد الطويل والمتاعب العظيمة، وقد ظل أعواما طوالا مرابطا مناضلا مكافحا عدوا قويا جدا، ولكن لم يسمع من جندي واحد أنين أو شكاة، إنهم لم يتأخروا يوما في الحضور ولم يضنوا قط بالنفائس والنفوس كلما دعاهم صلاح الدين إلى الجهاد وكلما استنفرهم للقتال، وربما شكا أحد الأمراء التابعين له في بعض أودية دجلة البعيدة من هذه النجدة التي لا تكاد تنتهي، ولكنهم قدموا بعوثهم وحضروا لنصرة السلطان كلما طلبوا.

وقد قاتل الجيش الموصلي بكل بطولة وحماسة في حرب (أرسوف) الأخيرة، وكان السلطان واثقا بأنه سيأتيه المدد من جيوش مصر والعراق وكذلك من جيوش الشام الشمالي والمركزي. وكان التركمان والعرب والمصريون مسلمين وخدمة أوفياء للسلطان، وحضروا كالعبيد كلما طلبهم السلطان، وقد مزج السلطان هذه العناصر المختلفة مزجا غريبا وألف بينهم رغم ما فيهم من اختلاف في الجنس والقومية، وما بين أفرادها من خلافات داخلية ومنافسات قبلية، فكانوا كالجسد الواحد.

وقد عانى السلطان بعض الصعوبة في توحيد هذه الأجناس، وقد ظهرت في بعض المناسبات بوادر الخلاف، فقد تمرد الجيش في يافا مرة، ولكن رغم ذلك كله بقيت الأمم المختلفة الأجناس إلى خريف سنة ١١٩٢م خاضعة لأمر السلطان، وظلت تجاهد في سبيل الله من سنة ١١٨٧م العام الذي طلبها فيه صلاح الدين للجهاد؛ وفي خلال هذه المدة الطويلة لم يسجل التاريخ حادثة عصت فيها مقاطعة أو ثارت فيها دولة تابعة أو رئيس من الرؤساء، وكانت الآمال الكبيرة التي عقدت بنصيحتهم ومثابرتهم تعيي الراسخين في الوفاء والجن الأقوياء.

إنما علمنا قريبا من أقربائه في العراق ثار عليه، ولكن السلطان من عليه بالعفو. وهدأ الرجل، وبذلك يعلم ما كان للسلطان من نفوذ غريب في دولته ورعيته، وانتهت الحرب التي استمرت خمسة أعوام، وانتهت محنها ومتاعبها، والسلطان هو الملك الوحيد من جبال الكرد إلى صحراء النوبة، وكان ملك بلاد الكرد وملك أرمينيا وسلطان قونية وقيصر

قسطنطينية وراء هذه الحدود يحرصون على صداقة صلاح الدين ومساعدته، وما قبل صلاح الدين أن يكون عليه منة لأحد من هؤلاء ولم يحضروا قط لنجدته إنما حضروا لتهنئته.

وكان صلاح الدين بطل هذه المعركة ومركز هذه الدائرة، وكان أخوه العادل هو الشخصية الثانية التي ظهرت على مسرح القتال، ولا نعرف أحدا من القواد والأمراء استولى عليه، وكان عنده مجلس حربي يستشيره في أمور الحرب، وقد وقع نادرا أن غلب رأي هذا المجلس الخاطئ على رأي السلطان الصحيح، كما كان أمام صور وعكا، ولكن لم يكن أحد من أعضاء هذا المجلس مستأثرا به دون غيره.

لقد كان الإخوة وأبناء الإخوان والزملاء القدماء، والولاة الجدد، والعقلاء، والقضاة الأذكياء، والمعتمدون الأوفياء، والمتعصبون، والوعاظ، والعلماء؛ كلهم متفقين على الجهاد، وقاتلوا تحت لوائه جنبا إلى جنب، وخدموه بكل ما عندهم من قوة وكفاية ونصيحة، وكان كل يعلم أن صلاح الدين سيد الجميع وأميرهم، وكان قلب واحد وإرادة واحدة تسيطر عليهم في أزمات مختلفة وساعات عصيبة وحروب طاحنة، هو قلب صلاح الدين القوي وإرادته الحديدية». اهـ.

فقر القيادة في العالم الإسلامي بعد صلاح الدين:

مات صلاح الدين بعدما قضى مهمته إلى حد بعيد، وانجلى الخطر القريب العاجل الذي كان يهدد كيان الإسلام ومركزه، وتراجع سيل الصليبيين وقد تعلموا دروسا مفيدة، ودرسوا جوانب الضعف والقوة في كلتا الجبهتين، رجعوا ليستعدوا للصليبية الجديدة في القرن التاسع عشر المسيحي، وعاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى من انقسام وتنافس، وتطاحن وغفلة، ولم يرزق العالم الإسلامي بعد ذلك قائدا مخلصا للإسلام، مؤثرا لمصلحته على هواه، متجردا للجهاد، محببا تجتمع حوله القلوب مثل صلاح الدين الذي استطاع بحول الله وقوته وبمواهبه العظيمة أن يدحر أوروبا كلها، ويحفظ للإسلام ملكه وشرفه، وعم الانحطاط في العالم الإسلامي واستفحل مع الأيام.

نتاج القرون المنحلة:

وظلت خلية الإسلام تعسل في أدوار الانحطاط أيضا، وظهر من الملوك والفاتحين أفراد هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح في سيرتهم وأخلاقهم، في دينهم وتقواهم،

وينهض في العالم الإسلامي رجال يتجمل التاريخ بذكرهم.

وكان المسلمون- رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالي- أقرب إلى طريق الأنبياء، وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية في انتشارها وازدهارها، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة في العالم تهابها الدول، وتحسب لها كل حساب.

انهيار صرح القوة الإسلامية:

ولم تزل تضعف هذه القوة وتهن بدون أن يشعر بذلك الأجانب، حتى إذا خضدت شوكة المسلمين في القرن السابع الهجري، لما مزق التتار حكومة خوارزم شاه- الإمبراطورية الإسلامية الأخيرة- وسقطت بغداد في أيديهم.. زال ذلك الشبح المخيف وسقط المجدار[1]، فعاثت الطيور والوحش في الحقل، وتجاسر الناس على المسلمين وبلادهم.

وورث التتار والمغول تراث المسلمين وخلفوهم في الحكومة، وناهيك به بؤسا وشقاء للإنسانية وخرابا للعالم أن تتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية، ليس عندها دين ولا علم، ولا ثقافة ولا حضارة!!.

---

(١) المجدار: ما ينصب في الزرع لطرد الطير والوحش.

الفصل الثالث :

دور القيادة العثمانية

العثمانيون على مسرح التاريخ:

في ذلك الحين ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ، وفتح محمد الثاني بن مراد، وهو ابن أربع وعشرين سنة القسطنطينية العظمى عاصمة الدولة البيزنطية المنيعة سنة (٨٥٣هـ/ ١٤٥٣م)، فتجدد رجاء الإسلام، وانبعث الأمل في نفوس المسلمين، وكان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعا للثقة في قيادة الأمم الإسلامية وفي استرداد قوة المسلمين ومكانتهم في العالم وكان فتحهم للقسطنطينية التي استعصت على المسلمين ثمانية قرون[1]- دليلا على كفاءتهم وقوتهم، وبلوغهم درجة الاجتهاد في صناعة الحرب، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة في آلات الحرب، واستخدامهم لهمتهم قوة العلم والعمل، وكل ذلك ما لا غنى للأمة عنه.

تفوق محمد الفاتح في فن الحرب:

وقد كان محمد الفاتح- كما يقول درابر- يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربي، وكان قد أعد لهذا الفتح عدته، واستفاد من كل ما في عصره من معدات حربية.

لقي زائر بندقي وهو (GIACOME DE LANGUSCHI) أو لانغاستون(LANGASTON) السلطان محمد الفاتح حوالي الوقت الذي فتحت فيه قسطنطينية؛ ووصفه هكذا:

« شاب في ٢٦ سنة من العمر[2] (وبعد ما ذكر حليته وأخلاقه اللائقة بالنوابغ، وثقافته الواسعة) ذكر أنه: يبحث بكل دقة عن المعلومات عن أوضاع إيطاليا، وكرسي

---

(١) غزا الأسطول العربي القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطأة سنة ٤٤ للهجرة وفق سنة ٦٦٤ مسيحية، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية سنة ٥٢ هجرية وفق سنة ٦٧٢مسيحية، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك، ولم يفتحوها لمنعتها.

(٢) الحقيقة أن عمره حينذاك لم يكن يتجاوز ٢٤ سنة (المترجم).

(عاصمة) البابا، والإمبراطور، وكم ممالك هنا في أوروبا، وعنده خريطة لها، وتظهر عليها دولها وأقاليمها، لا يعجب ولا يبتهج بأي شيء كإعجابه وابتهاجه بدراسة أوضاع العالم وعلم الحرب، باحث فطن للأمور. يلتهب رغبة في الحكم، هذا هو الرجل الذي علينا معشر المسيحيين أن نواجهه، إنه شديد المراقبة والحذر، قادر على تحمل المشقة والبرد، والحرارة والعطش والجوع... ويقول: إن الزمن تغير الآن، إذ يسير من الشرق إلى الغرب كما سار الغربيون (فيما سلف) إلى الشرق، ويقول: إن إمبراطورية العالم يجب أن تكون واحدة، دين واحد ودولة واحدة، ولتحقيق هذه الوحدة ليس هناك في العالم مكان أليق من القسطنطينية»[1].

قال البارون (كارادوفو) (Baron Carra de vaux) في كتابه (مفكرو الإسلام) في الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح:

«إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقا، ولا تيسيرا لمجرد ضعف دولة بيزنطة، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ، وانتدب مهندسا مجريا ركب مدفعا كان وزن الكرة التي يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام، وكان مدى مرماه أكثر من ميل، وقيل: إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه. ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل، ومعه مدفعية هائلة، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية، وهو الذي- من قريحته- تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج، وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم (٧٠) سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا»[2].

مزايا الشعب التركي:

وقد تفرد الشعب التركي المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذ، واستحق بها زعامة المسلمين:

---

(١) العبارة مقتبسة من كتاب (إستنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية) ص ٣٦-٣٧، تأليف الأستاذ (برناردلويس) وتعريب الأستاذ رضوان علي الندوي.

(٢) من حواشي الأمير شكيب أرسلان علي (حاضر العالم الإسلامي): ١ / ٢٢٠، الطبعة الثانية.

أولا- أنه كان شعبا ناهضا متحمسا طموحا فيه روح الجهاد، وكان سليما- بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة في الحياة- من الأدوار الخلقية والاجتماعية التي أصابت الأمم الإسلامية في الشرق في مقتلها.

ثانيا- أنه كان متوافرا لديه القوة الحربية التي يقدر بها على بسط سيطرة الإسلام المادية والروحية، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها، ويتبوأ بها قيادة العالم؛ فقد بادر العثمانيون في صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية، وخصوصا النارية منها، واهتموا بالمدافع، وأخذوا بالحديث الأحدث من آلات الحرب، عنوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها، حتى صاروا في صناعة الحرب أئمة بغير نزاع، والمثل الكامل والقدوة لأوروبا.

وكانوا يحكمون في ثلاث قارات: أوروبا، وآسيا، وإفريقيا؛ ملكوا الشرق الإسلامي من فارس حتى مراكش، ودوخوا آسيا الصغرى وتوغلوا في أوروبا، حتي بلغو أسوار (فينا)، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع... قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبي حوله؛ وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالي أن السلطان يعتبر أن البحر الأسود كداره الخاصة، فلا يباح دخوله لأجنبي، وأنشؤوا أسطولا عظيما لا قبل لأوروبا به، حتى اجتمعت لسحقه كل من إمارات البابا والبندقية وإسبانيا والبرتغال ومالطا عام ٩٤٥هـ ١٥٤٧م، ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئا.

قد جمعت الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني الكبير بين السيادتين البرية والبحرية، وبين السلطتين السياسية والروحية.

بلغت حدود الدولة العثمانية في عهد سليمان الطونة والصاوة (النهرية) في الشمال، ونبع النيل والمحيط الهندي في الجنوب، وسلسلة جبال القفقاس في الشرق، وجبال أطلس في الغرب، وهي مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع.

وكان الأسطول العثماني مؤلفا مما يزيد على ٢٠٠٠ مركب حربي، وكان القسم الشرقي من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمرا وأزاق والأسود والأحمر وفارس في حوزته وتحت سيطرته.

يقول الأستاذ برنارد لويس المؤرخ المختص في تاريخ تركيا في كتابه (إستنبول):

«ويعتبر بحق حكم سليمان (١٥٢٠- ١٥٦٦م) المعروف عند الأتراك بـ(القانوني) وعند الأوروبيين بـ(الذروة في قوة العثمانيين ومجدهم)...».

«وامتدت رقعة الإمبراطورية في أوروبا بعد انتصارات جديدة، كما تأسست القوة البحرية العثمانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط بعد الاستيلاء على جزيرة رودس (RHODES) في ١٥٢٢م، وفتح وإخضاع بلغراد في ١٥٢١م، والانتصار العظيم في معركة موهاكس (MOHACS) الطريق لفتح المجر، والصراع المرير المتواصل مع آل هبسبرج (HAPSBURGS) للسيادة على أوربا الوسطى»(١).

«وفي سنة ١٥٢٩م حاصر جيش عثماني مدينة فيينا، وفي سنة ١٥٣٧م حاولت قوة عثمانية صغيرة طرد البرتغاليين عن بحر الهند، وفي سنة ١٥٥٣م قاد السلطان سليمان جيشا إلى إيران، وفي ١٥٥٥م حاول أسطول عثماني الاستيلاء على مالطا، ولم يدرك أحد لزمن طويل أن كل هذه الإنجازات كانت أعلى مد للتيار العثماني» (٢).

«ورافق توسع الإمبراطورية العثمانية وقوتها العسكرية اقتصاد متين وإدارة دقيقة وثقافة غنية رفيعة»(٣).

«وظلت الإمبراطورية العثمانية بعد وفاة سليمان بأكثر من قرن قوة جبارة، وكانت قادرة في سنة ١٦٨٣م أن تقوم بالحملة الثانية العظيمة على فيينا»(٤).

«وفي رسالة قدمها كوجوبيك إلى السلطان مراد الرابع في ١٦٣٠م يدعى الكاتب أنه منذ عهود خلفاء الإسلام الأوائل لم تكن هناك أية سلالة من الحكام أكثر ولاء وإخلاصا للإسلام من السلاطين العثمانيين، ولا أبدت أية منها احترام مبادئ الشريعة الإسلامية وعلمائها كما أبدى هؤلاء السلاطين، وليست في هذه الدعوة أية مبالغة، فالاعتبار الديني العميق (لمبادئ الشريعة وعلمائها) عند السلالات التركية والمشاهد عند السلاجقة العظام فيما قبل قد استمر وازداد في حكم العثمانيين، وسبق السلاطين العثمانيون جميع أسلافهم في جعل الشريعة القانون الفعلي للبلاد، ويبدي سلوك أحسنهم شعورا عميقا بالواجب نحو أمانة دينية مقدسة» (٥).

---

(١) كتاب (إستنبول)، ص ٤١، ٤٢ .

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣، ٤٤ .

(٣) كتاب (إستنبول)، ص ٤٣، ٤٤ .

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق، ص ٥٠، ٥١ .

ودخلت كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومة في ضمن حدود الدولة العثمانية(١)، وكانت أوروبا كلها ترتعد منهم فرقا، ويدخل ملوكها الكبار في ذمة ملوكهم، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراما للترك إذا نزلوا بها، وأمر البابا أن يحتفل بعيد، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعي محمد الفاتح.

ثالثا- كانوا في أحسن مركز للقيادة العالمية، كانوا في شبه جزيرة البلقان، بحيث يشرفون منها على آسيا وأوروبا، وكانت عاصمتهم واقعة بين البحرين: الأسود والأبيض، وواصلة بين البرين: آسيا وأوروبا، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوروبا وأفريقيا، حتى قال نابليون: «لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

وكانت أوروبا لها الخطر الكبير والشأن العظيم في المستقبل القريب، تزخر فيها القوى الحيوية، وتجيش في صدورها عوامل الرقي، فكان في استطاعة الترك- لو وفق الله- أن يتقدموا في ميدان العلم والعقل، ويسبقوا أمم أوروبا النصرانية، ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوروبا زمام العالم وتقوده إلى النار والدمار.

انحطاط الأتراك في الأخلاق، وجمودهم في العلم وصناعة الحرب:

ولكن من سوء حظ المسلمين- فضلا عن سوء حظ الأتراك- أخذ الترك في الانحطاط والتدني، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء، واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم، وخيانة الأمراء وغشهم للأمة، وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة، إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين في كتب التاريخ التركي، وليس هذا موضع تفصيله، وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم في صناعة الحرب وتنظيم الجيوش، وقد نسوا قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقول النبي ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها**»، وكان خليقا بهم - لحرج مركزهم السياسي والجغرافي، وقد أحاطت بهم الدول الأوروبية إحاطة السوار بالمعصم- أن يجعلوا وصية القائد الإسلامي الكبير عمرو بن العاص ﷺ للمسلمين في مصر نصب أعينهم: «واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم

(١) فلسفة التاريخ العثماني، لمحمد جميل بيهم، ص ٢٨٠، ٢٨١.

إليكم وإلى داركم». ولكن الترك وقفوا، وتقدم الزمان، وتخلفوا وسبقت الأمم الأوروبية.

الجمود العلمي في تركيا :

وقد وصفت الفاضلة خالدة أديب هانم هذا الجمود العلمي في تركيا وصفا يحسن بنا أن ننقله هنا، قالت:

«ما دامت فلسفة المتكلمين تهيمن على الدنيا ظل علماء الإسلام في تركيا يقومون بواجبهم ويحسنون القيام به، وكانت المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح مركزين للعلوم والفنون السائدة في ذلك الزمان، لكن لما نشط الغرب من عقال الفلسفة الإلهية والمباحث الدينية الكلامية ووضع أساس العلم الحديث والحكمة الجديدة، فأحدث انقلابا في العالم لم تعد جماعة العلماء تقدر على الاضطلاع بأعباء التعليم والقيام بواجبات المعلمين. كان يعتقد هؤلاء أن العلم لا يزال حيث كان في القرن الثالث عشر المسيحي لم يتجاوز ذلك المقام ولم يتقدم، ولم تزل هذه الفكرة الخاطئة سائدة على نظامهم التعليمي إلى القرن التاسع عشر المسيحي».

إن فكرة علماء تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى هذه ليست من الدين في شيء، إن الفلسفة الإلهية أو علم الكلام الذي كان عند المسلمين أو النصارى، إنما كان مبنيا على فلسفة الإغريق، وكان الغلبة فيه لأفكار أرسطاطاليس الذي كان فيلسوفا وثنيا، ويجدر بي في هذا المقام أن أقارن بإجمال بين عقلية العلماء المسيحيين والمسلمين.

لم يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لمسألة خلق العالم الطبيعي، والقسط الأوفى في تعليمه والأهمية الكبرى، للحياة الخلقية والاجتماعية، ومقصوده الأكبر فصل ما بين الحسن والقبيح، والخير والشر، وإنه جاء بشريعة للعالم، وكلما ذكر مسألة من مسائل ما بعد الطبيعة أو المعارف الروحية قلما نرى فيها تعقيدا أو إشكالا، إن أساس تعليمه التوحيد، فكان الإسلام دينا سمحا بسيطا، وهو أفسح صدرا للنظريات الجديدة على العالم الطبيعي من الأديان الأخرى بكثير، ولكن هذا التسامح وهذه البساطة التي كانت تساعد في التحقيق العلمي الجديد لم تطل مدتها في حياة المسلمين. قيد العلماء والمتكلمون في القرن التاسع الهجري الإلهيات- فضلا عن الفقه- بسلاسل وقيود، وأوصدوا باب التحقيق والاجتهاد، في ذلك الوقت تغلغلت أفكار أرسطاطاليس في الفلسفة الإسلامية.

بالعكس من ذلك الدين المسيحي- الذي هو أولى بأن يسمى دين الراهب بولس- فإن

(سفر بدء التكوين) يحتوي على تفصيل للعالم الطبيعي، وإذا آمن النصارى بأنه كلام الله كان الواجب عليهم أن يقرروا صدقه، ولما كانت المشاهدة لا تؤيدهم في هذا التأويل لجؤوا إلى الاستدلال وتمسكوا بأهداب أرسطاطاليس، لأن منطقه يعمل عمل السحر.

لما بدأ الغرب في دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة أسقط في أيدي رجال الكنيسة، ولما وصل العلماء بطرق علمية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم، وذهب كبار علماء الطبيعة- الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحققهم- ضحية علمهم.

واضطرت الكنيسة النصرانية بعد المعارك الدموية بين الدين والعلم أن تواجه الواقع، فأدخلت علوم الطبيعة في برنامج مدارسها وكلياتها، وأصبحت جامعاتها التي لم تكن تختلف بالأمس عن مدارس المسلمين، مركزا للعلوم الطبيعية والعلوم الحديثة، ولم تهجر مع هذا فلسفتها، وكان نتيجة ذلك أن ظل للكنيسة سلطان على فريق من الطبقة المثقفة، وكان للقسس الكاثوليك والبروتستانت مشاركة في العلوم الحديثة، وكانوا يقدرون على أن يباحثوا الناشئة في كل موضوع.

وكان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة، بل منعوا الأفكار الجديدة عن تدخل في منطقتهم، وإذا كانوا متصرفين بزمام تعليم الأمة الإسلامية، ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي، وكانت مشاغلهم السياسية قد طغت في دور الانحطاط، وكانت لا تسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس، ويبنوا علمهم على الاستدلال، فلم تزل المدارس الإسلامية في القرن التاسع عشر المسيحي، كما كانت في القرن الثالث عشر المسيحي» [(١)].

الانحطاط الفكري والعلمي العام:

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصابا بالجدب العلمي،

---

(١) (صراع الشرق والغرب في تركيا)، محاضرات في الإنكليزية لخالدة أديب ألقتها في الجامعة الملية الإسلامية، الخطبة الثانية (انحطاط العثمانيين)، ص ٤٠-٤٣:

Conflict of East and Wast in Turkey By Khalida Edib P.40-43.

وشبه شلل فكري، قد أخذه الإعياء والفتور، واستولى عليه النعاس، ولعل القرن التاسع- إذا لم نقل القرن الثامن- آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار في الدين والعلم، والأدب والشعر والحكمة، والقرن العاشر أول قرون الخمود والتقليد والمحاكاة.

وترى هذا الخمود عاما شاملا للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري، أو النابغة أو المحقق على الأقل، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر، أو زاد في العلم زيادة حسنة، إذا استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي، كالشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م١٠٢٤هـ) صاحب الرسالة الخالدة في الشريعة والمعارف الإلهية، والشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦هـ) صاحب (حجة الله البالغة) و(إزالة الخفاء) و(الفوز الكبير) و(رسالة الإنصاف)، وابنه الشيخ رفيع الدين (م ١٢٣٣هـ) صاحب (تكميل الأذهان) و(أسرار المحبة)، والشيخ إسماعيل بن عبد العني بن ولي الله الدهلوي (م ١٢٤٦هـ) صاحب (منصب الإمام) و(العقبات والصراط المستقيم)[(١)] .

ولا نقرأ في شعر هذه العصور الأخيرة- على كثرة ما نظم وقيل فيها- شعرا مطبوعا يعلق بالذهن، أو إنشاء مترسلا ينشرح له الصدر، ترى أدبا فاترا باردا قد أفسده التأنق في الحلية اللفظية والمبالغة والتهويل في الألفاظ والمعاني، وكثرة التملق في المدح والغزل بالمذكر في الشعر، والتكلف حتى في الرسائل الإخوانية والأغراض الطبيعية، والسجع البارد حتى في كتب التاريخ والتراجم.

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين، وغصت بالحواشي والتقريرات والتلخيصات والمتون التي ضن فيها مؤلفوها على القرطاس، وتعمدوا التعقيد والغموض، وكأنهم ألفوها في صناعة الاختزال، وكل ذلك ينبئ عن الانحطاط الفكري والعلمي الذي حل بالعالم الإسلامي وتغلغل في أحشائه.

معاصرو العثمانيين في الشرق :

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان في الشرق، إحداهما الدولة المغولية التي أسسها بابر التيموري (سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٤٦م) وكان معاصرا للسلطان سليم الأول، وتوالي

---

(١) انظر تراجمهم في كتاب (نزهة الخواطر) للعلامة عبد الحي الحسني، المجلد الخامس والسادس والسابع.

على عرشها ملوك من أعظم ملوك المسلمين شوكة وأبهة وقوة حربية واتساع مملكة، وكان أعظمهم أورنك زيب، وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء، وأوسعهم مملكة وأعظمهم فتوحا وأمتنهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة، وقد عاش أكثر من تسعين سنة، وحكم خمسين سنة، وتوفي ١١١٨هـ، أي في فجر القرن الثامن عشر المسيحي، وهو عصر مهم جدا في تاريخ أوروبا، ولكنه لم يكن هو ولا سلفه على شيء من الاتصال بما كان يجري في أوروبا وما تتمخض به من حوادث جسام، وما يفور في صدرها من عوامل الرقي والنهضة، وكانوا ينظرون إلى من يغشاهم من تجار أوروبا وأطبائها أو سفراء دولها- على قلة ورودهم هذه البلاد النائية- نظر الاستخفاف والاحتقار.

وكانت تصاقب دولتهم في أفغانستان الدولة الصفوية، وكانت راقية متحضرة، ولكنها شغلت بنزعتها الشيعية، وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها مرة أخرى.

وانحصرت هاتان الدولتان في قطرهما، وكانتا بمعزل عما يقع في الشرق الأدنى فضلا عن الغرب، وفي البلاد الإسلامية فضلا عن البلاد الأجنبية، أما التحالف والتكتل فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال، وذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية والحكومات الشخصية، ووصى بها الآباء الأبناء، وكذلك دراسة أحوال أوروبا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد إنسان في ذلك العصر.

نهضة أوروبا الجاهلية وسيرها الحثيث في علوم الطبيعة والصناعات:

وكان القرن السادس عشر والسابع عشر المسيحي من أهم أدوار التاريخ الإنساني الذي له ما بعده، قد استيقظت فيه أوروبا من هجعتها الطويلة، وهبت من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل، وتعدو إلى غايتها عدوا، بل تطير إليها بكل جناح، تسخر قوي الطبيعة وتفضح أسرار الكون، وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة، وتفتح فتوحا جديدة في كل علم وفن وفي كل ناحية من نواحي الحياة.

ونبغ في هذه المدة القصيرة رجال ومبتكرون في كل علم وعبقريون أمثال:

كوبرنيكوس (Copernicus) وبرونو(Brunoe) وغاليليو (Galilio) وكبلر (Kepler) ونيوتن(Newton)، وغيرهم الذين نسخوا النظام القديم، وأسسوا نظاما حديثا واكتشفوا عوالم في العلم، ومن الرحالين المكتشفين أمثال كلمبس(Columbus) وفاسكودي غاما(Vasco Degama) وماجلان(Maglin).

كان تاريخ الأمم في هذا الدور في صياغة وسبك، وكانت نجوم الأمم والشعوب بعضها في أفول وبعضها في طلوع، يصير الآفل منها طالعا والطالع آفلا، وكانت ساعة في ذلك الزمان تساوي يوما بل أياما، ويوم يساوي عاما بل أعواما، فمن ضيع ساعة فقد ضيع زمنا.

تخلف المسلمين في مرافق الحياة:

ولكن المسلمين لم يضيعوا ساعات وأيام، بل ضيعوا أحقابا وأجيالا، انتهزت فيها الشعوب الأوروبية كل دقيقة وثانية، وسارت سيرا حثيثا في كل ميدان من ميادين الحياة، وقطعت في أعوام مسافة قرون.

ومما ينبئ عن مقدار خمول تركيا في ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل تركيا إلا في القرن السادس عشر المسيحي، ولم تدخل المطابع في العاصمة والمحاجر الصحية في هذه الدولة إلا في القرن الثامن عشر، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوروبي. وفي آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات، حتى لما شاهدوا بالونا يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء. قد سبقتها دول أوروبا الصغيرة في الأخذ بأسباب المدنية والرفاء العام، وحتى سبقتها مصر في اتخاذ السكك الحديدية واستعمال القطارات بأربعة أعوام، وفي استعمال طوابع البريد ببضعة أشهر.

تخلفهم في صناعة الحرب:

ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب، بل كان هذا الانحطاط عاما شاملا، حتى تخلفوا عن أوروبا في صناعة الحرب التي كان التركي في الزمن الأخير ابن بجدتها وأبا عذرتها، قد أقر بفضلهم وتبريزهم فيها العالم، ولكن سبقتهم أوروبا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها الجيوش العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤م) وظهر سبقها في ميدان القتال أيضا، فانتبهت الدولة العثمانية بعض الانتباه، وانتدبت الماهرين الأوروبيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر.

وعنى السلطان سليم الثالث في فجر القرن التاسع عشر بالإصلاح، وكان عصاميا قد نشأ وتعلم خارج البلاط- خلافا لسابقيه- وأنشأ مدارس جديدة، وكان يعلم بنفسه في مدارس الهندسة، وألف جيشا على الطراز الحديث، وأدخل تعديلات وتحسينات في النظام

السياسي، وقد بلغ الشعب حدا كبيرا من الجمود والمحافظة على القديم في كل شيء حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله، وخلفه محمود الثاني الذي حكم من سنة ١٨٠٧م إلى سنة ١٨٣٩م، ومن بعده عبد المجيد الأول (١٨٣٩م-١٨٥١م) فخلفا سليم الثالث في مهمته، وتقدمت تركيا بعض التقدم.

قارن هذا الشوط الذي قطعته تركيا الإسلامية في ميدان الرقي والتقدم، بالأشواط التي قطعتها أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر تجد الفرق هائلا، فلم يكن جريهما في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب، إلا أن الأرنب ساهر دائب في عمله، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفي إغفاءة.

الفراغ الذي تركته الإمبراطورية العثمانية:

ورغم هذه العلل التي وصفنا بها الدولة العثمانية تسجيلا للواقع، وأمانة للتاريخ، لا شك أنها كانت- على علاتها الأخيرة- حصنا منيعا للإسلام وسورا قويا واسعا للأقطار العربية الإسلامية، الواقعة في الشرق الأوسط بما فيها الحجاز وفلسطين، ويمنع من تدخل القوى الأجنبية الغربية في هذه البلاد، وعبثها بها عبث اللاعب بكرة القدم، واعتدائها على مقدساتها.

وقد بقي الوضع على ذلك إلى عهد السلطان عبد الحميد خان، رغم ما قيل عنه وأشيع، فقد أخفقت كل محاولة مسيحية، وكل مؤامرة يهودية ضد المقدسات الإسلامية في عهده، حتى نشبت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، واستطاع الحلفاء أن يضموا العرب إلى معسكرهم، ويثيروهم على الأتراك، ونشأت فكرة القومية العربية، وانفصلت الأقطار العربية عن الإمبراطورية العثمانية، وأصبحت دولا وإمارات كبيرة وصغيرة، وعاشت تحت الانتداب مدة طويلة، ثم استقلت.. لم تبق يد قوية تحميها، ولا سطوة عالمية تخشى وترهب.

وقامت (إسرائيل) في حضانة القوى الأوروبية الكبرى وحمايتها في قلب العالم العربي، واستطاعت أخيرا (في حزيران (١٩٦٧م) أن تستولي على الضفة الغربية، وشبه جزيرة سيناء، وأن تمتلك القدس الشريف لأول مرة في التاريخ، والعالم العربي لا يملك

دفـعا ولا منعـا، ويردد المثل العربي الـقديم (إنما أكلت يوم أكل الثـور الأبيض)[1]، وقد كانت نهاية الإمبـراطورية العثمانية- وخاصـة في الشرق- أكبر انتصار للصليـبية الأوروبية واليهودية العالمية، وقد تركت فراغا لم يملأ.

---

(١) يعني الإمبراطورية العـثمانية، كلمة قالها أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب يشير إلى قتل عثـمان بن عفان ﷺ. (راجع مجمع الأمثال للميداني): ١ / ٢٥ .

الباب الرابع
العصر الأوروبي

الفصل الأول:

أوروبا المادية

طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها:

قبل أن ننظر ماذا أثر تحول القيادة من الأمم الإسلامية إلى الأمم الأوروبية في عقلية العالم وأخلاق الشعوب والأمم المدنية والاجتماع والاتجاهات الإنسانية وميولها، وماذا جنى منه النوع الإنساني، وهل كان ربحه أكثر من خسارته ورزئه أو بالعكس؟... يجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ووضعها وروحها وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت؟

ليست الحضارة الغربية في القرن العشرين المسيحي وليدة هذه القرون المتأخرة التي تلت القرون المظلمة في أوروبا، أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية، قد خلفتهما في تراثهما السياسي والعقلي والمدني، وورثت عنهما كل ما خلفتا من ممتلكات ونظام سياسي وفلسفة اجتماعية، وتراث عقلي وعلمي، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما، بل انحدرت إليها في الدم، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع- حفظه لنا التاريخ- للعقلية الأوروبية.

وأول حضارة- سجلها التاريخ- قامت على أساس الفلسفة الأوروبية تجلت فيها النفسية الأوروبية، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية، تحمل روحا واحدة هي الروح الأوروبية، وظلت الشعوب الأوروبية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها، حتى برزت بها في القرن التاسع عشر في ثوب براق يوهمك- بطلاوته وزهو ألوانه- أنه جديد النسج، ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان. إذا يحسن بنا أن نتعرف بالحضارة اليونانية والرومية أولا، وأن نعرف طبائعهما وروحهما، حتى نكون على بصيرة في انتقاد الحضارة الغربية والحكم عليها في القرن العشرين.

خصائص الحضارة الإغريقية:

اليونان أمة موهوبة، من أنجب أمم العالم وأذكاها وأكثرها استعدادا للعلم والأدب،

ومن أخصبها أذهانا وعقولا، قد مثلت في العالم دورا خالدا بفلسفتها وأدبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعبقريين تزهو بآثارهم مكتبات العالم.

والذي يعنينا الآن هو أن نعرف طبيعة الحضارة التي أنشؤوها، فإذا نظرنا فيها نظرة تحليل وانتقاد، وصرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحضارات من مظاهر وظواهر، وبحثنا عن طبيعتها وخصائصها.. وجدنا من المزايا التي تمتاز بها عن المدنيات الأخرى- خصوصا المدنيات الشرقية- ما يلي:

(١) الإيمان بالمحسوس، وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس.

(٢) قلة الدين والخشوع.

(٣) شدة الاعتداد بالحياة الدنيا، والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها.

(٤) النزعة الوطنية.

ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المتشتتة في كلمة مفردة وهي (المادية)، فكانت الحضارة اليونانية شعارها (المادية) وهي التي ينم بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة وشعر ودين، فلم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا في شكل آلهة شتى نحتوا لها تماثيل وبنوا لها معابد وهياكل؛ فللرزق إله، وللرحمة إله، وللقهر إله، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادي، ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات، وصوروا المعاني المجردة وتصوروها في أجسام وأشكال؛ فللحب إله وللجمال إله.. وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة في فلسفة أرسطاطاليس إلا رشحة من رشحات هذه المادية التي لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية.

وقد سلم العلماء الأوروبيون بغلبة المادة في الحضارة اليونانية ، ونوهوا بها في كتبهم وبحوثهم العلمية، وقد ألقى العالم الألماني للدكتور (هاس) (Hass) ثلاث محاضرات في جنيف عنوانها (ما هي المدنية الأوروبية؟) وهو من العلماء الذين يرون أن المدنية الغربية لم تتأثر بالشرق، وأنها مدنية مفردة ممتازة، ونلخص هنا كلامه فيما نحن بصدده:

«المدنية اليونانية هي مركز المدنية الغربية الحاضرة، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءا متناسبا، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب، وليس هذا إلا اعتدادا بالمحسوسات اعتدادا كبيرا، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية

والرقص وغيره، وكان التثقيف الذهني الذي يحتوي عليه الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حدا خاصا حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم، وكان الدين خلوا من الروحانية المعنوية؛ لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين. أما اللون الروحي الذي في تقاليد (أزفس) وغيرها فإنما هو مستعار من الشرق، ولا يصح أن ينسب إلى المدنية اليونانية».

ولاحظ كثير من العلماء الأوروبيين رقة الدين في اليونان وقلة الخشوع والجد في أعمالهم، وكثرة اللهو والطرب في حياتهم. يقول ليكي في كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا): «إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة، وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى، روحية باطنية. وينقل (أبوليس) المؤلف الرومي قوله: «إن المصريين كانوا يعظمون آلهتهم بالتضرع والبكاء، وكان اليونان يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء» ويعلق عليه بقوله: «لا ريب أن التاريخ اليوناني يصدق ذلك ويؤيده، فلا نعلم دينا من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليدهم في كثرة الأفراح والأعياد والألعاب، وفي قلة الخشية والخشوع، فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم، وكانوا يكتفون في تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية» (1).

وكان لليونان فلسفة إلهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتضرع له والالتجاء إليه والاطراح على عتبته ، فإن من ينفي الصفات عن الله تعالى ويعطلها وينفي عنه الاختيار والأفعال والخلق والأمر في هذا الكون، ويربط هذا العالم بما يسمونه (العقل الفعال وحركات الأفلاك)؛ فإنه بطبيعة هذه العقيدة لا يقصد الله في حياته العملية إلا تقليدا، ولا يرجوه ولا يهابه ولا يحبه ولا يخر لعظمته، ولا يستغيث به في شدته ولا يسبح بحمده، ويعيش كأنه لا إله ولا رب؛ فإذا سمعنا أن اليونان لم يكونوا خاشعين لله، وكانت عباداتهم وأعمالهم الدينية أجسادا بغير أرواح، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم لم نستغرب ألبتة ، وإنما نتعجب إذا سمعنا عكس ذلك».

وقد أثرت شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والمبالغة في قيمتها، وكذلك الولوع بالتماثيل والصور والغناء والموسيقى التي يسميها اليونان الفنون الجميلة، ولهج الأدباء والمؤلفين

---

(1) W.E.H Llecky, History of Europesan Maorals, London, 1869, Vol., PP 344-5 .

بالحرية الشخصية التي لا تعرف قيدا ولا تقف عند حد- تأثيرا سيئا في أخلاق اليونان ومجتمعها، فانتشرت الفوضى في الأخلاق وحدثت ثورة على كل نظام، وأصبح شعار الرجل الجمهوري (وهو كناية عن الحر والمتنور) الجري وراء الشهوات العاجلة، وانتهاب المسرات، والتهام الحياة التهام الجائع النهم. يصف سقراط- كما ينقل عنه أفلاطون في كتابه (المملكة) - الرجل الجمهوري، فكأنما يصف ناقد من نقاد هذا القرن فتى القرن العشرين في إحدى عواصم المدنية الغربية:

« إذا قيل له: إن بعض المسرات من الرغبات التي هي طيبة وتستحق الاحترام وبعضها من الشهوات التي هي قبيحة، وإن الأولى ينبغي أن يعمل بمقتضاها وتحترم، والأخرى مما ينبغي أن يمنع عنها ويقام عليها الحجر؛ لم يقبل هذا الرجل هذا القانون الصحيح ولا يسمح بسماعه؛ فإذا عرضت عليه هذه الحقائق أنغض إليك رأسه مستهزئا، وأكد أن جميع الشهوات سواء وتستحق الاحترام بغير فرق بينها، وهكذا يعيش ويقضي أيامه مرضيا شهواته التي تعتريه أحيانا، ذات يوم تراه سكران ثملا مصغيا إلى الغناء، وفي يوم آخر تراه صائما يجترئ بالماء، وتارة يدخل في التربية والتمرين، وأخرى تراه كسلان عاطلا يهمل كل شيء ومرة تراه يعيش فيلسوف، وأحيانا يدخل في السياسة وينهض ويخطب بمقتضى الوقت، ربما يمدح بعض رجال الحرب والجندية ويميل إليهم، أو يشرع في التجارة لأنه يغبط التاجر الرابح، ليس لحياته نظام ولا ضبط، ولكنه يعد هذه الحياة هنيئة ناعمة سارة ويواصلها إلى النهاية »(1).

أما الوطنية فهي من لوازم الطبيعة الأوروبية، وهي أظهر وأقوى في أوروبا منها في آسيا، وقد أغرى بذلك الطبيعة الجغرافية وأوحته، لأن المناطق الطبيعية في آسيا واسعة جدا وتشمل على مناخات وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر، وهي غنية مخصبة في وسائل المعيشة؛ فالمملكة في القارة الآسيوية تجنح بحكم الطبيعة إلى السعة والعموم، وظهرت في أرضها وازدهرت أوسع ممالك عرفها التاريخ، أما في أوروبا فالتنازع على البقاء فيها شديد، والكفاح للحياة دائم مستمر، لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة، وقد حصرت الجبال والأنهار الأجناس الأوروبية، في نطاق ضيق طبعي دائم، وبالأخص الجزء الأوسط الغربي والجزء الجنوبي من أوروبا، لا يسمح لممالك واسعة عظيمة، وقد

---

(1) Republic, Book VII.

شاءت طبيعة هذه القارة أن تكون منشأ للمالك ضيقة صغيرة، لذلك كان التصور السياسي في أوروبا في القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية- لا تزيد منطقتها على أميال- مستقلة استقلالا تاما، وأكبر مظهر لهذا التصور أرض يونان حيث وجدت من فجر التاريخ عشرات من مدن صغيرة مستقلة.

فلا عجب إذا كان اليونان يدينون بالوطنية وينتحلونها، وقد سلم «ليكي» أن الفكرة الوطنية هي الفكرة السائدة في اليونان، وكانت الفكرة العالمية التي قد نطق بها بعض حكمائهم كسقراط وإنكسارغوس شاذة لم تنل أنصارا وانتصارا في يونان، وكان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق مبنيا على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني، فكان نظام أرسطاطاليس الأخلاقي التي أجمع عليها حكماء اليونان، وإن أرسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب؛ بل قال: إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملوا به البهائم؛ وقد راجت هذه الفكرة الوطنية الضيقة في الأوساط اليونانية وتغلغلت في الأحشاء، حتى لما قال فيلسوف إنه لا يخص مواطنيه بمواساته، بل سيكون بره عاما لجميع اليونانيين استشرفه الناس عجبا ونظروا إليه شزرا.

خصائص الحضارة الرومية:

خلف اليونان الروم وفاقوهم في القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية، ولكن لم يلحقوا بهم بعد في العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهذيب واللباقة والمدنية، التي كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة وعلى الروم أيضا الذين كانوا لا يزالون في دورهم العسكري، فخضعوا لهم علميا، وتطفلوا على مائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم.

يقول (ليكي):

«إن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة أنتجوها وزادوا فيها على مر القرون والعصور، وكانت رومة لا تزال في طورها الجندي لا تملك أثرا من الآثار الأدبية، بل كانت لغتها قاصرة في التعبير عن الأفكار المعاني العالية، فغلب الروم بتخلفهم وقصورهم في العلم، وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التي غلب أهلها في السياسة، ولم يزالوا مأخوذين بسحرهم في كل قسم من أقسام العلم، فكان المؤرخون الأقدمون في الروم يؤلفون كتبهم باليونانية، واستمرت اليونانية لغة التأليف والعلم بعد ما بدأ شعراء الروم

ينظمون الشعر في اللاتينية»[١].

ولم يكن هذا الخضوع خاصا في عالم التأليف والأدب فحسب، بل غلبت المدنية الإغريقية المدنية الرومية في الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع، وفي العواطف والنزعات، وفي كل ناحية من نواحي الحياة العامة، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ويتنبلون بذلك ويتظرفون.

وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية، بل النفسية اليونانية إلى الروم، وجرت منهم مجرى الروح والدم، ولم يكن الروم- بطبيعتهم الأوروبية- يختلفون عن اليونان في الخصائص الفطرية كثيرا، بل هناك شبه عظيم بين الأمتين؛ إيمان بالمحسوس وغلو في تقدير الحياة، وشك في دين، وضعف في يقين، واضطراب في العقيدة، واستخفاف بالنظام الديني وطقوسه، واعتزاز بالقومية وتعصب لها، وحب مفرط للوطن. زد إلى ذلك كله اعتدادا بالقوة واحتراما زائدا لها يبلغ العبادة والتقديس.

يظهر من التاريخ أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ في دينهم، وإني أعذرهم في ذلك، فإن النظام الديني الوثني الخرافي الذي كان سائدا في رومية يقتضي بطبيعته الشك والاضطراب وضعف الإيمان، فكلما تقدموا في العلم وتنورت أفكارهم، ازدادوا استخفافا به، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لا دخل لهم في السياسة وأمور الدنيا.

يقول سيسرو(Cicsero):

«لما كان الممثلون ينشدون في دور التمثيل أبياتا معناها أن الآلهة لا دخل لهم في أمور الدنيا يصغي إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة»[٢].

ويقول الراهب أغسطين (Auguosttne):

«إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزؤون بها في دور التمثيل»[٣]، وقد فقد الدين الرومي سلطانه الروحي على معتنقيه، وبردت العاطفة الدينية في قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها في بعض الأحيان، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما

---

(١) Lecky, Op. Cit.P243.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٩ .

غـرق أسطول للإمبـراطور أغـسطس(Augstus) اسـتشـاط غـضـبـا ، وحـطم تمثـال نيبـتون(Neptone) إله البحر، ولما مـات جرمينيكس(Germanicus) رجم الناس أنصاب الآلهة (التي كانوا يذبحون عليها)»[١].

فلم يكن للدين تأثير في أخلاق الأمة وسـياستها ومجتمـعها، ولـم يكن يملك عليهم شعورهم ومـيولهم ويراقب عليهم أخلاقـهم ونزعاتهم، ولـم يكن دينا عميـقا يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب، بل كان تقليدا من التقاليد، كانت السياسة تقتضي البقاء عليه ولو بالاسم والرسم، يقول (ليكي):

«إن الدين الرومي كـان أسـاسـه على الأثرة، ولم يكن يرمي إلا إلى رفـاهة الأفـراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب؛ والشاهد على ذلك أنه ظهر في رومية مئات من الأبطال والعظماء، ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا عزوف عن ملذات الحياة، ولا تسمع مثالا في تاريخ الروم للتـضـحـيـة والإيثار إلا وتجـده لا تأثيـر فـيـه للدين ولكن مـبنيـا على الوطنية»[٢].

والظاهرة التي يمتاز بها الروم من بين أمم الأرض المعاصـرة بل بعدها، والتي أصبحت لها دينا تدين به وشـعارا تعرف به هي روح الاسـتـعمار والنظر المادي البحت إلـى الحياة، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه.

وقد أجاد وصفه العالم الألماني المسلم الأستاذ مـحمد أسد في كتابه النفيس (الإسلام على مفترق الطرق)، قال:

«إن الفكرة التي كـانت تسيطر على الإمـبراطورية الرومـانية هي احـتكار القوة لـها، واستغـلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومي فقط، لـم يكن رجالها والقائمـون عليها يتحاشون من أي ظلم وقسـوة في سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتـازة، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا لـلروم فقط، إن هذه السيـرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادي محض للحيـاة والحضارة، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عـقـلي ولكنها بعيدة عن جمـيع القيم الروحيـة، إن الروم لـم يدينوا بالدين جديا أبدا، كـانت آلهتهم التـقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغـريق وخرافاتهم، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة

(١) تاريخ أخلاق أوروبا: History of European Morals (The pagan empire), P178.
(٢) تاريخ أخلاق أوروبا، ص ١٧٧ .

الاجتماعية التي كانت تربطهم وتوحدهم، فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل في حياتهم العملية، كان لها أن يأذنوا أن تتكهن بالغيب - إذا سئلت عن ذلك- على لسان الكهان، ولكن لم يأذنوا لها أبدا أن تفترض شرائع أخلاقية على الناس»(1).

الانحطاط الخلقي في الجمهورية الرومية:

وفي نهاية دور الجمهورية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقي والبهيمية، وفاض بحر الترف في العيش والبذخ فيضانا عظيما، غاص الروم فيه إلى الأذقان، وسالت فيه النظم الأخلاقية التي كان الروم معروفين بها كالغناء، وتزعزع البناء الاجتماعي حتى كاد ينهدم، وقد صوره (درابر) الأميريكي بقلمه البليغ :

«لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات- هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات. . بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتارا، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف، ومن لهو إلى لذة، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة .

كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة وغادات رومية حسان وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالا، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا يتشحط في دمه.

وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ويعين إيرادات الإقطاع، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة، فكان نظام رومة المدني يشف عن أبهة الملك، ولكنه كان طلاء خداعا كالذي تراه

---

(1) Islam at the Cross Roads, P.38-39.

في حضارة اليونان في عهد انحطاطها»[١].

تنصر الروم:

وها هنا حادثة عظيمة يجب أن يسجلها المؤرخ وينوه بها، وهي اعتلاء النصرانية عرش رومة الوثنية، وكان ذلك بجلوس قسطنطين الذي اعتنق النصرانية علي سرير الأباطرة سنة ٣٠٦م، فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ونالت فجأة ما لم تكن تحلم به من ملك عريض ودولة مترامية الأطراف وكلمة لا تعلوها كلمة. ولما كان قسطنطين إنما توصل إلى الملك على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التي أريقت في الذب عنه والنصر له، عرف لهم الجميل وبذل لهم وجهه، ووطأ لهم أكتافهم وقلدهم مفاتيح ملكه.

خسارة النصرانية في دولتها :

ولكن انتصر النصارى في ساحة القتال، وانهزموا في معترك الأديان،ربحوا ملكا عظيما، وخسروا دينا جليلا، لأن الوثنية الرومية مسخت دين المسيح ومسخه أهله، وكان أكثر مسخا له وتحريفا هو قسطنطين الكبير حامي ذمار النصرانية ورافع لوائها.

يقول (درابر) :

«دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يوما من الأيام، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره في الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا في آخر عمره (٣٣٧م) .

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية سواء بسواء، هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية، إذ قضى الإسلام على منافسته (الوثنية) قضاء باتا، ونشر عقائد خالصة بغير غش.

وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبدا للدنيا، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي

---

(1) History of the Conflict between Religien & Science, London, 1927. P.312.

شيئا، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين- النصراني والوثني- أن يوحدهما ويؤلف بينهما، حتى إن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها»(١).

الرهبانية العاتية:

فلم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة التي فقدت روحها وجمالها أن تغير من سيرة الروم المنحطة، وأن تبعث فيهم حياة جديدة، حياة دينية نقية طاهرة، وأن تفتح عهدا زاهرا في تاريخ الروم، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شرا على الإنسانية والمدنية من بهيمية رومة الوثنية، وقد جن جنون هذه الرهبانية في العالم النصراني وتخطى حدود القياس، وإنا نلتقط أمثلة من كتاب (تاريخ أخلاق أوروبا) وهو قليل من كثير جدا:

«زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفا من الرهبان، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب (سرابين) يرأس عشرة آلاف، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر».

عجائب الرهبان:

ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا في الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب، فحدثوا عن الراهب ماكاريوس(Makarius) أنه نام ستة أشهر في مستنقع، ليقرص جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد، وكان صاحبه الراهب يوسبيس Eusebivs يحمل نحو قنطارين وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح، وقد عبد الراهب يوحنا (St.Jhon) ثلاث سنين قائما على رجل واحدة، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة، فإذا تعب جدا أسند ظهره إلى صخرة، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما، وإنما يسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام،

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٠، ٤١ .

وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكلون كثيرا من الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح، ويتأثمون عن غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس.

يقول الراهب أتهينس: إن الراهب أنتوني لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره، وكان الراهب إبراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة؛ وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلهفا: واأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراما، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات، وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال، ويهربونهم إلي الصحراء والأديار، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئا، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب أمبروز (Ambrose)، وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس[1].

تأثير الرهبانية في أخلاق الأوروبيين:

كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل، عادت فاستحالت عيوبا ورذائل، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة، وهجروها، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية، وعم الكنود والقسوة على الأقارب، فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانا ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخلفون الأمهات ثكالى والأزواج أيامى والأولاد يتامى عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة، لا يبالون ماتوا أو عاشوا، وحكى (ليكي) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب[2].

---

(١) اقرا تاريخ اخلاق أوروبا (ليكي).

Lecky: History of European Morals Chapter IV.

(1)History of European Morals, Part IIChapter IV, Form Constantine to Charlemagne.

وكانوا يفرون من ظل النساء، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن- ولو كن أمهات وأزواجا أو شقيقات- تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية، وروي (ليكي) من هذه المضحكات المبكيات شيئا كثيرا.

عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة:

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شره المادية الرومية، وكبحت من جماحها وغلوائها في البهيمية والشهوات، فإن هذا لم يكن ولا يكون في الغالب، وتأباه الفطرة الإنسانية ويكذبه التاريخ؛ فإن الذي يوجد الاعتدال، ويخفض من المادية الجامحة، ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحي الديني الخلقي الحكيم، الذي يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة والذى لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية ، بل يوجهها توجيها نافعا، فإنها لا تزول، ولكن تميل من شر إلى خير؛ وهكذا فعل الإسلام، وهكذا فعل سيدنا محمد ﷺ، فقد صرف شجاعة العرب من المنافسات القبلية والتقاتل وأخذ الثأر والأحقاد القديمة إلى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، وصرف تبذيرهم وسماحتهم إلى الإنفاق في سبيل الله، وشغلهم عن الجاهلية بالدين الإسلامي، وأبدل الشيء بالشيء، وأعطى النفس حقها من النشاط والترويح، فإن النفوس- كما قال عالم من علماء المسلمين- لا تترك شيئا إلا بشيء، وإن النفوس قد خلقت لتعمل لا لتترك[١]،وإن الأنبياء قد بعثوا بتكميل الفطرة وتكريرها لا بتبديلها وتغييرها [٢].

قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «**ما هذان اليومان؟**» قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد أبدلكم بهما خيرا منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر**»[٣]، وعن عائشة ﵂ قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدا، وهذا عيدنا**». وفي رواية أنه قال: «**دعهما يا**

---

(١) من كلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية (م ٧٢٨هـ) في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)، ص ١٤٣ .

(٢) ابن تيمية في كتابه (النبوات).

(٣) رواه أبو داود بإسناده عن أنس، وأحمد ، والنسائي.

أبا بكر فإنها أيام عيد»[١].

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثا تغيير الفطرة وإزالتها، وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به، فرغبت فيه كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة، ثم تخلصت منه وثارت عليه؛ ولم تقدر النصرانية- بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع- أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم، وتمسك بضبع المدنية الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردي، فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنبا إلى جنب، بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزلة في الصحاري والفلوات، لا سلطان لها على الحياة، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامة في المدن والحواضر.

بين الرهبانية العاتية، والمادية الجامحة:

يصور (ليكي) ما كان عليه العالم النصراني في ذلك العصر من التأرجح بين الرهبانية والفجور، فيقول:

«إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات، والتملق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء، والمسابقة في زخارف اللباس والحلي والزينة في حدتها وشدتها؛ كانت الدنيا في ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته، وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس، وكأن الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده، ولكنه أمن واطمأن، لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان، لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب، حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة، ولكن قل الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة، مع انحطاط في حرية الفكر

(١) حديث متفق عليه.

والحماسة القومية»(١).

القساد في المراكز الدينية:

ولم تكن الرهبانية والنظام الديني السلبي إلا مصادمة للفطرة، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحي وساعدتها عوامل أخري، ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف في المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية، وربما تسبقها في فساد الأخلاق والدعارة والفجور، لذلك أوقفت الحكومة المآدب الدينية التي كانت ترمي إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التي وجدت فيها الخلاعة والفجور حمى ومرتعا، واتهم القسوس بكبائر ومنكرات.

ويقول الراهب جروم (Jarum) :

«إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق الباباوات انحطاطا عظيما، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع، وقد تباع بالمزاد العلني، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران، ويأذنون بنقض القانون، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد، ويرتشون ويرابون، وقد بذروا المال تبذيرا حتى اضطر البابا أنوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية، ويذكر عن البابا العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال، وأنفق نصيبه ودخله، وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفا وأنفقه، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم»(٢).

تنافس البابوية والإمبراطورية:

وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية في القرن الحادي عشر، فاشتدت بعنف وحمي وطيسها، وانتصرت فيها البابوية أولا، حتى إن هنري الرابع ممثل الإمبراطوية اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوي في قلعة كانوسا، ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال، فسمح له بالمثول بين يديه، فدخل الإمبراطور صاغرا

(1) History of European Morale Vol. II.PP.162-3.

(2) Conflict of Religion and Science. P.230.

حافيا لابسا الصوف، وتاب على يديه، فغفر له البابا زلته! وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجالا حتى ضعفت البابوية، وبقي الناس هذه المدة الطويلة يتنازعهم عاملان؛ ديني ودنيوي، وبقوا يرزحون تحت نيرين: إمبراطوري وبابوي.

وكان البابوات يتمتعون في هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن للملوك والأباطرة، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوروبا تقدما صحيحا في العلم والمدنية تحت ظل الدين ، لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجولون في البلدان الأوروبية، وينزلون من أهلها في جناب مريع وظل ظليل، ويتفهمون معهم بلغة واحدة، ويتخلون في أمور سياسية مهمة، ووجدوا في كل بقعة أنصارا لهم من ذوي الرأي والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم في مهمات الدولة.

شقاء أوروبا برجال الدين:

ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية، ومن سوء حظ الأمم التي دانت بها أساؤوا استعمال هذا السلطان الهائل، فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم، وبقيت أوروبا تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط، وأصيبت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم في صميمها، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوروبية في ألف سنة، ولم يتضاعف عدد سكان إنكلترا في خمسمائة سنة، ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التي كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها، ولم يشأ الكهان والأصاقفة أن يساهم الأطباء في مرافقهم وغلاتهم، فانتشرت الأوبئة والأمراض في طول القارة وعرضها، وتعرف من رحلة أنبيس سلوئيس الذي اشتهر بعد بلقب (Pus the Second)التي قام بها في الجزائر البريطانية حوالي سنة ١٤٣٠م، ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط في المدنية وفقر مدقع.

جناية رجال الدين على الكتب الدينية:

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يمثلونه أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية، ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني؛ وإذا كان ذلك في عصر من العصور غاية ما وصل

إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه بالتحول والتعارض؛ فإن العلم الإنساني متدرج مترق، فمن بني عليه دينه فقد بنى قصرا على كثيب مهيل من الرمل. ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة، ولكنه كان أكبر جناية علي أنفسهم وعلى الدين، فإن ذلك كان سببا للكفاح المشؤوم بين الدين والعلم الذي انهزم فيه ذلك الدين، ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذي فيه الحق والباطل والخالص والزائف- هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين سقوطا لم ينهضوا بعده، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لا دينية.

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن، واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها؛ من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية، وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا في ذلك كتبا وتآليف، وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية (Christian Geoyraphy) وعضوا عليها بالنواجذ، وكفروا كل من لم يدن بها.

اضطهاد الكنيسة للعلم:

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني، فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب، وانتقدوها في صرامة وصراحة، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي، وأنشؤوا محاكم التفتيش التي تعاقب- كما يقول البابا- أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها، واجتهدت ألا تدع في العالم النصراني عرقا نابضا ضد الكنيسة، وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها، وأحصت على الناس الأنفاس، وناقشت عليهم الخواطر، حتى يقول عالم نصراني: «لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيا ويموت حتف أنفه»، ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء، كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقترحت بألا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حيا، وكذلك كان.

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليلو (Galilio) بالقتل، لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس.

ثورة رجال التجديد:

هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم، وأصبحوا حربا لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب، وعادوا الدين المسيحي أولا والدين المطلق ثانيا، واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية، وزعماء الدين المسيحي - وبلفظ أصح، الديانة البوليسية- حربا بين العلم والدين مطلقا، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بالأول كفر بالثاني، وإذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم، وتمثل لأعينهم وجوها كالحة عابسة، وجباها مقطبة، وعيونا ترمي بالشرر، وصدورا ضيقة حرجة، وعقولا سخيفة بليدة، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه، وتواصوا به، وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم.

تقصير الثائرين وعدم تثبتهم:

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير، ومن الوداعة والهدوء، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته، ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين عن عهدة ومسؤولية وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه، كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمصار.

ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأمتهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامي الذي كان يدين به أمم معاصرة لهم، الدين الذي يخلصهم من هذه الأزمة و ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ولكن حمية الجاهلية والسدود التي أقامتها الحروب الصليبية بين الغرب المسيحي

والشرق الإسلامي ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام، وعدم تجشم التعب والمطالعة، وقلة الحرص على النجاة الأخروية والاهتمام بما بعد الموت، زد إلى ذلك تفريط المسلمين في التبشير الإسلامي ونشر الإسلام في أوروبا كل ذلك منعهم من الرجوع إلى الدين الإسلامي والأخذ به في ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق.

اتجاه الغرب إلى المادية:

وعلى كل فقد وقع المحذور، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع، وعلم وأدب وسياسة وحكم، وكان ذلك تدريجيا، وكان أولا ببطء وعلى مهل، ولكن بقوة وعزيمة، فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون نظرا مؤسسا على أنه لا خالق ولا مدبر ولا آمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف في هذا العالم وتحكم عليه وتدبر شؤونه، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت، وسموا هذا نظرا علميا مجردا، وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقا تقليديا لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة، استهزؤوا به واتخذوه سخريا، ثم انتهى بهم طريقهم الذي اختاروه وبحثهم ونظرهم إلى أنهم جحدوا كل شيء وراء الحركة والمادة، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة، فأصبح- بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم- الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة: من قبيل المفروضات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم.

إنهم لم يجحدوا بالله إلى زمن طويل، ولم يكاشفوا الدين العداء، ولم يجحدوا به كلهم، ولكن منهج التفكير الذي اختاروه، والموقف الذي اتخذوه في البحث والنظر لم يكن ليتفق والدين الذي يقوم على الإيمان بالغيب، وأساسه الوحي والنبوة ودعوته ولهجه بالحياة الأخروية، ولا شيء من ذلك يدخل تحت الحس والاختبار ويصدقه الوزن والعد والمساحة، فلم يزالوا يزدادون كل يوم شكا في العقائد الدينية.

افتضاح المادية في الدور الأخير:

ولكن رجال النهضة الأوروبية ظلوا قرونا يجمعون بين النظر المادي الجاحد والحياة المادية، والطقوس الدينية المسيحية، بالتقليد أو بتأثير المحيط الذي لا يزال في العالم

النصراني، أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقتضي البقاء- ولو بالاسم- على نظام ديني يؤلف بين أفراد الأمة ويحفظها من الفوضى، حتى افتضحوا في الأخير، وصعب الجمع بينهما بسرعة سير الحضارة المادية، وتخلف الدين والتقاليد وعجزها عن مسايرتها، وما في الجمع بينهما من متاعب وضياع للوقت وتكلف هم في غنى عنه، فطرحوا الحشمة ورموا برقع النفاق.

جنود المادية ودعاتها:

ونهض الكتاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون في كل ناحية من نواحي أوروبا ينفخون صور المادية، وينفثون بأقلامهم سمومها في عقل الجمهور وقلبه، ويفسرون الأخلاق تفسيرا ماديا، تارة ينشرون الفلسفة النفعية، وطورا فلسفة اللذة الأبيقورية.

والسياسيون من أمثال ميكاويل الفلارنساوي (١٤٦٩-١٥٢٧م) دعوا من قبل إلى فصل الدين عن السياسة، وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية، وقرروا أن الدين- إذا كان لابد منه- قضية شخصية لا ينبغي أن تتدخل في أمور السياسة والدولة، وأن الدولة عندهم أعز وأهم من كل شيء، وأن النصرانية إنما موضعها الحياة الأخروية، وأن المتدينين والصالحين لا يفيد وجودهم الدولة، وإن كان يفيد الكنيسة، لأنهم يتقيدون بأحكام الدين، ولأنهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكام الدين ومبادئ الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك، وأن الملوك والأمراء يجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق الثعالب، ولا يتحشموا من نقض العهود والكذب والخيانة والغش والنفاق إذا كان في ذلك أدنى مصلحة للدولة... إلى غير ذلك، ونجحت هذه الدعوة وساعدتها عوامل كثيرة من الوطنية والقومية التي خلفت الديانة القديمة.

وأحدث الأدباء والمؤلفون وأصحاب البراعة والقريحة والذكاء، خصوصا في ثورة فرنسا وبعدها، الثورة على الأخلاق القديمة، والنظم الاجتماعية، وزينوا للناس الإثم، ونشروا دعوة الإباحة، وإطلاق الطبائع من كل قيد، والفرد من كل مسؤولية، ودعوا إلى التهام الحياة البهيمية، وإرضاء الشهوات، والتهاب المسرات، واستعجال الطيبات، وغلوا وأسرفوا في تقدير قيمة هذه الحياة وجحدوا كل شيء سوى اللذة العاجلة والنفع المادي الظاهر المحسوس.

نسخة صادقة من الحياة اليونانية :

فأصبحت الحياة في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة في يونان وروما الوثنيين الجاهليتين، وعادت الطبيعة الأوروبية (التي كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة.

ولا غرابة في ذلك، فالأوروبيون اليوم إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان، والسلائل الأوروبية الأخرى ترى دينا خلوا من الروحانية، كما لاحظ الدكتور (هاس) في ذكر الحضارة اليونانية.

وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد في أعماله، وكثرة اللهو والطرب في الحياة، كما ذكر (ليكي) عن الديانة اليونانية، وهو نتيجة الوضع الديني الذي وصلت إليه أوروبا، فإنه لا يتفق والخشوع لله والجد في عبادته، ونتيجة تلك النظريات والغايات التي وصل إليها علماء الطبيعة والحكمة في أوروبا وأعلنوها، تلقاها الجمهور بالقبول وحلت محل الدين.

وترى كذلك تهافتا على ملذات الحياة تهافت الظمآن على الماء والفراش على النار، والحرص على اقتطاف جني الحياة، وثمارها باليدين، كما وصف به سقراط الرجل الجمهوري اليوناني في عصره.

وكذلك ترى شكا في الدين واضطرابا في العقيدة، واستخفافا بالنظام الديني وطقوسه وتقاليده، كما رأيت في روما بعد التنور.

ديانة أوروبا اليوم المادية، لا النصرانية:

فمما لا شك فيه أن دين أوروبا اليوم الذي يملك عليها القلب والمشاعر، ويحكم على الروح هو المادية لا النصرانية، كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوروبية واتصل بالأوروبيين عن كثب لا عن كتب - بل وعن كتب أيضا- ولم ينخدع بالمظاهر الدينية التي تزيد في أبهة الدولة والتي يجد فيها الشعب ترويحا للنفس وتنوعا، ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس وحضورهم في تقاليدها.

وقد بين ذلك في وضوح وصراحة الأستاذ الألماني المهتدي محمد أسد - السابق ذكره- في كتابه: (الإسلام على مفترق الطرق) قال:

«لا شك أنه لا يزال في الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب ديني ويبذلون

جـهدهم في تطبـيق عقـائدهم بروح حـضارتهم، ولكـنهم شواذ. إن الرجل العـادي في أوروبا، ديمقراطيا كان أو فاشـيا، رأسماليا كان أو اشتراكيـا، عاملا باليد أو رجلا فكريا، إنما يعرف دينا واحـدا، وهو عبادة الرقي المادي والاعـتقاد بأنه لا غـاية في الحياة غـير أن يجعلها الإنسـان أسهل، وبالتعبير الدارج (حـرة مطلقة) من قيود الطبيـعة،أما كنائس هذا (الدين) فهي المصـانع الضخمة ودور السـينما والمختـبرات الكيماوية ودور الرقص ومـراكز توليد الكهرباء، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما، وأقطاب التجارة والصناعـة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقـما قياسيا. ونتـيجة هذه النهامة للقـوة، والشره للذة- النتيجة اللازمـة- ظهور طوائف متنافسة مدجـجة بالسلاح، والاستعدادات الحربية، مـستعدة لإبادة بعضها بعضا إذا تصادمت أهـواؤها ومصالحها، أما في جانب الحضارة، فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لا غير»(١).

«إن الحضارة الغـربية لا تجحد الله في شدة وصراحـة، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه» (٢).

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادات على مـركز الدين في الحياة الأوروبية ومدى تأثيره: كون صاحبـها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوروبا إلى الشـرق الإسلامي، فها هنا شهادة أصـرح منها وأدل على اضمحـلال الدين الرسمي في أكبر مـراكزه، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين في (لندن) وكتاب الإنكليزية البارزين.

قال الأستاذ جود (Joad)رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن في كتابه (Guide to Modern Wickedness):

«سألت عشرين تلمـيذا وتلميذة كلهم في أوائل العقد الثـاني من أعمارهم: كم منهم مسـيحي؟ بأي معنى من مـعاني الكلمة، فلم يجب بـ(نعم) إلا ثـلاثة فقط، وقال سبـعة منهم: إنهم لم يفكروا في هذه المسألة أبدا، أما العـشرة الباقية فقد صـرحوا بأنهم معادون للمسيحية. أنا أرى أن هذه النسبـة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها وبين من لا يؤمن في هذه البلاد لـيس شاذة ولا غريبـة، نعم إذا وجه هذا السـؤال إلى مثل هذه الجـماعـة قبل

(1) Islam At the Cross Roads, P.50 Fifth Edition.

(2) Islam At the Cross Roads. P.40.

خمسين سنة أو عشرين، كانت الأجوبة مختلفة، بناء على ذلك: الذين يتفقون في الرأى مع (Canon Barry) ويزعمون أن نهضة مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلا جدا، فإني لا أرى لرأيه هذا مؤيدا ومبررا إلا أن يكون ذلك رغبته وهواه، فإن الأهواء كثيرا ما تخلق الأفكار، ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق، وإن الأحوال والآثار في هذه البلاد لتدل على أن الكنيسة النصرانية ستموت في القرن الآتي، وإليك ما يؤيد هذا الرأي نقلا من صحيفة يومية:

اخترع رجل في السابعة والسبعين من عمره طريقة تحول بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعي واللدائن وأوراق النقد الثمينة، وإن آلته قد نصبت في (Cardiff factory) وفي ثمانية مصانع أخرى، وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية، وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعد ما عاش في ضنك من العيش».

ويختم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة - ولا أجمل منها- لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال (كينين بيري) وغيره (فليسمع من له أذنان)[١].

ويقول هذا المؤلف في كتابه الثاني(Philosophy for our Times) :

«لم يزل سائدا على عقلية إنكلترا منذ قرون شره المال والتملك، وكانت رغبة نيل المال أقوى عامل في حياة البلاد، وأكبر باعث على العمل، لأن المال وسيلة للتملك، وصخامته ووفرته مقياس لكفاءة الإنسان، ولم يزل الناس يتلقون- من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية، وفي بعض الأحيان من منابر الكنائس في كل عام وشهر- التحريضات على جمع المال واقتنائه والإقناع بأن الأمة المتمدنة هي التي ارتقت فيها عاطفة الشره والتملك.

إن هذه العبادة للمال تناقض عقائدنا الدينية، لأن الدين يمدح الفقر ويذم الغني، ويقول: إن الفقير أقدر على الصلاح من الغني، ومع أن الحكمة والنعيم الديني متفقان على أن الفقر أوفق لعبادة الله ودخول الجنة، ولكن الناس لم يرغبوا إلى تصديق الدين في ذلك والعمل بأحكامه، ولم يزالوا يؤثرون الثروة الحاضرة على نعيم الجنة الموعود، لعلهم يظنون أنهم إذا تابوا في آخر عهدهم بالدنيا فإنهم يحرزون حسنى الآخرة، كما ظفروا

---

(1) Guide to Modern Wickedness, P.114-115.

بحسنى الدنيا بأموالهم المودعة في المصارف.

وقد أعـرب عن فكرتهم هذه(Sammuel Butler) في كـتابه بقـوله: «إن بعض المؤلفين يقولون: إنا لا نـستطيع أن نجمع بين عـبادة الله وعبـادة المال، وأنا أسلم أن الأمر ليس بميسور، ولكن متى تكون المهمات في الدنيا ميسورة سهلة؟»

فمهـما اختلفنا في المبادئ فإن الحـقيقة الراهنة أن كلنا راسخ في تقليـد بتلر وأتباعه، فنحن مـشغوفـون بحب المال، وعقـيدتنا أن الـثروة هي المقـياس الصحـيح لعظمـة الفرد والحكومة، وكانت سببا لظهور مبدأين لهما الأهمية التاريخية الكبرى:

أحدهمـا: مبدأ عـدم التدخل الاقتـصادي الذي كان سـائدا في القرن التاسع عـشر، ويدعي أصحاب هذا المبدأ أن الإنسان يبـني عمله على أعظم نفع يجلبه، وأن ليس الباعث على الأعمال الالتذاذ بالعواطف القلبية بل الالتذاذ بالثروة.

والمبدأ الثانـي الذي يسود القرن العشرين: هـو مبدأ التنظيم الاقتصـادي المنسوب إلى مـاركي، ويقوم هذا المبـدأ على أن النظام الإنسـاني الاقتـصـادي إنما يتأسس على حـوائج الإنسـان الماليـة، وهذا النظام هو الـذي يخلق الأدب والأخـلاق والدين والمـنطق ونظام الحكومة، ولم يكن هذان المبدآن لينالا القبول الذي نالاه لولا شغف الناس في بلادنا بالمال والاهتمام الزائد به»(1).

ويقول في مكان آخر من هذا الكتاب:

إن نظرية الحـياة التي تسود علـى هذا العصر وتحكم علـيه: هي النظر في كل مـسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب (Stomach and Pocket View of Life)

وقد أجـاد الصحفي الأمريكي المشـهور (Jhon Gunther)تمثيل هذه النفـسية في كتابه (في داخل أوروبا)(Inside Europe) بقوله:

«إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا (Bank of England)ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة».

مظاهر الطبيعة المادية في أوروبا:

إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بحـياة أخـرى، ولا يعتـقدون وراء اللذة والتـمتع بالحـياة

(1) Philosophy for our Times P.38-40.

والعلو في الأرض غاية عليا، ولا يذكرون الله إلا نادرا، ولا يرجون له وقارا، كيف يرجى منهم أن يتضرعوا إلى الله إذا مسهم الضر، ويخبتون إليه وينيبون إذا دهمهم الخطر، كما ذكر الله عن المشركين الذين كانوا يؤمنون بالله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، ولكن هؤلاء - بإمعانهم في المادية والتمسك بالأسباب الظاهرة، والتعلل بها واستغنائهم عن الله- قد وصلوا من القسوة والغفلة إلى حيث صدق عليهم قول الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾ [المؤمنون: ٧٦].

فلا تكاد تشعر في خطب الزعماء والوزراء في أوروبا برقة قلب وانكسار وإخبات إلى الله في أدهى ساعات الحرب وأمرها، ولا تشاهد شيئا من ذلك في أخلاق الشعب وأعماله وأفراحه، ويعد ذلك مفكرو الغرب وأدباؤه من باب التجلد وقوة القلب وإباء الضيم، وقد افتخر أحد زعماء الإنجليز وكبار رجال السياسة في البرلمان الإنجليزي بأن رجال الشعب الإنجليزى لم يستسلموا للحوادث والنوازل، واستشهد على ذلك بأن المشتغلين بالرقص واللهو في سنغافورة لم يتحولوا عن مكانهم، ولم يؤخروا أدوار الرقص والغناء، وطيارات اليابان تمطر المدينة شآبيب القنابل.

ويحكى هندي عن سهرة شهدها قال: «بينما نحن في الرقص إذ سمعنا الإنذار بالغارة الجوية، فساد الهدوء في المكان، ثم قال أحد أصحاب المجلس: ماذا ترون؟ هل يستمر الرقص أم يؤخر؟ فأجابت فتاة: بل نستمر راقصين، وهكذا كان، ودوت الحارة فضلا عن النادي الذي كنا فيه بالأغاني»(١)، ويقول: «من العادات اليومية أنه يعلن في السينما: تبدأ الغارة الجوية، ولكن يستمر هذا الفصل، ومن أراد أن يذهب إلى المخبأ فطريقه أسفل إلى اليسار، ولكن الناس يستمرون جلوسا ولا أحد يبرح من مكانه، ويبدأ الفصل»(٢).

ويقول كاتب إنجليزي تعليقا على صورة نشرت في الصحيفة الإنجليزية اليومية الكبرى في الهند في ٢٤ من يناير ١٩٤٢: «من الغريب أن أجمل التمثيليات إنما ظهرت أيام

---

(١) الغارات الجوية، لآغا محمد أشرف الدهلوي، ص ٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٠.

الحروب الكبرى في التاريخ، كذلك الشأن في بريطانيا اليوم فالناظر يرى الملاهي والسينما والتمثيليات والصور ما لم يكن يرى أجمل وأبدع منها قبل الحرب، والمتفرج يجد في ملاهي لندن كل ما يسليه ويرضى ذوقه». وفي عدد آخر من هذه الجريدة الصادرة في ١٥ من ديسمبر ١٩٤٣م: «إن صناعة الأفلام في (لندن)و(لشبونة)و(موسكو) إلى تقدم وفي ازدهار».

ولا تجد مثالا لهذا التجلد والعكوف على اللذة؛ واللهو في أشد ساعات الحرج وفي آخر ساعات العمر إلا في يونان وروما في العهد القديم.

وقد روي مراسل (رويتر) كيف استقبل المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية العام المقبل وودع العام الراحل، وذلك في يوم عصيب من أيام الحرب يلجأ فيه الإنسان إلى الله، ويفيق السكران ويخشع القاسي، وإليك نص البرقية:

«واشنطن.. اليوم الأول من يناير (عام ١٩٤٢م) البارحة لما كان العام الجديد يلتقي بالعام المنصرم، وكان المستر تشرشل رئيس الوزراء مسافرا من كندا إلى الولايات المتحدة في قطار رسمي، خرج رئيس الوزراء مستصحبا سير شارليس بورتل بغتة، ودخل مطعم القطار والسيجار في فمه وكأس شمبانيا في يده، وتعجب ممثلو الصحف الذين كانوا سائرين معه، تناول المستر تشرشل الكأس مبتسما وقال: «باسم عام ١٩٤١م ذلك العام القائد إلى الاجتهاد والتعب والفتح» في ذلك الوقت لفظ العام الراحل نفسه الأخير وتنفس العام الجديد، وأعلنت الساعة بوفوده، وهنأ الصحفيون ورؤساء القطار المستر تشرشل، وأخذ رئيس الوزراء يد سير شارلس بولتر بيد، وأخذ يد كاربورل هارنر بيده الأخرى وأخذ كل واحد بيد الآخر، وبدؤوا يغنون في رقصة، وانطلق المستر تشرشل إلى الباب، وقال: ليهنكم جميعا، ورزقنا الله الفتح. وجعلت الجماعة تغني في حدة وتصفق، وخط رئيس الوزراء حرف V وانصرف إلى عربته سعيدا مسرورا».

قارن هذه الطبيعة المادية بالنفسية الدينية وتعاليم الدين وعمل المتدينين وسيرتهم في الحروب والأخطار، ففي القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]. وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة(١)، وفي سيرة ابن هشام في وقعة بدر الكبرى قال ابن إسحاق: ثم عدل رسول الله ﷺ

(١) عن حذيفة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، (رواه أبو داود).

الصفوف، ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق ﷺ ليس معه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد**».

والمادية لأسباب حتمية طبيعية وتاريخية وعلمية قد أصبحت شعار الحضارة الغربية والحياة الغربية منذ عهد عريق في التاريخ، ولم تزدها النشأة الجديدة والنهضة العلمية والسياسية في أوروبا إلا حدة وقوة، وقد لاحظ هذا الامتياز كثير من علماء الغرب والشرق، فمن علماء الشرق الأستاذ الألمعي الرحالة ذو النظر الثاقب عبد الرحمن الكواكبي في مستهل هذا القرن، فقد قال في كتاب (طبائع الاستبداد):

«الغربي مادي الحياة، قوى النفس، شديد المعاملة، حريص على الاستئثار، حريص على الانتقام، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق؛ فالجرماني مثلا جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت، ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال، ويحب المجد ولكن لأجل المال، واللاتيني منه مطبوع على العجب والطيش، يرى العقل في الانطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشرف في الزينة واللباس، والعز في التغلب على الناس».

وهذا تصوير صادق للطبيعة الأوروبية وتحليل صحيح للنفسية الغربية، ولا نظن المرحوم الكواكبي قد تحامى الكلام على غير الجنسين الألماني واللاتيني إلا تفاديا من الوقوع في العنت، فجعل الألماني واللاتيني مثلا لسائر الأوروبيين.

الغايات المادية للحركات الروحية العلمية:

ترى هذا الروح المادي في جميع نظم أوروبا السياسية والاجتماعية والخلقية التي ابتكرتها أو جددتها شعوبها لهذا العهد، حتى إن الحركة الروحية التي شغلت الناس كثيرا في أوروبا في الزمن الأخير إنما روحها المادية، فقد أصبحت صناعة وفن كسائر الصناعات والفنون في أوروبا، غايتها مشاهدة عجائب إقليم الروح والاطلاع على أسرارها، والتحدث إلى أرواح الموتى وترويح النفس والتلهي، وليست من تزكية النفس وتصفية القلب والخشوع لله والعمل الصالح والاستعداد للموت والصبر على مكاره الحياة وهضم النفس في شيء، خلافا للحركة الروحية والتصوف في الشرق الإسلامي.

كذلك الأعمال التي يضحي فيها الناس بنفوسهم وأرواحهم في الغرب إنما ترجع في

الغالب إلى غايات مادية؛ كحسن الأحدوثة وانتشار الصيت وخلود الذكر في التاريخ والتبريز على الناس، وأن يتمجد به شعبه ويفتخر، ويتشرف به وطنه ويغتبط، خلافا للأعمال التي يبتغي بها وجه الله؛ فالمسلم يخاف أن يشوب عمله شيء من الرياء والسمعة فيحبطه، ويسمع قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ **[الكهف:١٠٣-١٠٥]، وقوله عز وجل:** ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ **[الفرقان:٢٣]، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل الذي يقاتل شجاعة ويقاتل رياء: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»** (١). **وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحا، واجعله كله لوجهك خالصا، ولا تجعل لغيرك فيه شيئا». واجتهاد الصالحين من هذه الأمة في إخفاء عبادتهم وصدقاتهم معروف في كتب التاريخ والسير.**

التصوف المادي الغربي ووحدة الوجود الاقتصادي:

وقد بلغ النظر المادي والفكر المادي في أوروبا درجة الاستغراق فيه والفناء، ونسيان ما سوى القيم المادية، ولنضرب بذلك مثلا بكارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣م مؤسس الفلسفة الشيوعية:

يرى كارل ماركس أن النظام الاقتصادي هو روح الاجتماع، وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادي، هو يقول: إن في كل عصر وفي كل دور من أدوار التاريخ طريقة خاصة للإنتاج الصناعي، وعلى وفقها تتعين العلاقات الاجتماعية، ولكن بعد قليل لا تبقى هذه العلاقات الاجتماعية متوافقة متناسبة مع طرق الإنتاج، ويجتهد بعض الناس لتشكيل هذه العلائق تشكيلا جديدا، وهذه هي التي تعرف في التاريخ بالانقلابات والثورات. والمؤرخ يجهل ماهيتها ولكن لا غرابة في ذلك، فإن الذين يشتركون في هذه الثورات قد لا يشعرون أنفسهم بالغاية التي يقاتلون لأجلها، ولكن يمكن لنا أن نحل هذه الألغاز ونعلم أن الارتقاء السياسي والتعديلات والتحسينات في النظم السياسية وما يطرأ عليها من التغيير والتطور ليست إلا صورا جديدة

---

(١) صحيح: رواه مسلم.

للعلائق الاجتماعية، تظهر لتجعل هذه العلائق متناسبة متوافقة بطرق الإنتاج الجديدة من جديد، ولما كان الاختلاف بين طرق الإنتاج الصناعي والعلائق الاجتماعية التي تقوم عليها مستمرا فيكون الجهد لتطبيقها مستمرا أيضا، وإذا تجاوز الاختلاف واشتد ظهر في شكل ثورة، ولكن لا ينبغي لنا- إذا لم تكن الاختلافات واضحة- أن ننفي وجودها وننكرها، والاختلاف بين مناهج الإنتاج الصناعي والوشائج الاجتماعية يظهر في حرب الطبقات، لأن جميع طبقات الاجتماع إنما هي أجزاء النظام الاقتصادي، ويستنتج من ذلك كارل ماركس أن التاريخ البشري- غير العهد الذي كانت الحياة البشرية في طفولتها- ليس إلا قصة حرب الطبقات الاجتماعية المختلفة.

وهكذا جحد الرجل جميع نواحي الحياة البشرية غير الناحية الاقتصادية، ولم يعر غيرها شيئا من العناية، ولم يقم للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزنا وقيمة، ولم يعترف أن أحدا منها كان عاملا من عوامل التاريخ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم تكن إلا ثأرا لبطن من بطن، وجهادا في سبيل تنظيم جديد للنظام الاقتصادي وطرق الإنتاج الصناعي، وحتى الحروب الدينية لم تكن عنده إلا حروب الطبقات الاقتصادية استأثرت إحداها بموارد الثروة ووسائلها وطرق الإنتاج، واجتهدت الأخرى في أن تنافسها وتتناول قسطا أو أن تنظمها من جديد فوقعت الحرب، ويجب أن تكون كذلك في رأيه (بدر) و(أحد) و(الأحزاب) و(القادسية) و(اليرموك)، ووقائع ومعارك حفظها التاريخ.

فهذا هو -كما ترى- التصوف المادي الغربي، وهذه هي فلسفة وحدة الوجود: وحدة وجود الاقتصاد، ولما كان الشرقيون إنما يغلبهم الروح الديني والتأله- نفي المتألهون منهم والمغلوبون وجود كل شيء سوى الله، وهتفوا في سكرهم وغلبة الحال عليهم: لا موجود إلا الله؛ ولما كان المفكرون الأوروبيون إنما تغلبهم المادية، نفوا وجود كل شيء سوى الناحية الاقتصادية، وهتفوا: لا موجود إلا البطن والمعدة.. إن صوفية الشرق كانوا يرون الإنسان ظلا ربانيا، أما الماديون في الغرب فلا يرونه إلا وجودا بهيميا حيوانيا.

نظرية دارون وتأثيرها في الأفكار والحضارة:

وساعدهم في وجهة نظرهم هذه في جميع مسائل الإنسان وزاد الطين بلة، النظرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر عن ارتقاء الإنسان، وكونه حيوانا مترقيا عما دونه من الحيوانات، لم يزل يختار بمرحلة بعد مرحلة في رحلته النوعية التي استغرقت ألوفا من

السنين، ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر، من أميبا (Amoeba) إلى قرد، ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعي، وزعيم هذه النظرية وبطلها دارون الذي ظهر كتابه أصل الأنواع (Origin of Species)سنة ١٨٥٩م، فكان حديث النوادي والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل، وكانت هذه النظرية اتجاها جديدا لم يسبق في المسائل البشرية وما يتعلق بها، تقلب تيار الفكر، وتصرف نظر الإنسان في الاستعلام والاستهداء في مسائله وفي تاريخ من الإنسان إلى الحيوان، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية، وبغير أن تتدخل فيه قوة غير طبيعية، وأن لا علة في الكون سوى السنن الطبيعية، وأن الموجودات ترتقي من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليا بعمل فطري تدريجي عار عن العقل والحكمة، وأن الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم، بل هو نتيجة نواميس طبيعية، انتهى بها التنازع للبقاء وناموس بقاء الأصلح والانتخاب الطبعي الذي هو سائر في الكون إلى إنسان ناطق ذي شعور.

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل في المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العملية واضحة، بل كان هذا دينا جديدا يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله، فلا غرابة إذا اضطرب لها رجال الدين، وحسبوا لها كل حساب، وخافوا علي مصير الدين في أوروبا.

يقول الأستاذ جود في كتابه:

«يصعب علينا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستغراب الذي فاجأ أجدادنا عندما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون، وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت - أو يظن أنه أثبت- أن عمل ارتقاء الحياة على كوكب (الأرض) لم يزل مستمرا متواصلا من ظهور الأميبا(Amoeba) وفرخ البحر(Jelly Fish) في أشكاله الأولى إلى أشكاله النهائية العليا، وهي أرقى أشكال الحياة وأعلاها، فلم يزل عمل الارتقاء من الأميبا إلى طورنا متواصلا غير منقطع.

بالعكس من ذلك فإن الذين عاشوا في عصر فكتوريا إنما أرشدوا أن الإنسان خلق مستقل، وهو في الحقيقة نوع من ملك منحط، أما إذا كان دارون مصيبا فالإنسان لم يكن إلا قردا راقيا، فعز على أهل عصر فكتوريا أن يكون الإنسان قردا راقيا بدل أن يكون ملكا منحطا، وما طابت لهم هذه النظرية، واجتهدوا أن يخلصوا الإنسان من هذه السبة التي لحقتهم من هذه العقيدة في الإنسان، واقترحوا لذلك اقتراحات» (١).

---

(1) Guide to Modern Wickedness, P.235-236.

إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء:

ولكن الجمهور والدهماء من الناس تلقوا هذه النظرية بالقبول- رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية- فهموها أو لم يفهموها، وكأن الأذهان كانت متهيئة لمثل هذه النظرية، وكأن الناس وجدوا فيها منافسا للدين ورجاله، وصعب على رجال الدين أن يعارضوا هذا التيار الجارف من أفكار الناس وأذواقهم والسيل العرم من المنشورات والمحاضرات، فوضعت الكنيسة أوزارها في هذه الحرب، حتى إذا مات دارون سنة ١٨٨٣م منحته الكنيسة الإنجليزية أكبر شرف تمنحه لإنسان، وذلك بأنها أذنت بدفنه في وست منسترايبي محل دفن الرجال الدينيين.

وكان تأثير هذه النظرية بعيدا عميقا في الأفكار والحضارة والأدب والسياسة، تراه وتلمسه في أخلاق الناس، وفي نزعات الرجوع إلى الفطرة وإلى العهد الذي كان الإنسان يعيش فيه على الفطرة عاريا حرا، وفي تعيين المثل الكامل للإنسان وفي جميع الأعمال والأخلاق التي لا تصدر إلا على تسليم أن الإنسان إنما هو حيوان راق، وفي فساد الحياة المنزلية الذي يعبر عنه المستر شيدر أحد علماء الإنجليز بقوله: «لقد ظهر في إنجلترا جيل من الناس يجهل الحياة المنزلية جهلا باتا، ولا يعرف غير حياة القطعان والبهائم».

من جنايات المادية:

وكان من نتائج هذه المادية الجارفة، والتربية اللادينية التي ليس فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عز وجل والإيمان بالآخرة، أن أصحاب المراكز الكبيرة، ورجال السياسة والمسؤولية يرتكبون في بعض الأحيان جنايات لا يتنزل إليها أكبر الآثمين، وذلك لمصلحة سياسية وهمية لبلادهم وأمتهم أو لجاه شخصي أو ربح مالي، فمن أغرب ما روي في تاريخ البشر من القسوة والظلم، أن الإنجليز قد أوقعوا في بنغال (الهند) مجاعة مزورة غير طبيعية، لأنهم منعوا استعمال القوارب التي يحصد الناس عليها مزارع الأرز- وهو غذاء بنغال- واحتكروا الحبوب في مقدار عظيم للجند، ولم يمكنوا الناس منها حتى فسدت وضاعت، ومات مئات الألوف من الناس جوعا، والحبوب وفيرة في البلاد، والمواصلات ميسورة، والقطر غادية رائحة، والهند بلاد مخصبة تستطيع أن تغذي بلادا أخرى، وذلك كله لما توقعوه من إقبال الناس على التجنيد، وليبرهنوا على فشل الحكم الذاتي في إدارة البلاد.

وقد تغافل لورد ماونت بيتن حاكم الهند العام سنة ١٩٤٧م عما يدبر من الفتك بالمسلمين في دلهي وبنجاب الشرقية، فقد اتصلت به أنباء المؤامرات والخطط التي كانت تبيت ضد العنصر الإسلامي في هذه المنطقة، أنذره الخبراء بوقوع اضطراب طائفي هائل، فنام على كل ذلك انتقاما من أن المسلمين لم ينتخبوه حاكما عاما لباكستان كما فعل أهل الهند، ولتكون هذه الاضطرابات الطائفية والحروب الأهلية حجة على عدم أهلية أهل البلاد للاستقلال، وكونهم عيالا على الإنجليز في الأمن والنظام، فكان نتيجة ذلك، تلك المجزرة البشرية الهائلة التي عقمت القرون أن تلد مثلها.

ومن ذلك أن (ريد كلف) الذي اختاره الفريقان الهنديان حكما في مسألة بعض مدن بنجاب هل تنضم إلى هندوستان، أو إلى باكستان حكم حكما جائرا، فكان نتيجة ذلك جلاء المسلمين من فيروزوبور، وكورداسبور، ومتاعب عظيمة، وخسائر كبيرة في النفوس والأموال.

أما تأييد واشنطن والرئيس الأمريكي (ترمان) للصهيونية، ودولة إسرائيل في فلسطين، ومعارضة القضية العربية التي لا غبار عليها، ليكسب ود اليهود والتمتع بنفوذهم السياسي والمالي والصحافي، وليكسب انتخابه، وتعاميه عن براهين الدول العربية الساطعة، وسكوت أمريكا على فظائع فرنسا في الجزائر، ووقوفها بجوار هذه الدولة الجائرة في قضية الجزائر العربية الإسلامية، وتعاون القوى الغربية الكبرى على الإثم والعدوان، فقضية تنبئ عن ضعف أخلاق العظماء في أوروبا وأمريكا، ودوران الحياة السياسية على الفوائد لا المبادئ.

الفصل الثاني:

القومية والوطنية في أوروبا

انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية:

قدمنا أن الوطنية والقومية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافي من خصائص الطبع الأوروبي الذي سرى في العنصر الأوروبي مسرى الروح، وجرى منه مجرى الدم، وأصبح طبيعة ثانية له، ولكن النصرانية قهرت هذه الطبيعة، لأنها- على علاتها، وبرغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل- لا يزال عليها مسحة من تعليم المسيح، وفيها أثارة من علمه؛ والدين السماوي مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان، ولا يفرق بين الأجناس والألون والأوطان، فجمعت النصرانية الأمم الأوروبية تحت لواء الدين، وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلبت العصبية القومية والنعرة الوطنية، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة.

ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣-١٥٤٦م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية، ورأي من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه، ونجح في علمه نجاحا لا يستهان بقدره، وانهزمت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الأمر وانفراط عقدها- استقلت الأمم، وأصبحت لا تربطها رابطة؛ ولم تزل كل يوم تزداد استقلالا في شؤونها وتشتتا، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها في أوروبا قويت العصبية القومية والوطنية، وكان الدين والقومية ككفتي ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم، ولم تزل كفة منافسته راجحة، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزي المعروف لورد لوثين Lord Lothian السفير البريطاني السابق في أمريكا في خطبته التي ألقاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٣٨م:

«لما قضت حركة لوثر التي تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوروبا الثقافية والدينية، انقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة، وأصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرا خالدا على أمن العالم».

وكانت نتيجة الانحطاط الديني، وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق، رجحان كفة

الوطنية والقومية؛ يقول (لورد لوثين) في نفس هذه الخطبة:

«إن الدين الذي هو المرشد اللازم للإنسان والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الخلقية، والشرف المعنوي للحياة البشرية، كان نتيجة الانحطاط في سلطانه أن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات، وآمن - بتأثير العلوم الطبيعية- أن الرقي المادي هو الغاية العليا، والوطر الأكبر،، ولا يزال يزيد هذا الأمر في مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها وكان من نتائج ذلك أيضا أنه صعب على أوروبا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقا ينقذها من القومية، داهية هذا العصر الكبرى»(١).

طرائف العصبية القومية في أوروبا:

كانت نتيجة انحلال النظام الديني وانتعاش النعرة القومية أولا، أن أصبحت أوروبا معسكرا واحدا ضد الشرق كله، وخطت خطا فاصلا بين الغرب والشرق، أو بين أوروبا وبين سواها من القارات والأقاليم. والجنس الآري وبين ما عداه من أجناس البشر، يعتقد أن كل ما دون هذا الخط له الفضل على كل ما وراءه من نسل وشعب وثقافة وحضارة وعلم وأدب، وأن الأول خلق ليسود ويحكم، والثاني ليخضع ويدين؛ والأول ليبقى ويزدهر، والثاني ليموت ويضمحل؛ وهذا بعينه ما امتاز به اليونان والروم في عهدهم، فقد كانوا لا يعدون مهذبين إلا أنفسهم فقط، وكانوا يسمون كل شيء غريبا، خصوصا كل ما كان واقعا في شرق المحيط الأطلانتيكي: بربريا.

وكان نتيجة هذه النفسية الجنسية والعصبية ضد كل ما جاء من الخارج ويعزى إلى أجنبي، أن صارت بعض الشعوب الأوروبية تنظر إلى الدين المسيحي وإلى المسيح كطارئ ونزيل، يريدون أن ينفوه من بلادهم ويتبرؤوا منه، يمثل ذلك ما قال أحد المعلمين في ألمانيا وهو البروفيسور أترني:

«لأي شيء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحاق؟ ينبغي أن يكون إلهنا أيضا ألمانيا».

ونشأت في ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لكونه من بني إسرائيل، والذين لا يزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية،

(1) Convoation Adress of Lord lothian at Muslim University Aligrah.

وظهرت في ألمانيا نزعة إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التي كان يعبدها الشعب الألماني في عهده القديم.

وليست روسيا العالمية بأقل حماسة للعصبية الجنسية والوطنية من منافسها القديم ألمانيا. فيعتقد الناس في روسيا أن أغلب الاختراعات الكبرى في العصر الحديث إنما يرجع الفضل فيها إلى الروس.

فليس (لافوازييه) هو واضع القانون الخاص بتركيب الأجسام، بل هو مدين بما ينسب إليه للعالم الروسي (ميشيل لوموتوسوف)، وليس (لأديسون) فضل في استخدام الكهرباء في الإضاءة فقد سبقه (لووجين) الروسي بست سنوات إلى ذلك، ونشرت جريدة برافدا: أن العلماء الروسيين توصلوا إلى اختراع التلغراف قبل (مورس)، وإلى تسيير القاطرة البخارية قبل (ستفنسن)، إلى غير ذلك من تحديات للتاريخ، ليس الباعث عليها إلا العصبية الجنسية وتقديس (روسيا).

عدوى القومية في الأقطار الإسلامية:

ومما يدعو إلى الأسف والاضطراب، أن هذه العدوى القومية قد سرت إلى بعض الأقطار الإسلامية، التي كان يجب وكان من المترقب أن تكون زعيمة لدعوة الإسلام العالمية، حاملة في عصرها لرسالة الأمن والسلام، وأن تكون جبهة قوية ضد القومية والوطنية، وذلك بانحلال الدين في هذه البلاد، وبتأثير الآداب الأوروبية والحضارة الغربية، فترى في الترك النزعة الطورانية، والدعوة إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها، والنظرة إلى الدين الإسلامي الذي انتشر على أيدي العرب وشريعة الإسلام وثقافته ولغته نظرة تشبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى الأديان التي جاء بها الأنبياء من غير النسل الآري والآداب السامية وثقافتها، فاعتقد بعض المفكرين في تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارئ غريب لا يصلح للترك، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامي، تقول الفاضلة خالدة أديب هانم عن (ضياء كوك ألب)- وهو من كبار مؤسسي تركيا الجديدة أدبا وتهذيبا.

«كان ضياء كوك ألب يريد أن ينشئ تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين وبين أسلافهم الطورانيين، فقد كان يريد أن يقوم بإصلاح مدني بواسطة المعلومات التي جمعها عن التنظيمات السياسية والمدنية في عهد الأتراك قبل الإسلام، كان ضياء يعتقد

ويؤمن بأن الإسلام الذي وضعه العرب لا يصلح لشأننا، ولابد لنا من إصلاح ديني يوافق طبائعنا إذا لم نرجع إلى عهدنا الجاهلي»[١] .

ومما لا شك فيه أن هذه النزعة قد وجدت في الترك وكذلك في الإيرانيين في الزمن الأخير:

قال الأمير: (شكيب أرسلان) -رحمه الله- وهو الخبير الثقة فيما يتعلق بالترك فضلا عن العرب- لطول مكثه في تركيا- وكان عضوا في مجلس الأمة:

«وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية تخالف الفئة الأولى- أي فئة تقول بالقومية العثمانية الإسلامية في كل هذه النظريات- وأشهر دعاتها ضياء كوك ألب، وأحمد أغاتف ويوسف أقشورا اللذان قدما من روسيا، وجلال ساهر، ويحيى كمال، وحمد الله صبحي رئيس وجاق (ترك بوردي)، ومحمد أمين بك الشاعر الملي، وكثير من الأدباء والمفكرين، وأكثر الطلبة والنشء الجديد. وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجدا، وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودا واحدا، ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية، ولم يقتصروا منها على الترك الذين في سيبريا وتركستان والصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملي، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول في الصين، وإلى المجر والفلانديين في أوروبا، وكل ما قال إنه ينتمى إلى أصل طوراني.

وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون، فهم ترك أولا ومسلمون ثانيا، وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية، فتكون عندئذ واسطة لا غاية، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا: نحن أتراك فكعبتنا طوران، وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئا من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم»[٢] .

وقال أيضا:

---

(١) محاضرات (خالدة أديب هانم) في الجامعة الملية بدهلي.

(٢) من حواشي الأمير (شكيب أرسلان) على (حاضر العالم الإسلامي): ١ / ١٥٨-١٥٩ .

«هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى اقتداء بالأمم الأوروبية في الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذي قبل، وذلك نظير ما حصل عند الترك، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دينفارس القديم، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة، وقال لهم المرحوم (موسى كاظم) شيخ الإسلام- وهو الذي أخبرني بذلك: إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان، ولكنهم اقتلعوها بالإسلام، وافتخروا بأن الله لطف بهم وأنقذهم منها فرفعوا عن مستوى تلك السفالات، وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارئ تعالى، وتتذاكروا عبادة الذئب الأبيض، فيا للأسف!!.

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن دياناتهم القديمة التي منها الكيومرتية (أي تعظيم النور) والتحرز من الظلمة، ومن هنا جاءتهم عبادة النار، ومنها فرقة (زرادشت) الذي كان يدعو إلى وحدانية الله ويقول: إنه خالق النور والظلمة، وإن الخير والشر إنما حصلا بامتزاجهما، وإنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم. إلى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس: كالثنوية، والزرادشتية، والمانوية، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو إلى الإلحاد والإباحية»(١).

الفكرة القومية في العرب:

وكان أدهى من كل ذلك وأمر، أن سرت عدوى القومية إلى العرب آخر القرن التاسع عشر الميلادي، الذين ظلوا ثلاثة عشر قرنا يدعون إلى الأخوة البشرية، والمساواة الإنسانية، بحكم تعاليم دينهم الذي اختارهم الله له، وامتزج بدمائهم ولحومهم، وأصبحت لهم طبيعة لا تفارقهم، وذلك بحكم عوامل، بعضها داخلية وبعضها خارجية أجنبية.

فمن أهم العوامل الداخلية، الكبرياء القومية، التي تظاهر بها بعض الحكام الأتراك، والغطرسة التي ظهرت في بعض معاملاتهم وتصرفاتهم، والتي كانت تشعر كثيرا من العرب، الذين عندهم حساسية زائدة، بأنهم أمة من الدرجة الثانية، أو يشمون فيها رائحة الاستعمار، وقد أعان على ذلك عدم إحلالهم اللغة العربية المحل اللائق، والنظر إلى اللغة

(١) حواش حاضر العالم الإسلامي: ١ / ١٦٤-١٦٥ .

التركيـة، كلغة الشعب الحاكم، وكاللغة الرسـمية، إلى غير ذلك من الأخطاء السـياسية، فضلا عما توجبه الجامعة الإسلامية، التي نادى بها الأتراك في العـهد الأخير، فأثار ذلك في العرب النقـمة، والنخوة العربيـة، وأضرمها، وعـمل في تعميق جذورها بعـض كبار المثقـفين المسيحيين، الذين لم تربطـهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين، والإخـاء الإسلامي بطبيعة الحال، وتلقوا الثـقافة الغربية التي قد سرى في أدبها وشعرها، وفلسفتـها وسياستها تمجيد العنصر والجنس، والفكرة القومية.

وجاء العامل الثـاني الأجنبي، فانتهز دعـاة الغرب، والقادة السياسـيون، الذين كانوا يحلمون من القـديم، بانهيار الإمـبراطورية العـثمانيـة، وانفراط عقـدها، وزوال سلطانها ونفوذها الـروحي والسياسي من الشـرق، فاحـتضنوا هذه الفكرة التي قـد دب دبيبـها في عروق بعض الشـباب العرب الطامحين وبدؤوا يغـذونها بكتاباتهم ومؤلفـاتهم، ورحلاتهم وجولاتهم في المدن العـربية الكبرى، واتصـالاتهم بقادة الرأي، وحملة الأقـلام، ورؤساء القبائل والطوائف في العالم العربي، ويوحون إليهم- متقنعين بالحب للعرب، والدفاع عن حقهم- بنقل مـركز الخلافة من الأسـتانة، التي اغتصبـته في القرن العاشـر الهجري، إلى مكانها الشـرعي الطبيعي فـي أحد الحرمين الشـريفين، أو إحدى عواصم الأقطار العـربية الإسلامية، وكيف تسربت هذه الفكرة إلى عقـول العرب، وكيف بدأت تعمل عملها، وما هو الدور الذي لعبه المفكرون الغربيون في ولادتها، ثم في إرضائها، وتغذيتها، ونقلها من مكان إلى مكان؟ نقـرأ ذلك واضحـا، فـي ما ننقلـه من كتـاب (مسـتقبل الإسـلام) (Future of Islam) الذي ألفه المسـتر ولفـرد بلنـتي في سنة ١٨٨٢م، وقد كـان لهـذا الكتـاب صدى واسع في الأوساط العربية والإسـلامية، وترجم إلى العربية والأردية، وصدرت له عدة طبعات.

يقول المستر بلنتي في مقدمة الكتاب:

«إن زعماء مصر اختاروا طريقا وسطا مقتصدا إزاء قضية الخلافة، وإنهم ركزوا قوتهم على (الحرية) وضغطوا عليـها، ولم يقفوا موقف المنازع والمعـارض، إنهم لم يحدثوا ثغرة في الإسلام، وما أرادوه، فـالسلطان عبد الحميـد خان لا يزال يعترف به كـأمير المؤمنين، وهو أحق بهذا المنصب، وأولى به بالنسبة إلى غيره، وقـد أجلت النشأة الثانية للخلافة إلى وقت تموت فيه الخلافـة العثمانية حتف أنفها، إنه مـوقف رصين هادئ للمصريين، وحرى بهم أن يفعلوا ذلك».

ويستطرد قائلا :

«إنه يمكن أن يتحول هذا الانتصار- إذا صبرنا سنوات قليلة- إلى انتصار أوسع وأشمل، إنه لا يماري فيه إلا القليل، وإن وفاة السلطان عبد الحميد أو انعزاله عن الحكم، سوف يؤدي إلى نقل مركز الخلافة إلى القاهرة، ويتيح للعرب أن يستردوا قيادتهم الدينية (المفقودة) من جديد».

ويقول في موضع آخر من الكتاب في باب (مكة، العاصمة الحقيقية):

«لقد بدا لعقلاء المسلمين واضحا جليا، أنه إذا بدأنا في الرحلة إلى الوراء(١) ، فنضطر إلى قطع شوط بعيد، إن مركز الدين وعاصمته في جزيرة العرب، وهي مهد الإسلام، ومهبط الوحي والإلهام، وهي البلد الوحيد الذي يتمتع بجميع صفات الحكم الديني، ويستطيع أن يزاوله إلى أبعد الحدود، ولا يوجد فيها المسيحيون واليهود، فيضطر إلى خلاف معهم ونزاع، ولا هو ببلد خصب غني، يسيل عليه لعاب الدول الغربية، والخليفة هناك لا يخشى إنذار سفير إنجليزي أو فرنسي، وتهديد مبعوث أجنبي، إنه يستطيع أن يتصرف بحرية شأن نائب الرسول، ويكون الإسلام صافيا نقيا من جميع الشوائب والأدران، لذلك كله من المحتمل أن تعود الخلافة إلى أهلها في مكة أو المدينة».

ويمضي قائلا:

«إن نقل العاصمة الروحية من القسطنطينية إلى مكة عملية طبيعية سهلة لا تغير في الأفكار والمعتقدات الراهنة للجمهور، ويتفق مع آراء العلماء واتجاهاتهم كل الاتفاق، إن مكة والمدينة هما المأوى الشرعي والملاذ الروحي لأهل الحل والربط، وستكونان مركز القوة الروحية، وقد وافق على هذا الرأي كل من تحدثت إليه في الموضوع، وآمنوا بأن جميع العلماء سيوافقون على هذه الفكرة عدا أصدقاء تركيا، أما أنا فإني أرى أن مكة هي المقر الرئيسي للخلافة، كنا نسمع منذ زمان هذه الجملة السائرة أن (رومة هي العاصمة)، كذلك جملة (مكة هي العاصمة) تؤثر تأثيرا بالغا في الأذهان، فإذا أضيف إليها (أن الخلافة في قريش)، فإنه يثير على أقل تقدير اهتزازا ونشوة في العرب الأقحاح، إن العنصر العربي بلا شك يؤيد مثل هذا الخيار، ولا يغيب عن بالنا أن منطقة نفوذ العرب تمتد من مراكش

(١) يريد نقل مركز الخلافة من القسطنطينية إلى مكان ما في آسيا.

إلى بوشهر، كما يقع في هذه المنطقة مسلمو الهند والملايو، بل إن كل عنصر إسلامي أينما كان يدور في هذه الفلك، ما عدا الأتراك لا يزالون يفقدون أهميتهم على مر الأيام(١).

ونشبت الحرب الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) وسنحت للأقطار العربية فرصة الانشقاق عن الإمبراطورية العثمانية، وانتهز الحلفاء هذه الفرصة الذهبية، فنفخوا في قربة القومية، وقام لورانس الداهية بدوره، فأشعل الحماس القومي، وأثار العرب على الأتراك، وثار الشريف حسين في الحجاز، وأهل الشام في الشام، وفضلوا الانضمام إلى راية الحلفاء على البقاء في جوار الأتراك المسلمين، الذين كانوا رمز قوة الإسلام، وشوكته، وتناسوا نصوص القرآن والسنة في هذه القضية، واعتمدوا على الوعود الخلابة، والسياسة المتقلبة، التي لا تعرف إلا المصلحة، ولا تعبد إلا القوة، وكان من قيام الحكومة العربية الهاشمية في سورية، ثم نقض الحلفاء للعهود وتجاهلهم لها بتاتا، وانهيار هذه الحكومة السريع ما علمه الجميع.

ثم جاء مفهوم القومية العربية (وهو مفهوم غربي) ، وهي فكرة مستقلة، وفلسفة بذاتها، لها كل ما للدين من حمية وحرارة، وشعائر ومقدسات، فخضع لها العرب المثقفون- خصوصا الشباب- الذين ضعفت صلتهم بالدين لأسباب كثيرة، ونشأت فيهم الرغبة الشديدة لنيل المجد والعظمة في أقرب وقت، ومجاراة الشعوب الحرة الراقية في مضمار المدنية والتقدم، ولم يجدوا لذلك سبيلا - بزعمهم- إلا (القومية العربية)، ونشأ فيهم اليأس والتذمر من الأوضاع القائمة واليأس من الأمم الغربية التي أوجدت إسرائيل، ولا تزال تعطف عليها وتتبناها، فالتجؤوا إلى القومية العربية كرد فعل عنيف وثورة فكرية، وغلا فيها بعض الغلاة، فتوصلوا إلى إنكار كل ما عداها، ومحاربة كل ما سواها، إلا أن هذه الفكرة- التي التجؤوا إليها كأقوى سلاح في وجه العدو، وأكبر وسيلة لرد ما فقدته الأمة العربية من شرف واعتبار- قد فقدت الشيء الكثير من الثقة والحماس، بعدما لم تعط ثمرتها المطلوبة، ولم تحقق المعجزة في حرب العرب وإسرائيل في عام ١٩٦٧م.

الديانة القومية الأوروبية وأركانها:

والخطوة الثانية في هذا الطريق أن أصبحت الشعوب والدول في أوروبا، الصغيرة منها والكبيرة، عوالم مستقلة لا ترى العالم خارج الخطوط التي خطتها الطبيعة من جبال

---

(1) Future of Islam.

وأنهار، أو خطتها بيدها من غاية سياسية واستعمار، ولا تعترف بوجود الإنسان في غير منطقتها فلا تحترمه ولا تعرفه، واتخذت نفسها إلها تدين له بكل ما يدين به العباد المخلصون من عبادة وتقديس، وأضاح هي دماء الآخرين ونفوسهم وأموالهم وبلادهم، وقتال في سبيله، وتفان في طاعته، ومحيا ومات لأجله.

وهذا الدين القومي يشتمل على شيئين: إيجابي وسلبي، أما الإيجابي فهو الاعتقاد بأن الشعب أو الأمة فوق كل شيء، وأفضل من كل شيء، وأن الله- إذا كانت الأمة تعترف به وتعتقد أو ترى أن من المصلحة أن تستغل هذه الكلمة- لم يخلق أفضل من هذه الأمة، ولا أنجب منها، ولا أزكى ولا أقوى ولا أحق بالحكم والسيادة والولاية على الأمم، والرعاية للعالم منها، وأنها أمينة ووكيلة ووصية في الأرض، ولم يخلق بلادا أحب إليه من هذه البلاد، ولا تربة أزكى من تربتها، وهذا الدين القومي الذي لا يسمح لإنسان أن يعيش في بلاده حتى يؤمن به.

ولا تختلف شعوب أوروبا الحاضرة ودولها في هذه الديانة القوية إلا في الصراحة والنفاق، وأن بعضها تقول وتفعل، وبعضها تفعل ولا تقول، فإن بذرة القومية والوطنية إذا ألقيت في أرض فإنها لا تلبث أن تنشأ وتمد عروقها في الأرض ثم تصير شجرة، فدوحة تظلل الأمة، ولا يمكن لشعب أن يؤمن بالقومية، ثم لا يعتدي ولا يتطاول، أو لا يريد أن يعتدي ويتطاول ولا يمقت الآخرين، ولا يزدريهم. كما لا يمكن أن يسرف الإنسان في الخمر، ثم لا يسكر ولا يهذي كما قال الشاعر:

ألقاه في البحر مكتوفا وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

خصوصا إذا كان العلم والأدب والشعر والفلسفة والتاريخ وحتى العلوم الطبيعية متعاونة على إنشاء العاطفة القومية والنعرة الشعبية والخيلاء الجنسية والفخر بالآباء والتعظيم بالماضي، ولا يكون رادع من خلق ولا وازع من دين، وتولى القيادة رجال لا يعرفون غير القومية والمجد القومي غاية ومرمى.

ومن مقومات هذه الحياة القومية التي لا تقوم بغيرها، الكراهة والخوف، وذلك هو الجزء السلبي في دين القومية، فإن الحماسة القومية لا تظهر ولا تبقى حتى يكون للشعب ما يكرهه وما يخافه، فلا يزال القائدون يثيرون الكامن من عواطفه ويذكون الخامد من حميته، ويضربون على الوتر الحساس وهو الكراهة والخوف، فلولاهما لانقشعت سحابة

القومية وتراجع سيلها.

وقد حلل ذلك الأستاذ (جود) تحليلا فلسفيا نفسيا فقال:

«إن العواطف التي هي مشتركة، والتي يمكن إثارتها بسهولة هي عواطف المقت والخوف التي تحرك جماعات كبيرة من الدهماء، بدل الرحمة والجود والكرم والحب، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما، لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه ويوجدوا له من يخافه، وإذا أردت أن أوحد الشعوب ينبغي أن أخترع لهم عدوا على كوكب آخر- على القمر مثلا - تخافه هذه الشعوب، فلم يعد من دواعي العجب أن الحكومات القومية في هذا العصر في معاملتها لجيرانها إنما تقاد بعواطف المقت والخوف، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها، وعلى تلك العواطف يقوى الاتحاد القومي» (١).

الحل الإسلامي لمعضلة الحرب والمنافسات الشعوبية:

إن هذا الحل الذي قدمه الأستاذ (جود) لمشكلة الأمم ومعضلة الحروب والمنافسات الشعوبية حل عادل وتوجيه معقول، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأمم بعضا لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك في عداوته وكرهه والمخافة منه، وتتعاون في الحرب معه، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد؟ فالدين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنساني ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها، وحق على كل إنسان أن يعاديه ويحترس منه ويتعاون مع بني نوعه في معاداته ومحاربته، يقول القرآن: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨].

وقد قسم الإسلام العالم البشري إلى قسمين فقط، أولياء الله وأولياء الشيطان، وأنصار الحق وأنصار الباطل، ولم يشرع حربا ولا جهادا إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أينما كانوا ومن كانوا، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

(1) Guide to Modern Wickedness.P.150

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

وهذه الحروب التي لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهابا بالنفس، ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء، فلا يربي عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة، ودامت إلى السنة التاسعة على ألف وثمانية عشر نفسا (١٠١٨): المسلمون منهم ٢٥٩، والكفار ٧٥٩[(١)].

أما المصابون في حرب ١٩١٤-١٩١٨م الكونية فيبلغ عددهم على الأصح واحدا وعشرين مليون نسمة[(٢)] (٢١,٠٠٠,٠٠٠) عدد المقتولين منهم سبعة ملايين (٧,٠٠٠,٠٠٠). وقدر المستر مكستن (Maxton) عضو البرلمان الإنجليزي أن المصابين في الحرب الثانية الكبرى ١٩٣٩م، لا يقل عددهم عن خمسين مليونا (٥٠,٠٠٠,٠٠٠) وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه، أما مجموع نفقاتها فيبلغ (٣٧,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سبعة وثلاثون مليار جنيه، أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات (١,٠٠٠,٠٠٠)[(٣)].

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقنة للدماء عاصمة للنفوس والأموال، وفاتحة عهد السعادة والغبطة في العالم، أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التي تدعى الحرب الكبرى فقد كانت مقدمة حروب متسلسلة؛ وإليك ما قال المستر لويد جورج بطل الحرب الكبرى ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ:

«لو رجع سيدنا المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلا، إنه سيرى الإنسان لا يزال بعد ألفي سنة مشغوفا بالشر والإفساد والقتل والفتك ببني نوعه، والنهب والإغارة، بل إنه سيرى أكبر حرب في التاريخ قد استنزفت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى

---

(١) عولنا في هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهير القاضي محمد سليمان المنصور فوري في المجلد الثاني من كتاب (سيرة رحمة للعالمين) ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عددا أقل من هذه الأعداد.

(٢) وقد حقق المستر ه.تاونسند (E.H.Tawansend) في مقالة له نشرتها صحيفة هندو الإنكليزية اليومية (٣١ يناير ١٩٤٣م) أن عدد المصابين في الحرب الكبرى لا يقل عن (٨٨٦ / ٥١٣ / ٣٧) المقتولون منهم (٥١٥ / ٥٤٣ / ٨).

(٣) من مقالة لتاونستد في صحيفة هندو.

أصابت الناس مجاعة، وماذا يرى السيد المسيح يا ترى، هل يرى الناس يتصافحون كالإخوان والأصدقاء؟ لا؛ بل يراهم يتهيؤون لحرب أشد هولا من الأولى وأعظم فتكا وتعذيبا، يراهم يتسابقون في اختراع الآلات الجهنمية ويبتدعون وسائل التعذيب»(١).

وليس اشتغال هذه الشعوب بالعداوة والحروب فيما بينها، وما هذه القومية والوطنية... إلخ إلا لانصراف هذه الشعوب عن عدوها الحقيقي ونسيانها له، فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل، كما قال الشاعر الجاهلي:

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

فإذا عرفت عدوها وعرفت ضرره على نفسها، وعرفت خطره وقوته كان ذلك مشغلة لها عن كل حرب وعداوة وشح ومنافسة وأحقاد وهمية وترات مصطنعة. وقد قالت العرب قديما: «عند الحفيظة تذهب الأحقاد» وهكذا جعل محمد ﷺ من قبائل العرب المتعادية التي كانت سيوفهم تقطر من دمائهم كالأوس والخزرج في المدينة، وبني عدنان وبني قطحان في الجزيرة، والأجناس المتباينة في العالم، أمة واحدة ومعسكرا واحدا إزاء الكفر والجاهلية، إذ جعل لها في خارجها ما تكرهه وتعاديه، وهو الباطل والطاغوت ووكلاؤه وأنصاره، وشغلها بحربه وقرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء:٧٦]؛ فنسيت أحقادها وتراتها، ولم تتذكرها إلا لما انصرفت عن عدوها وتشاغلت عن قتاله ومعاداته، فكانت حروب داخلية وفتن يعرفها الجميع.

دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة:

ولا يزال القوميون في داخل البلاد وخارجها يزينون للشعوب الصغيرة القومية، ويطرون أدبها ولسانها وثقافتها وتهذيبها، ويمجدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانة بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء، وتدل بنفسها، وتظن أنه مانعتها حصونها وما أعدت للحرب، وتنقطع عن العالم وتتحرش أحيانا بالدول الكبيرة غرورا بنفسها، أو تهجم عليها الدول فلا تلبث إلا عشية أو ضحاها، وتذهب ضحية لقوميتها وانحصارها في دائرة

---

(١) وقد صدقت فراسته ووقع تحت أعيننا ما تنبأ به، وقد فاقت هذه الحرب الجارية الماضية فتكا بالأرواح والعمران، وتدميرا للبلدان، ووقائع تشيب لهولها الولدان، وغلاء في السلع وارتفاعا في الأسعار وأصابت الناس مجاعات شديدة في كثير من الأقطار.

ضيقة، ولا يغني أولئك المسؤولون عنها شيئا ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]، كذلك وقع لبولندا وبلجيكا وهولندا ويونان ودنمارك، وهكذا وقع لإيران والعراق في الحرب الثانية.

مطامح الدول الكبيرة:

أما الدول الكبيرة فترى من واجب قوميتها أن تبسط سيطرتها على أكبر رقعة من الأرض، وترفرف أعلامها على مساحات واسعة وإن كانت قفارا أو صحاري، وتكون لها مستعمرات وممتلكات في قارات مختلفة، وإن كان ذلك يكلفها جيوشا وأموالا بغير فائدة جدية، تعود عليها، ويصعب عليها حراستها والقيام بشؤونها، كل ذلك مما توجبه عليها شريعة القومية، وليس لها غاية أخلاقية وثمرة أدبية ما تسميه (المجد القومي والشرف القومي)[١].

وقد شرح الأستاذ (جود) المجد القومي بقوله:

«إن المجد القومي إنما يعني أن يكون الشعب يملك قوة يسلط بها رغبته وهواه على آخرين إذا مست الحاجة، ويكفي لشناعة ما يسمونه (المثل الكامل للشعب) وهو المجد القومي أنه يناقض الصفات الخلقية والفضيلة إذا كانت بلاد لا تقول إلا صدقا، وتفي بوعودها وتعامل الضعفاء معاملة إنسانية فمستوى شرفها عند الأمم منحط، فالشرف- كما قال المستر بلدون- عبارة عن قوة تنال الأمة بها المجد والفخار، وتستلفت إليها الأنظار وتشغل الأفكار، ومعلوم أن هذه القوة التي تنال الأمة بها هذه الدرجة من الشرف إنما تتوقف على قنابل نارية متفجرة ومشعلة للنيران، وعلى وفاء الشبان وولائهم للوطن، الذين يحبون إلقاء تلك القنابل على المدن. فالشرف الذي يمدح لأجله شعب يناقض تلك الصفات والأخلاق التي يمدح بها الفرد، فأرى أن الشعب يجب أن يعد همجيا وغير مهذب بالمقدار الذي يملكه من الشرف، إذ ليس من الشرف أن ينال الإنسان أو الشعب الشرف بالخديعة والمكر والظلم»[٢].

ويقول في موضوع آخر:

---

(١) ومن أمثلتها الواضحة إقحام أمريكا نفسها في حرب فيتنام، وما كلفها ذلك من قيمة هائلة في النفوس والأموال.

(2) Guide to Modern Wicedness.P.153.

«إن الكبر- أكثر من الطمع- هو الذي يحمل الطبقة الحاكمة في بريطانيا على اتباع خطط لا تتفق مع ما يتظاهرون به من حب الصلح والوئام، دع رجلا يقترح على ولاة الأمر في بريطانيا أن يهجروا قيراطا من رمل من ممتلكاتها التي لا تغرب عنها الشمس ومن أشدها قحولة وجدبا، تر المحافظين الأبطال في إنجلترا يقيمون العالم ويقعدونه سخطا وحنقا، وترى الصحافة الإنجليزية المعتدلة تتميز غيظا، إذا تعلم أن هؤلاء المحافظين ليسوا طماعين فقط بل هم مستكبرون معاندون»(١).

منافسة الشعوب في المستعمرات والأسواق:

وقد سبقت إلى هذا الاستعمار والامتلاك أمم وتخلفت أخرى، ثم نهضت الأخيرة تنافسها وتطالب بأسهمها، وتبحث لها عن مستعمرات وأسواق لبضائعها وشرفات تغرز عليها علم المجد والفخار، وتعد بفضلها من الإمبراطوريات الكبار، وقامت الأولى تدفعها وتحول بينها وبين ما تشتهي، وتزعم أنها إنما تغضب للأمم الصغيرة ونصرة المظلوم. ولكن كثيرا من الناس، من أنفسها ومن الأجانب، يشكون في إخلاص هذه الأمم وفي صفاء طويتها وحسن نيتها.

يقول الأستاذ (جود) الإنجليزي- جاهلا أو متجاهلا للمسائل التي أدت إلى قسمة ضيزى للعمران، ضاربا صفحا عن سخط بعض الشعوب مثل اليابانيين، يعتقد أن الإنجليز أمة سلمية ويرمى اليابانيين بحب القتال والضراوة بالحرب: «الإنجليز لا شك أمة سلمية ولكن مسالمتهم مسالمة لص قد اعتزل حرفته القديمة، وقد أحرز شرفا وجاها بفضل غنائمه السابقة، وهو يبغض الذين يدخلون جديدا في حرفته القديمة، عنده فضول أموال وغنائم لا يستهلكها، ولكنه يلقب الذين يريدون أن يساهموا في ذلك بهواة الحرب»(٢).

وكثيرا ما تنشب الحرب بين هذه الأمم السابقة إلى السيادة والتملك وبين هذه الأمم المتطلعة لها الطامحة إليها، ولكن هذه الحرب لا يصح قياسها على حرب تشهر لردع الظالم والانتصار للمظلوم وإقامة القسط ؛عملا بقول الله عز وجل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ [الحجرات: ٩]، ولكن هذه الحرب

(1) Guide to Modern Wickedness.P.180.
(2) Guide to Modern Wickedness.P.180.

حرب شح ومنافسة، وحرب غيرة وحسد؛ ما كانت عصبة أمم (الفقيدة) التي كانت هذه الحروب تشهر تحت إشرافها، ولا خليفتها (الأمم المتحدة) كما قال الأمير شكيب أرسلان:

«مثل العروض بحرا بلا ماء، ما وجدت إلا لتلبس الاعتداء حلة قانونية، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز» أو في لفظ فقيد الإسلام الدكتور محمد إقبال: «جمعية لصوص ونباشين تألفت لتقسيم الأكفان».

قال الأستاذ (جود) الإنكليزي:

«إن حربا تشهر تحت إشراف عصبة الأمم ليست للعدل بين الأمم يقوم بها شرطة العالم للأخذ على يد الظالم وعقاب المعتدي، ليست هذه الحروب إلا كفاحا بين الطوائف المتنافسة في القوة. الواحدة منها حريصة على المحافظة على القسط الأكبر من ثروة العالم وموارده، والأخرى متهالكة على تحصيلها، إن مثل هذه الحرب لا تختلف عن حروب نشبت بين الطوائف المتنافسة في الماضي [١] ولا عن حروب النمسا وبروسيا، وعن حروب السنوات السبع [٢] وعن حروب نابليون؛ وعن حرب ١٩١٤-١٩١٨ . لا تختلف هذه الحرب عن هذه الحروب كلها إلا في الاسم.

أما التذرع بأن هذه الحروب إنما نصبت للدفاع عن الديمقراطية وعن عصبة الأمم، وضد الفاشية والاعتداء فلا يغير من الموقف شيئا» [٣].

الفرق بين حكم الجباية، وحكم الهداية:

روى أن عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين قال لعامله مرة: «ويحك إن محمدا ﷺ بعث هاديا ولم يبعث جابيا». وهذه الجملة تعرب عن روح الحكومة الدينية التي تتأسس على منهاج النبوة، وتسير على آثار الأنبياء وخطتها وساستها، فتكون عنايتها واهتمامها بالدين وبإصلاح أخلاق المحكومين وبما يعود عليهم بالنفع والضرر في الآخرة أكثر من

(١) حرب منافسة وطمع اشتركت فيها فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وهولندا؛ لتناول غنائم انتقصت فيها أطراف النمسا وممتلكاتها، ونشبت على أثر وفاة فريدريك ملك النمسا، وجلوس ابنته ماريا تيريزا على العرش بوصيته ورضا الدول سنة ١٧٤٠، وانتهت سنة ١٧٤٨م.

(٢) حروب اشتركت فيها فرنسا وروسيا وسويد وأكثر إمارات الدول الألمانية بروسيا وإنجلترا، حماية لبعضها واعتداء على بعضها، ابتدأت سنة ١٧٥٦، وانتهت سنة ١٧٦٣م.

(3) Guide to Modern Wickedness.P.191.

اهتمامها بالجباية والخراج وأنواع المحاصيل والإيراد، وتنظر في جميع مسائل السياسة والمالية من الوجهة الدينية وتقدم المبادئ الدينية والخلقية على المنافع والمصالح المادية، فتمنع الخمر وتحرم الزنى وأنواع الخلاعة والفجور والعقود المالية الفاسدة، النافعة للأفراد، المضرة بالمجتمع، فتحظر الربا والقمار، وإن كان ذلك يرجع على الحكومة بالخسارة المالية الفادحة، وتشرع مشاريع إصلاحية، وتراقب الأخلاق وتعني بتهذيب النفوس، وإن كان ذلك يكلفها أموالا طائلة وميزانية ضخمة؛ ونتيجة هذا النوع من الحكومات إذا قامت في بلاد ما، بينها القرآن، وتنبأ بها للمهاجرين الأولين: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج: ٤١].

أما الحكومات التي تقوم للجباية لا للهداية، وللانتفاع لا للنفع، فطبيعي أن تكون عنايتها مصروفة إلى أنواع الخراج والمحاصيل والغلات، وكثيرا ما يكون ذلك على حساب الأخلاق والفضائل والنظام المنزلي، فتبيح أنواعا كثيرة من الخلاعة والفجور بقيود تنظمها ولا تمنعها، فتسمح بالبغاء الرسمي، وقد ترابي بنفسها، وتبيح القمار وكثيرا من الجنايات والجرائم الخلقية بتغيير الأسماء، وتحديد بعض الأشياء تأمينا لمصالحها، ولا تبيح الخمر فقط بل تبيعها وتتولى تجارتها وتنظيمها، وتحاكم وتعاقب من يمنعها ويجاهد ضدها، وقد تجبر أهل بعض البلاد شراء المخدرات التي تصدرها، كما فعل بعض الحكومات الأوروبية في آسيا مع أهل الصين، فطبيعي كذلك أن تصاب هذه الشعوب المحكومة في أخلاقها وترزا في روحها وقلبها، بل إن أهل البلاد ينحط مستوى أخلاقهم لمجرد المخالطة بهذه الشعوب الحاكمة ومجاورتها، ويلحقهم عدوى الأمراض الخلقية الفاشية في الأقطار الأوروبية التي ولدتها الحضارة المادية هنالك، وذلك ما أقروا به أنفسهم وشكوا منه.

فالحكومات الأوروبية تحمل معها مفاسد الحضارة الغربية وشرورها، وكيف يرجى من هذه الحكومات أن تزدهر الفضيلة والأخلاق ويرقى مستوي أخلاق الشعب في ظلها ودولتها، ولم يكن ذلك في بلادها وأوطانها، وليس ذلك من رسالتها ومهمتها، ولا مما تدين به وتعتقده (وكل إناء بالذي فيه ينضح)؛ ولم تزل طريق الملوك الفاتحين غير طريق الأنبياء والهداة والمصلحين، وإن الحقيقة التي ذكرها القرآن على لسان ملكة سبأ حقيقة راهنة لا تختلف في الأزمنة والأمكنة:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)﴾ [النمل: ٣٤].

الفصل الثالث:

أوروبا في الانتحار

عصر الاكتشاف والاختراع:

إذا عرفت عصور التاريخ بما يميزها عن غيرها، وأضيفت إليه، أمكننا أن نسمي هذا العصر عصر الاكتشاف والاختراع، وعصر اللاسلكي والكهرباء؛ وفضل الأوروبيين وتقدمهم في هذا الباب وعبقرية رجال الاكتشاف والاختراع وإبداعهم من القضايا التي لا تقبل المكابرة.

ولكن مهما بالغ المبالغون في إطراء الصناعات والمخترعات الحديثة في أوروبا، وبرغم إعجابنا بها والثناء على مكتشفيها ومخترعيها، ينبغي ألا ننسى أن هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات في نفسها مقصودة بالذات، بل هي وسائط ووسائل لغاية أخرى نحكم عليها بالخير والشر، والنفع والضر، بمقياس هذه الغاية وكونها خيرا أو شرا، ونحكم عليها بالنجاح والخيبة بالقياس إلى مطابقتها للغاية التي وضعت لها، والنظر في النتائج التي حصلت منها، والدور الذي لعبته في حياة الناس ومجتمعهم وأخلاقهم وسياستهم.

الغاية من الصناعات والمخترعات، وموقف الإسلام:

أما الغاية فعلى ما أرى هي التغلب على العقبات والصعوبات في سير الحياة التي سببها الجهل والضعف، والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة في هذا الكون، وخيراتها وخزائنها المبثوثة فيها، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو في الأرض ولا فساد.

كان الإنسان يسافر في الزمن القديم ماشيا، ثم ألهم أن يسخر لذلك الحيوان، فاتخذ العجلات، واتخذ الجياد العتاق، ثم لم يزل يتدرج في السرعة والاختراع حتى وصل من المركبة إلى القطار، ومنها إلى السيارة ومنها إلى الطائرة، وكذلك من السفينة الشراعية إلى البواخر، فلا بأس، بل يا حبذا إذا كان ذلك كله تابعا لمقاصد صحيحة يسافر الإنسان بها من مكان إلى مكان لغرض صحيح جدي مثمر، ويحمل عليها أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق الأنفس؛ ويوفر الوقت والقوة الحديثة التي ينتفع بها الإنسان انتفاعا مشروعا،

ويستخدمها لمقاصد رشيدة نافعة.

إن موقف الإسلام في ذلك بين واضح، فقد أخبر أن الإنسان خليفة الله في الأرض، قد سخر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه وغير تصرف فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)﴾[الإسراء: ٧٠]، ليلاحظ القارئ الإطلاق في قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، وقال: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل: ٥-٨]. قد من الله في هذه الآية على الإنسان بتمكينه لبلوغ غايته من غير شق النفس، واستدل به على رأفته به، ورحمته له.

وقال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]، وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سيارة أو طائرة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾، فهو أبعد من أن يكون مقرنا لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها ولا حركة، يسخرها له، تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ولا ينسى أنه راجع إلى الله ومحاسب على ما أوتي من قوة وسعة، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمكين عوقب على ذلك. وكذلك لا ينسى أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه لا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا يطغى، فـ ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾.

وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾[الحديد: ٢٥]. فالحديد فيه منافع للناس، ومن أكبر منافعه أنه يستخدم لنصر الله ورسله، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع في الكون من قوة في سبيل الجهاد في سبيل الله، وفي نشر دينه، وإظهاره على الدين كله، وإعلاء كلمته، وفيما أباح الله له ورغبه فيه من تجارة مشروعة وكسب حلال، وسفر بر، ومنافع مباحة.

إنما طائركم معكم:

إن المصنوعات الجمادية لا ذنب عليها، فإنها خاضعة لإرادة الإنسان وعقليته وأخلاقه، فهي في ذات نفسها ليست خيرا ولا شرا، ولكن الإنسان هو الذي يجعلها باستعماله لها خيرا أو شرا، وكثيرا ما تكون خيرا في نفسها، فيحولها الإنسان شرا بسوء استعماله وخبث سريرته، وفساد تربيته، فليس الشأن في هذه الآلات والمخترعات، إنما الشأن فيمن يستغلها وفي الغرض الذي يستعملها له.

وحقيق أن يقال- لمن أصبح يتطير في أوروبا من هذه الآلات، ومن الطائرات التي تقذف القنابل، وتدمر المنازل، وتنسف القرى والمدن، والغواصات التي تغرق بواخر الركاب المسالمين والتجار الآمنين، واللاسلكية التي تذيع الكذب والزور، وتنشر الخلاعة والمجون، ويشكو منها، ويوجه إليها الملام: ﴿ إِنَّمَا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩] فإن العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية، وليس من شأنها أن تعلمه أيضا كيف يستعملها، وفيم يضعها، كالكبريت يعطيك نارا، ولك أن تحرق بها بيتا على سكانه، أو تطبخ طعاما أو تستدفئ بالنار.

والذي يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفيما يضعها هو الدين، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعا حقيقيا، وكيف يشكر نعمة الله، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التي خوله الله إياها معينا على الظلم والجريمة والإثم والعدوان، كما قال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧)﴾ [القصص: ١٧]، وقال سليمان: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل: ٤٠].

التخليط بين الوسائط والغايات:

أما الأوروبيون فقد حرموا أنفسهم من الدين، فلم يبق لهم رادع من خلق أو وازع من دين، أو مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والانتقاع المادي والعلو في الأرض وبسط السيطرة عليها- كمملكة لا سيد لها ولا وارث- والتغلب على أهلها والاستئثار بخيراتها وخزائنها؛ مقصد ولا غاية، فاستعملوا هذه القوة والعلم في حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين، وتنافسوا في اختراع الآلات التي ينالون بها وطرهم ويعجزون بها غيرهم؛ ولم يزل بهم ذلك حتى اختلطت عليهم الوسائط بالغايات، فاعتقدوا الوسائط غايات، وافتتنوا بالمخترعات والمكتشفات كغاية في نفسها لا لغيرها، وعكفوا عليها وتشاغلوا بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى، واعتقدوا أن الراحة هي الحضارة، ثم تقدموا وصاروا يعتقدون أن السرعة هي الحضارة.

يقول الأستاذ جود:

«يقول دزرائيلي (Disraeli): إن المجتمع في عصره يعتقد أن الحضارة هي الراحة، أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة، فالسرعة هي إله الشباب العصري، وإنه يضحي على نصبه بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة»[1].

عدم تعادل القوة والأخلاق في أوروبا:

إن الأوروبيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق، والتوازن بين العلم- بظاهر من الحياة الدنيا- والدين منذ قرون، فلم تزل القوة والعلم في أوروبا بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق، ولم يزل الأولان في ارتفاع وارتقاء، والآخران في انخفاض وانحطاط، حتى بعدت النسبة بينهما، ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض- وهي كفة القوة والعلم- وخفت الثانية- وهي كفة الأخلاق والدين- حتى ارتفعت جداً.

وبينما يتراءى هذا الجيل للناظر في خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية وتسخيره للمادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر؛ إذا هو لا يتميز في أخلاقه وأعماله،

---

(1) Guide to Modern Wickedness, P.241.

في شرهه وطمعه، في طيشه ونزقه، وفي قسوته وظلمه على البهائم والسباع. وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة إذا هو لا يدري كيف يعيش! وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات في الكماليات وفضول الحياة، إذا هو لم يعرف المبادئ الأولية والبديهيات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاقية، فتراه يصعد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء، وهو لم يتقن شؤون الأرض ولم يصلح ما تحت قدميه، وقد خولته العلوم الطبيعية قوة قاهرة وهو لا يحسن استعمالها، كطفل طغير أو سفيه أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتى مفاتيح الخزائن، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة، ويعيث في دماء الناس ونفوسهم.

قوة الآلهة وعقل الأطفال:

يقول الأستاذ (جود) الإنجليزي: «إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديدة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش»[1].

ويقول في موضع آخر:

«إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة، ونواجهه على كل منعطف ومنعرج، نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار، ونرسل الصور بالبرق، وننصب اللاسلكية في منازلنا، ونستمع في سيلان إلى دقات(Big Ben)- الساعة العظمى- تضرب في لندن، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتهما، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية، والآلات الكاتبة صامتة، وتملأ الأسنان من غير إيجاع، والزروع تنمي بالكهرباء، والشوارع تفرش بالمطاط، وأشعة روتنجن (X.rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا، والصور المتحركة تتكلم وتغني، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي، والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي؛ ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام، ونتيجة ذلك أنا نقتل منه ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفا(٩٠٠٠٠) سنويا.

قال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائي لعجائب حضارتنا- وكان بعض

---

(1) Guide to Modern Wickedness, P.261.

سواق السيارات قد نجح في قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل في ساعة على رمال (Pen Dine)، وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في عشرين أو خمسين (لا أذكر) ساعة- قال الفيلسوف: نعم، إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور وتسبحوا في الماء كالسمك، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض»(١).

ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم:

وقد أصبحت هذه المخترعات والمكتشفات الجديدة- مما كانت تعود على النوع الإنساني بخير كبير لو كان مستعملها يعرف الخير ويقدر أن يتجه إليه- أصبحت وضررها أكبر من نفعها، وكان كما قال القرآن عن السحر: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾[البقرة:١٠٢]. اسمع شاهدا من أهلها ينتقد هذه المخترعات ويبوح بالحقيقة وهو (جود) السابق الذكر:

«وقد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان، ولكن الأمكنة التي نسافر إليها قلما تصلح للسفر، وقد زويت الأرض للرحالين وتدانت الأمم ووطئ بعضها عتبة بعض، ولكن كان نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها، وأصبحت أسوأ مما كانت، أما المرافق التي استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا فقد عادت فحشرت العالم في الحرب، اخترعنا آلة الإذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة والأمم الشقيقة، ولكن كان عاقبتها أن كل شعب يستنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكسته، إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسي على نظامه»(٢).

«انظر إلى الطائرة التي تحلق في السماء، يخيل إليك أن صانعيها كانوا في علمهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر، والذين طاروا عليها أولا لا شك أنهم كانوا في علو همتهم وعزمهم وجرأتهم أبطالا مغاوير، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التي استعملت لها الطائرة وتستعمل لها في المستقبل، إنما هي قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان، وخنق الأحياء وإحراق الأجساد، وإلقاء الغازات السامة، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إربا إربا، وهذه إما مقاصد الحمقى أو الشياطين»(٣).

---

(1) Guide to Modern Wickedness, P293.
(2) Guide to Modern Wickedness, P247.
(3) Guide to Modern Wickedness, P.262.

«وما عسى أن يقول المؤرخ غـدا كيف كنا نستعمل معدن الـذهب؟ سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكي، وسيستعرض الصور التي تمثل اللياقة والمهارة التي كان أصحـاب المصارف يزنون بها الـذهب ويعدونه، وكيف تحـدينا قانون الجاذبيـة في نقله من عاصمة إلى عاصمة، وسيسجـل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجرآء في فتوحهم الصناعيـة كانوا عاجـزين عن التعاون الدولي الذي كـان يقتضيـه ضبط الذهب والتقـسيم الصحـيح، وكانوا لا يعنون إلا بأن يدفـنوا المعادن بالسرعـة الممكنة، وكانوا يسـتخـرجون الذهب والمعـادن من بطون الأرض في جنـوب إفريقـيـة، ويدفنونهـا في مـصـارف لندن ونيويورك وباريس »[١].

ويتناول هذا البحث- التفاوت بين العلم والصناعـة وبين الأخلاق الإنسانية، وإخفاق الحضارة الحديثة في أداء رسالتها- مفكر آخر يجمع بين العلم بالفلسفة والعلوم الطبيعية في تحليل أدق وأسلوب أعمق، وهو الدكتور(Alexis Carrel) في كتابه (الإنسان، ذلك المجهول)=(Man the Unknown):

«يظهـر أن الحضـارة العـصرية لا تسـتطيع أن تنتج رجـالا يملكون الابتكار والذكـاء والجرأة. وفي كل قطر تقريبـا يرى الإنسان في الطبقة التي تباشـر إدارة الأمور وتملك زمام البلاد انحطاطا في الاستعداد الفكري والخلقي.

إننا نلاحظ أن الحضارة العـصرية لم تحقق الآمال الكبـيرة التي عقدتها بهـا الإنسانية، وأنها أخفـقت في تنشئة الرجال الذين يمـلكون الذكاء والإقدام الذي يسير بـالحضارة على الشارع الخطر الذي تتعثـر عليه، إن الأفراد والإنسانية لم تتقدم بـتلك السرعة التي تقدمت بها المؤسسـات التي نبعت من عقولها، إنهـا هي نقائص القادة السياسـيين الفكرية والخلقية وجهلهم الذي يعرض أمم العصر للخطر»[٢].

«إن الوسط الذي أنشأته العلوم الطبيعية وعلم الصناعات للإنسان لا يناسب الإنسان، لأنه مـرتجل لم يقم على تصمـيم وتفكير سـابق، ولم يراع فـيه الانسـجام مع شـخصـية الإنسان. إن هذا الوسط الذي هو ولـيد ذكائنا واختـراعتنا لا يطابق قـاماتنا ولا أشكالنا، نحن غير مسرورين، نحن في انحطاط في الأخلاق وفي العقول. إن الأمم التي ازدهرت

---

(1) Cuide to Modern Wickedness, p 262 .

(2) Man the Unknown, p.33.

فيها الحضارة الصناعية وبلغت أوجها هي أضعف مما كانت، وهي تسير سيرا حثيثا إلى الهمجية، ولكنها لا تدرك ذلك. إنه لا حارس لها من المحيط الثائر الذي أقامته العلوم الطبيعية حول هذه الأمم.

الحق يقال: إن حضارتنا- كالحضارات التي تقدمتها- قد فرضت شروطا للبقاء ستجعل- لأسباب لا تزال مجهولة- الحياة محالا. إن علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الإنسان متأخر جدا عن علمنا بالماديات، وهذا التأخر هو الذي جنى علينا»(١).

«لا يجني نفع من الزيادة في عدد المخترعات الآلية، لا فائدة في أن نعلق أهمية كبيرة على اكتشافات علوم الطبيعة والفلكيات وعلم الكيمياء، أي خير في الزيادة في الراحة والترف، والجمال والمنظر وكماليات حضارتنا إذا منع ضعفنا من الانتفاع بذلك وتوجيهه إلى صالحنا. إنه لا خير في إحكام طريق للحياة يقصى فيه العنصر الخلقي، وتبعد منه أشرف عناصر الأمم العظيمة، إن الأليق بنا أن نعني بأنفسنا أكثر من أن نعني بصناعة بواخر أسرع وسيارات أريح، وراديو أرخص، وتلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق».

«ما هو مدى التقدم الحقيقي الذي نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أو إلى الصين في ساعات قلائل؟ هل من الضروري أن نزيد الإنتاج بلا توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من أشياء لا جدوى منها؟ أليس هناك أي ظل من الشك في أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقي والصحة والتوازن العصبي والأمن والسلام»(٢).

أوروبا في الانتحار:

والحاصل أن الغربيين لما فقدوا الرغبة في الخير والإصلاح، وضيعوا الأصول والمبادئ الصحيحة، وزاغت قلوبهم وانحرفت، واعتلت أذواقهم، لم تزدهم العلوم والمخترعات إلا ضررا، كما أن الأغذية الصالحة تستحيل في جسم المعمود والموبوء مرضا وفسادا؛ بل لم تزدهم هذه الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة في الإهلاك واستعانة على الانتحار، وقد أحسن المستر إيدن(Eden) رئيس وزراء بريطانيا السابق وصف ذلك في بعض خطبه سنة ١٩٣٨م:

---

(1)Man the Unknown, p.38.

(٢) المصدر السابق: ٥٠، ٥١.

«إن أهل الأرض كادوا يرجعون في أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها، ولكنها لا تنفق على ضبطها، وإني أتعجب في بعض الأحيان وأقول: كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا، ونتبادل الأنباء عنها، ويخبر بعضنا بعضا كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية».

القنبلة الذرية وفظائعها:

لعل المستر ريدن لما أفضى بهذا الحديث لم يدر بخلده أن العالم المتمدن وعلى رأسه أمريكا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد سيتوصل أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبز جميع الآلات والمخترعات في التدمير والتقتيل، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله في الهول والفظاعة، قد كانت هذه الآلة هي القنبلة الذرية التي جربتها أمريكا مرة في صحراء نيوميكسيكو، وثانية على رؤوس البشر في مدينة هيروشيما، وبعدها في نجازاكي؛ المدينتين اليابانيتين. وقد أذاع رئيس بلدة (هيروشيما) في ٢٠ أغسطس ١٩٤٩م أن الذين هلكوا في اليوم السادس من أغسطس ١٩٤٥م من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتي ألف وعشرة آلاف ومائتي ألف وأربعين ألفا (ب-ت).

يقول المستر ستوارت (Sturt Gilder)في مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيارة(Statesman) في عددها الصادر في ١٦ سبتمبر ١٩٤٥:

«يقول البروفسور(Plesch):

لا يؤمن على الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التي انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها، فينبغي أن يفحص عنهم فحصا طبيا، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوما ويقرؤوا في الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت في الذين يسكنون على آلاف أميال من اليابان.

ويقول البروفسور(م.ي. أولي فنيت) معلم جامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية في إعداد القنبلة الذرية:

«من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو أي دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية، إن المبادئ التي قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لكل

دولة، إن بريطانيا وأمريكا استفادتا بتجارب السابقين، وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية، ولكنها لا تدوم سرا حربيا إلا لأجل معدود، لأن كل بلاد صناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية في مدة خمس سنوات، وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها في سنتين».

ويقول البروفسور المذكور:

«وأنا على يقين أنه سيظهر في مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار، وستليها قنابل قوتها مليون طن، ولا ينفع في التوقي منها دفاع أو احتياط، وإن ست قنابل فقط من هذا القبيل تكفي في تدمير إنجلترا على بكرة أبيها، وإن العلماء الروسيين ينجحون في إعداد القنابل في مدة قصيرة جدا».

وقد اخترعت أمريكا قنبلة أخرى تفوق القنبلة الذرية في القوة والفظاعة، وهي(Hydrogen Bomb)، وقد جرى اختبارها للمرة الثانية في المحيط الهادي يوم ٢٦ من مارس سنة ١٩٥٤ .

وقد ذكر المستر شارلس -ي- ولسن (chalese . wilson)سكرتير وزارة الدفاع أن النتائج كانت لا تكاد تصدق.

وقد ذكر المستر لويس إستراس (lewis Strauss) رئيس لجنة القوة الذرية في أمريكا أن قنبلة هيدروجينية واحدة تستطيع أن تبيد مساحة مدينة نيويورك الواسعة.

وقال العالم الطبيعي الشهير ونائب رئيس مجلس الأمن اللواء صاحب سنج في دهلي الجديدة:

إن أربع قنابل هيدروجينية وزن كل واحدة منها مائة طن تستطيع أن تقتل كل نسمة على وجه الأرض ، وقد شاع أخيرا أن روسيا اكتشفت القنبلة النيتروجينية(Nitrogen Bomb) التي هي أدهى وأمر من القنبلة الهيدروجينية.

الذي خبث لا يخرج إلا نكدا:

وقد تضعضع أساس المدنية الأوروبية كما ذكرنا بتفصيل، ولم يزل بناؤه متزعزعا، ولم تزده الأيام ولم يزده الارتفاع إلا زيغا واختلالا، وفسدت بذرتها، فلم تصلح شجرتها ولم تطب ثمرتها ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا

كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد شرح ذلك في إيجاز السيد الأستاذ أبو الأعلى المودودي في أحد فصول كتابه (تنقيحات)- بالأوردية- قال:

«ظهرت الحضارة الغربية في أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الإلهية، لقد كان فيها قادة للدين، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية، ولم يكن عندهم إلا شبح ديني لو حاول أن يسير بالنوع الإنساني على صراط مستقيم في طرق الفكر والعمل لما استطاع، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة وسدا في سبيل ارتقاء العلم والحكمة، وهكذا كان، وكان عاقبة ذلك أن الذين كانوا يريدون الرقي نبذوا الدين بالعراء، واختاروا طريقا لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء، ووثقوا بهذه الدلائل التي هي في حاجة بنفسها إلى الهداية والنور، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها في طرق الفكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم، ولكن ضلت خطوتهم الأولي في كل جهة وفي كل مجال، وانصرفت فتوحهم في ميادين العلم والتحقيق، ومحاولاتهم في سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة. إنهم بدؤوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية، نظروا في الكون على أنه ليس له إله، نظروا في الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس، وليس وراء هذا الستار الظاهر شيء، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها، إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها، بل هم خلفاء سيدها الحق، فلم يروا أنفسهم مسؤولين عنها، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة، فاختل أساس مدنيتهم وتهذيبهم، وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس، واتخذوا إلههم هواهم، وفتنتهم عبادة هذا الإله، وسارت بهم هذه العبادة في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلابة رائعة، ولكن مصيرها إلى الهلاك.

هذا هو الذي مسخ العلوم الطبيعية، فصارت آلة لهلاك الإنسان، وصاغ الأخلاق في قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة، وسلط على المعيشة شيطان الأثرة والشح والفتك ببني النوع، ودس في عروق الاجتماع وشرايينه سموم عبادة النفس والأنانية والإخلاد إلى الراحة والتنعم، ولطخ السياسة بالجنسية والوطنية وفروق اللون والنسل وعبادة إله القوة، فجعلها لعنة كبرى للإنسانية.

والحاصل أن البذرة الخبيثة التي ألقيت في تربة أوروبا في نهضتها الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة، ثمارها حلوة ولكنها سامة، أزهارها جميلة ولكنها شائكة، وفروعها مخضرة ولكنها تنفث غازا ساما لا يرى، ولكنه يسمم دم النوع البشري.

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها، وأصبحوا يتذمرون منها، لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم مشاكل وعقدا لا يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة، ولا يفصلون فرعا من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك؛ فهم في معالجة أدوائهم وإصلاح شؤونهم كمعالج الداء بالداء وناقش الشوكة بالشوكة. إنهم حاربوا الرأسمالية فنجمت الشيوعية، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنبعت الدكتاتورية، أرادوا أن يحلوا مشاكل كل المجتمع فنبتت حركة تذكير النساء(Feminism) وحركة منع الولادة، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية، فاشرأبت حركة العصيان والجناية؛ فلا ينتهي شر إلا إلى شر، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شرورا ومصائب، حتى صارت الحياة الغربية جسدا مقروحا، يشكو كل جزء منه أوجاعا وآلاما، وأعيى الداء الأطباء، واتسع الخرق على الراقع؛ الأمم الغربية تتململ ألما، قلوبها مضطربة وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة.

إن الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب في فروع هذه الشجرة، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة، ويضيعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد، فيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد، ولكنهم لما نشؤوا قرونا في ظل هذه الشجرة- وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم- كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعا وأوراقا صالحة سليمة، وكلا الفريقين في النتيجة سواء؛ إنهم يتطلبون شيئا يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه»[١].

---

(١) تنقيحات، مقالة (أمم العصر المريضة)، ص ٢٤-٢٦ .

الفصل الرابع

رزايا الإنسانية المعنوية
في عهد الاستعمار الأوروبي

ليس من قصدنا الآن أن نبحث عن رزايا الأمم الشرقية الآسيوية في السياسة والاقتصاد والتجارة والصناعة، وخسارتها في ممتلكاتها، وانكسارها أمة بعد أمة وقطرا بعد قطر أمام قوة الغرب المادية ودهائه السياسي، فلذلك حديث يطول، ولا يسعه هذا المؤلف الصغير، وقد طرق هذا الموضوع كثير من المؤلفين والمؤرخين في الشرق والغرب، وألفوا فيه مؤلفات بين صغير وكبير ومتوسط، وأشبعوا فيه الكلام.

ولكن الذي يهمنا- ونحن نتكلم في هذا الكتاب عن خسارة العالم بانحطاط المسلمين واستيلاء الأوروبيين بالتبع- رزيئة العالم الإنساني وخطب المجتمع البشري في الروح والأخلاق والنفس، ومعان أسمى من المادة وما يتصل بالجسم والأرض في عهد النفوذ الأوروبي العام، وسيل حضارته الجارف، فتلك رزية لا تقبل العزاء، وكسر لا ينجبر، والذين أدركوه قليل، والذين تحدثوا به أقل من أولئك القليل.

ولما كان نظام الحياة الإسلامي هو المنافس للنظام الجاهلي، كان طبعا رزء المسلمين في عهد انتصار الحكم الجاهلي أكبر، وقسطهم في هذه المصيبة العالمية أوفر، لأن الإسلام والجاهلية ككفتي ميزان، كلما رجحت كفة طاشت الأخرى.

والآن نتحدث عن هذه الرزايا المعنوية رزيئة رزيئة.

بطلان الحاسة الدينية:

ما هي غاية هذا العالم التي ينتهي إليها، ومصيره الذي يصير إليه، هل بعد هذه الحياة حياة أخرى؟ وما هو وضعها إذا كانت؟ وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات وإرشادات في الحياة الدنيا؟ ومن أي منبع تستقى هذه المعلومات؟ وما هي الطرق والأسس التي إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضية مرضية؟ وما مصدر هذه الطرق؟ وما هي الطريق المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع؟ ومن أين تستفاد هذه الطريق؟

تلك الأسئلة ورثها الشرقي أبا عن جد، وشغلت خاطره، وأزعجت فكره طيلة

قرون، ولم يقدر أن يذهل عنها ويتناساها حتى في لهوه وزهوه، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه، ونداء ضميره؛ ولم يستطع أن يتصام عنه ويطوي دونه كشحا، بل أصغى إليه في رغبة ونصيحة وإخلاص، وأحل هذه الأسئلة من نفسه وحياته المحل الأول، وما زال منذ آلاف من السنين في أخذ ورد ونقض وإبرام في هذا الموضوع، وليس ما نسميه ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية، والإشراق والرياضة النفسية، والعلوم والحكمة إلا محاولات ومغامرات في هذا الطريق الطويل المظلم، وارتيادا إثر ارتياد في مناطق مجهولة، ينبئ عن اهتمام الشرق البليغ بهذا الموضوع ورغبته الملحة فيه.

هذه طبيعة الشرقي وطبيعة أكثر أفراد البشر في الأقاليم المعتدلة قبل ظهور الغربيين؛ وإن استعرنا لذلك لغة الفلاسفة وتعبيرهم قلنا: لم يزل في الناس- عدا حواسهم الظاهرة الخمس- حاسة سادسة يسوغ أن نسميها بالحاسة الدينية، وكما أن الحواس الظاهرة لها دوائر عمل تحصل فيها محسوساتها الخاصة بها فللعين مبصرات وللأذن مسموعات... إلخ، كذلك هذه الحاسة الدينية لها ثمرات وتأثيرات هي من خواص هذه الحاسة التي لم تزل لأهل الشرق ضربة لازب، وكما أن من فقد حاسة من الحواس الظاهرة بطلت محسوساتها الخاصة بها، فلا تحصل له بحاسة أخرى إلا بطريق خرق العادة، ولا تحل حاسة مهما كانت قوية وصحيحة محل الحاسة الأخرى؛ كذلك من فقد الحاسة الدينية لطارئ مؤثر أو حرمها لنقص في الفطرة بطلت نتائجها الخاصة بها، وانعدمت في حقه، بحيث لا يستطيع أن يتصورها أو يصدقها، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية، وقد يعاند ويكابر في إنكارها، وشأن الأصم الذي ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده، ليس بها داع ولا مجيب؛ كذلك من حرم الحاسة الدينية جحد الغيب، وكابر فيما هو وراء الطبيعة وعاند في المعاني الدينية، وقسا على الرقائق والقوارع التي تهز النفوس، وترقق القلوب وتذرف العيون.

ما لجرح بميت إيلام:

أشد العقبات التي واجهها الأنبياء والدعاة الدينيون، واصطدمت بها خطبهم ومواعظهم ودعوتهم، هم أولئك الذين حرموا الحاسة الدينية أو فقدوها بتاتا، والذين تحجرت قلوبهم وماتت نفوسهم في مسألة الدين، والذين آلوا على أنفسهم أنهم لا يفكرون في أمر الدين وأمور الآخرة، ولا يلقون السمع لهذا الموضوع أصلا، والذين لما سمعوا كلام النبي ﷺ الذي تجيش له الصدور وتلين له الصخور، ما زادوا أن قالوا في

صمم وإعراض: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون: ٣٧] ولما انتهى النبي من كلامه السائغ المقول الذي يفهمه الأطفال، والذي كان بلغتهم الفصيحة قالوا: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود: ٩١] ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ [فصلت: ٥].

لا شك أن هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين في فجر النهضة الأوروبية الجديدة، واستمروا يبحثون فيها ويؤلفون ويتناقشون، ولكن كلما قطعت المدنية الأوروبية شوطا تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطا؛ ولما ظهرت خواص هذه المدنية الباطنة وتجلت هي في مظهرها المادي خفت في ضجتها هذا الصوت الذي كان ينبع من أعماق القلب وقرارة الضمير الإنساني الحي، ولا ينكر أن هذه الأسئلة تدرس في قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة في المدارس والمجامع العلمية والمكاتب العامة، ويتباحث فيها العلماء المتخصصون، وتظهر لهم في هذا الموضوع تأليفات بين آونة وأخرى؛ ولكن الذي لا شك فيه أنها فقدت سلطانها على القلوب والأفكار وامحت علامة الاستفهام النيرة التي كان يراها كل إنسان عاقل، فيقف أمامها كما تقف القطر أمام الإشارات، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك في صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه وتحيك في صدورهم، ولم يكن ذلك عن إيمان وانشراح صدر وطمأنينة قلب واقتناع بحل صحيح وارتياح إلى نتيجة حاسمة. كلا! لم يكن ذلك إلا لأن هذه الأسئلة فقدت أهميتها، وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم في أعين أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين منها.

ولأن رجل العصر قد لزم الحياد التام في هذه المسائل وصرف النظر عنها، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحياة حياة ثانية، وكانت الجنة والنار والثواب والعقاب والنجاةوالهلاك أو لم تكن، فلا يهمه شيء من ذلك لا سلبا ولا إيجابا، لأن شيئا من ذلك لا يمس مسائله اليومية أو في آخر الشهر، ولا يتصل بشخصه وعياله في الساعة الحاضرة، وهو رجل لا يعتقد في النسيئة ولا يترك عاجلا بآجل، ولا يتكلف ما لا يعنيه، فيترك هذه المباحث (الفارغة) يبحث فيها معلم الفلسفة في الجامعة، ويفضي فيها برأيه المؤلف في هذا الموضوع. أما هو فهو رجل جد وعمل، لا يعرف إلا حياة المصانع والإدارات وسير الماكينات، ولا يهتم إلا بتسلية النفس وترويحها في آخر النهار والنوم الهادئ في آخر الليل، والأجرة في آخر الأسبوع أو الراتب في أواخر الشهور وحساب الأرباح في آخر

السنة، وإعادة الصحة والشباب في آخر العمر، أمـا ما بعد الحياة فهو عنده مجهول ووهم من الأوهام: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

إن هذا الضرب من الناس لا يزال يزداد عددا وأهمية في كل أمة وبلاد بتأثير الحضارة الغربيـة، ذلك الضرب من الناس لم يترك اشتـغالهم بالحيـاة الدنيا والعكوف عليها فـراغا لدعوة دينية، وإن الـــذي يدعوهم إلى الدين والحياة الأخـروية ليتحير مـعهم كما يتـحير السندباد البحري- كـما تروى لنا حكاية ألف ليلة وليلة- مع بيضة العـنقاء، ظنها السندباد البحـري بناء من رخام، فدار حـولها عدة مـرات ليبحث عن باب يدخـل منه فلم يجد، كذلك الداعي الديني يدور حول رؤوسهم فلا يجـد منفذا يدخل منه إلى عقولهم، ويدخل به دعوته الدينيـة إلى نفوسهم، فقـد أقفلت الحياة المادية ومـسائلها جميـع أبوابها وسدت جميع نوافذ فكرهم.

وكمـا أن رجلا لم يحظ من الفطرة بالذوق الأدبي، يسـمع الألحان الجمـيلة والأبيات الرقيقة فلا يعدها إلا أصواتا لا فن فيها، كذلك الذي حرم الحاسة الدينية لا تؤثر فيه دعوة الأنبيـاء وخطب الوعاظ، وحكمة العلمـاء وأمثال الصحف السـماوية، وتضيع فيـه بلاغة البلغاء وإخلاص المخلصين، ويصبح كل ذلك صيحة في واد ونفخة في رماد:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

والذي مني بهذا الضرب من الناس يفهم السر في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٧]، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، وتظهر له حقـيقة قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ولم يلق في شرحها وتعليلها ما لقيه المفسرون من صعوبة الذين لم يشاهدوا هذا النوع.

داء هذا العصر الذي لا ينجح فـيه الدواء ولا يؤثر فيه العلاج هو الاسـتغناء التام عن الدين، ولم يلق رجـال الدعوة الدينية من العنت والشـدة في أحط أدوار الفسـق والفـجور وفي أحلك عهود المعـصية والغفلة، ما يلاقونه في دعوة هؤلاء الـذين لزموا الإعراض التام في هذه المسائل(الكلامية)فلا تعنيهم سلبا ولا إيجابا: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ

الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾[النمل: ٨٠].

وقد فطن لهذا الفرق الجوهري بين النفسية القديمة والجديدة أحد كبار معلمي الفلسفة وعلم النفس في إحدى جامعات أوروبا الكبرى وشرحه في عبارة وجيزة. قال س.م.جود:

«ثارت في قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين، لم يطمئن بعض أصحابها ولم يرتاحوا إلى جواب مقنع، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا تزعجه الأسئلة رأسا، ولا تحيك في صدره ولا تنشأ في هذا العصر أصلا».

زوال العاطفة الدينية:

لما طغى بحر المادية في العالم الإسلامي في العهد الأخير وفاض، كون رجال الدين جزرا صغيرة في بحر المادية المحيط، يلجأ إليها الفارون إلى الله والمتبرمون من الحياة المادية والغفلة، كان فيها رجال هم كمنارات النور في بحر الظلمات، يربون الناس التربية الدينية والخلقية، ويزكون أنفسهم ويصقلون قلوبهم.

وكنت ترى في العالم الإسلامي حركة مستمرة إلى هذه الجزر؛ فترى قوافل لرواد الروحانية ومنتجي التربية الدينية غادية رائحة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى شمال العالم الإسلامي إلى أقصى جنوبه، متخطية الثغور السياسية، مجتازة العقبات الجغرافية، فترى هذه الجزر مستعمرات دينية، قد امحت فيها الفروق الجنسية والوطنية، وترى متحفا إنسانيا قد اجتمع فيه الشرقي مع الغربي والبخاري مع المراكشي والأناضولي مع الأندنوسي، قد فروا بدينهم مع الفتن، ورموا بأنفسهم على عتبة ربهم، يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ويتوقون التربية الدينية ثم ينبثون في أنحاء العالم دعاة مصلحين ومعلمين مرشدين، يلتقطون نصيب الله من بين نصيب الشيطان، ويحيون أرضا مواتا من القلوب، ويبذرون فيها بذور الدين.

وكذلك لم تزل في جنب أقوى الدول وأوسعها دول روحية يفوق سلطانها الروحي سلطان الدولة المادي، فيها رجال تأتيهم الدنيا راغمة ويأتيهم الملوك والأمراء صاغرين، ولهم نظام كنظام الدول، ينصبون ويقرون وينقلون ويستخلفون، ولهم (قناصل وسفراء) في كل دولة مادية، وكأن خارطة العالم الإسلامي بين أيديهم، فإذا خلا ثغر من ثغور الإسلام نصبوا فيه مرابطا دينيا يحفظه من عادية الغفلة والمعصية، ويحرسه من غاشية

الجهل والطغيان[١].

وكانت هذه الدول الروحية مستقلة في إدارتها ونظامها الداخلي، لا يتداخل فيها الملوك والأمراء، ولا تؤثر فيها التقلبات السياسية والحوادث المحلية؛ ولنضرب لذلك مثلا بالمستعمرة الروحية المعروفة (بغياث فور)، التي أنشأها الشيخ نظام الدين البداوني الهندي (م٧٢٥هـ) في نفس عاصمة الهند، وقد عاصر الشيخ سبعة من الملوك الجبابرة (من غياث الدين بلبن ٦٦٤-٦٨٦هـ إلى غياث الدين تغلق ٧٢٠-٧٢٥هـ) وحافظت على استقلالها التام من غير أن تمسها يد الملوك، وكنت ترى رجالا من سنجر في إيران إلى رجال من أوده في شرق الهند.

وقد كان لهذه المراكز ولأصحابها الفقراء من المهابة والحشمة والاحترام الفائق ما قد يحسدهم عليه أكبر ملوك العالم، وقد يكون هذا سبب الوحشة بينهم، وما ذاك إلا لإقبال الناس على رجال الدين واحتفائهم والخضوع للسلطان الروحي، فكان السيد آدم البنوري الهندي (م١٠٥٣هـ) دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشي في ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء، ولما دخل السيد في لاهور عام ١٠٥٢هـ كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم، حتى توجس شاهجان ملك الهند منه خيفة، فأرسل إليه بمبلغ من المال، ثم قال له: قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز، فعرف إيعاز الملك، وسافر إلى الحرمين حيث مات[٢].

وهذا الشيخ محمد معصوم (م١٠٧٩هـ) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بايعه وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال[٣].

وهذا ابنه الشيخ سيف الدين السرهندي (م١٠٩٦هـ) كان يأكل على مائدته ألف

---

(١) حدث الشيخ الصالح السيد أبو الحسن على الهجويري (دفين لاهور) أن شيخه أمره بالرحلة إلى لاهور والإقامة فيها، فاعتذر بأن هناك زميله الشيخ حسين الزنجاني، فلا لزوم لذهابه، فقال: لابد أن تذهب وتقيم بها. قال: فشددت رحلي وامتثلت لأمر الشيخ، ووصلت لاهور في الليل، وقد غلقت أبوابها فبت ليلتي خارج السور، ولما أصبحت وفتح باب السور إذا بالناس يحملون جنازة الشيخ حسين، فعرفت سر أمر الشيخ ودخلت البلد، وخلفته في عمله دعاء الخلق إلى الله (كشف المحجوب للهجويري).

(٢) التذكرة الآدمية (الفارسية).

(٣) نزهة الخواطر، المجلد الخامس، للشيخ عبد الحي الحسني.

وأربعمائة، ويقترحون الأطعمة ويتخيرونها (١).

وهذا الشيخ محمد زبير السرهندي (م١١٥١) كان إذا خرج من بيته ألقى له الأغنياء الشيلان والمناديل حتى لا يطأ الأرض، وإذا خر لعيادة مريض أو لبعض شأنه خرج في ركابه الأغنياء والأمراء، فكان موكبا مثل مواكب الملوك (٢).

وهذه أمثلة قليلة لا نقصد منها إلا الاستدلال على ما كان للدين من مكانة وشرف في عيون الناس، وعلى ما كان من احتفاء برجاله ومن يمثلونه، وخضوعهم لسلطان الدين فوق سلطان القوة، وتهافتهم على موارد الدين ومشارعه، وهذه أمثلة التقطناها على عجل من تاريخ الهند الإسلامي ولمحات عابرة فيه؛ ولو ذهبنا نستقصي أمثلته وشواهده من تاريخ الإسلام العام ومن تراجم الرجال الدينيين وسيرهم في بلاد الشام ومصر والمغرب الأقصى والعراق لكان مجلدا كبيرا.

ونكتفي هنا بذكر الشيخ خالد الشهرزوري (م١٢٤٢هـ) الذي ازدحم الناس عليه في بغداد يتوبون على يديه ويستفيدون منه، وقد أخبر شيخه في رسالة كتبها إليه أن مائة من العلماء الفحول قد تخرجوا عليه، وأن خمسمائة من كبار العلماء قد دخلوا في بيعته، وأما العوام والخواص فلا يأتي عليهم حصر(٣).

واستمر ذا الإقبال على الدين والهجرة في طلب العلم النافع والعمل الصالح، وتجشم الأسفار والأخطار لتزكية النفس وتهذيب الخلق والتوصل إلى معالم الرشد والاستعداد للآخرة إلى أول عهد الاستعمار الأوروبي، فترى في كل قطر إسلامي مراكز دينية وملاجئ روحية يأوي إليها أهل الطلب من سائر الآفاق، وتخطبهم الدنيا والمناصب العالية في الحكومات فيأبون إلا فرارا، ويلجؤون إلى هذا المحيط الهادئ الروحي، ويكبون على إصلاح باطنهم، وسل حظ الشيطان منه.

وتتعدى في الحضارة إلى أواسط القرن الثالث عشر الهجري، وقد احتل الإنجليز الهند، ولما تؤثر حضارتهم وفلسفة حياتهم في مجتمع البلاد، فترى بقايا من الحياة الدينية

---

(١) ذيل الرشحات (الفارسية).

(٢) در المعارف (الفارسية)؛ ونزهة الخواطر (العربية).

(٣) در المعارف.

الأولى، ويحدثنا مؤرخ [١] عن زاوية الشيخ غلام علي الدهلوي (م٠١٢٤٠هـ)فيقول:

«رأيت بعيني في هذه الزاوية رجالا من الروم والشام وبغداد ومصر والحبشة قد بايعوا الشيخ، وعدوا المثول بين يديه حسنة الدهر وسعادة العمر. أما الوافدون من البلاد القريبة كالهند وأفغانستان فكانوا كالجراد، ولا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسمائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم» [٢].

ويجيل الشيخ رؤوف أحمد المجددي نظره في رجال هذه الزاوية اليوم الثامن والعشرين من جمادي الأولى عام ١٢٣١هـ، فيجد رجالا من سمرقند وبخاري وتاشقند وحصار وقندهار وكابل وبشاور وكشمير والملتان ولاهور وسرهند وأمروهه وسنبهل، ورامبور وبريلي ولكهنؤ وجائس وبهرائج وكور كهبور وعظيم آباد ودهاكه، وحيدر آباد، وبونه وغيرها [٣].

وليعرف القارئ أن هذا كله في زمان لم تحدث فيه طرق النقل الحديثة، فكان كله مشيا على الأقدام وسفرا في القوافل.

وتتجلى المناظر الأخيرة لهذا العهد الراحل في تاريخ مصلح الهند الكبير والمجاهد الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ)، فإذا قرأت تاريخه وجولاته في الهند لأجل بث دعوته إلى التوحيد واتباع السنة والجهاد، رأيت ألوفا يتوبون من الذنوب والآثام والشرك والمحدثات، حتى تقفر الحانات وتغص المساجد، ويتسابقون في دعوته هو ورفقته الذين يعدون بالمئات إلى بيوتهم وصنع الولائم لهم، ويستهينون في سبيل ذلك بالأموال، ويسترخصون كل عزيز وغال، حتى يتقارعوا بينهم أيهم يبدأ، وأيهم يتقدم.

وترى في المسلمين شهامة في سبيل الدين وعلو همة وسماحة نفس وأريحية لا تعهدها بعد ذلك، فلما خرج السيد للحج عام ١٢٣٦هـ، ورفقته أكثر من سبعمائة رجل ضيف المسلمون هذا الركب في كل محل يمر به، من رائي بريلي مسقط رأسه إلى كلكتة حيث ركبوا السفن، ولما نزل باله آباد ضيفه الشيخ غلام علي، وأقام هذا الركب ضيفا عليه

(١) هو السير السيد أحمد خان صاحب الدعوة إلى التعليم الإنجليزي في الهند ومؤسس الجامعة الشهيرة في عليكرة.

(٢) آثار الصناديد (الاوردية).

(٣) در المعارف (الفارسية).

خمسة عشر يوما، واجتمع الناس من القرى والضواحي وكلهم يأكلون على مائدة الشيخ الطعام الفاخر، هذا عدا الهدايا التي أهداها إلى أهل الركب والكسوة والزاد الذي قدمه، وفي أثناء الرجوع لما حلت القافلة قريبا من مدينة مرشد آباد في طريقها من كلكتة إلى رائي بريلي قام ديوان غلام مرتضى بضيافتهم، وأعلن في السوق أن كل من يشتري من أهل القافلة أو يستأجر منهم أهل الصناعة فهو يؤدي الثمن من عنده، وكلمه السيد في هذا فقال: حسبي من الفخر والشكر أني أقوم بخدمة الحجاج.

وترى من الناس رقة في القلوب وانقيادا للحق وخضوعا للشرع، فقد تشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر، وكان الناس ينهالون من كل صقع ويدخلون في الخير أفواجا، حتى إن المرضى في مستشفى مدينة بنارس أرسلوا إلى السيد يقولون: إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار، فلا تستطيع أن نحضر، فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل، وذهب السيد وبايعهم.

وأقام في كلكتة شهرين، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يوميا، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحدا واحدا فكان يمد سبعا أو ثماني من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثماني عشرة مرة.

وخطب السيد في الناس في كلكتة خمسة عشر أو عشرين يوما، وكان يحضر هذه المواعظ نحو ألفين من وجهاء البلد والعلماء والشيوخ، فضلا عن عامة الناس والدهماء، وكذلك رفيقه الشيخ عبد الحي البرهانوي كان يذكر كل يوم جمعة ويوم ثلاثاء بعد صلاة الظهر إلى العصر، والناس يتساقطون عليه كالفراش؛ ويسلم كل يوم عشرة أو خمسة عشر رجلا من الكفار.

وكان من تأثير هذه الوعظ ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكتة، وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز، وكسدت سوقها وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرئب الحكومة متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر.

ولما دعا السيد الإمام إلى الجهاد لبى الناس من كل طبقة دعوته في نشاط وحماسة ولحقوا به، وترك الفلاحون سكتهم، وأقفل التجار دكاكينهم وغادر الناس أوطانهم وتغربوا في دين الله، ولم يتلفتوا إلى ما وراءهم ولم يلووا على شيء حتى قتلوا في سبيل الله في

وادي بالاكوت عام ١٢٤٦هـ في الثغور، ورجع فلهم إلى قلل الجبال، فاعتصموا بها وقضوا نحبهم في الجهاد.

هذا كله والحضارة الإسلامية في الهند في الاحتضار، والحكومة الإسلامية في انهيار، ولكن لم يزل في الناس بقية من الأنفة الإسلامية والحمية الدينية والإنابة إلى الله والفرار إليه، وسرعة الإجابة للداعي إلى الله، والاستهانة بالحياة الدنيا وبذل النفائس في سبيل الله.

ورسخت قدم الإنجليز وأصبح نظامهم التعليمي- وهو من أكبر جنودهم- يؤتي أكله كل حين، وتسربت في الناس أفكارهم وميولهم، فصارت تقلب نظام الحياة ونظام الفكر في الهند رأسا على عقب من حيث لا يشعر أهلها، فتقاصرت الهمم في الدين، وخمدت جذوة القلوب، وانطفأت شعلة الحياة الدينية، وانصرفت الرغبات والأهواء والتنافس الطبيعي- الذي هو الدافع الأكبر إلى التقدم والإبداع- من الدين والروحانية إلى المعاش والمادة، وقلت مرغبات الجهد في الدين والعلم وما يتصل بالروح والقلب، وتوافرت المزهدات المثبطات عنه، وكثرت الدواعي والحافزات إلى ضده، واتجه تيار الذكاء والنبوغ والعبقرية- الذي كان متجها من قبل إلى الدين- من صنوف الدين وأقسام العلم الديني والروحي، إلى الإنتاج والإبداع في أنواع علوم المعاش ومرافق الحياة.

وكان لا يزال بالعهد الراحل رمق وبقية من حياة تنازع الموت وتحاول البقاء، فكان لا يزال في الناس رجال يدعون إلى الدين وإصلاح النفوس وتزكيتها وتهذيب الأخلاق وتصفيتها، وهم تذكار لسلفهم في زهدهم في الدنيا والإقبال على الآخرة والإخلاص واتباع السنة، وكانت لا تزال لهم دعوة في الناس، والمسلمون يعدون الاتصال بهؤلاء والتمسك بأهدابهم حقا من حقوق الدين وواجبا من واجبات الحياة، وكان بعض الأغنياء والأمراء وأرباب الدنيا، لهم اهتمام زائد بحسن الخاتمة وأمور الآخرة وصلاح القلب وعمارة الباطن، ولكن كان هذا كله أشبه بالتهاب السراج قبل الانطفاء فقد ذوي أصل الشجرة الدينية، وانقطعت عنها مادة الحياة، وهب عليها إعصار فيه نار.

سرى الشك وسوء الظن في الأوساط الدينية والبيوت العريقة في الدين والعلم بتأثير المحيط وبتأثير التعاليم الإفرنجية، وضعفت الثقة بالله وبصفاته وبمواعيده، فأصبح الآباء يضنون بأولادهم على الدين، ولا يخاطرون بأوقاتهم وقواهم في سبيل الدين وعلوم

الدين، وأصبحوا يعلمونهم العلوم المعاشية واللغات الإفرنجية، لا رغبة في تحصيل المفيد النافع ولا دفاعا عن الإسلام، بل زهدا في الدين وفرارا من خطر المستقبل وخوفا على أفلاذ أكبادهم من الضياع، واستسلاما للدهر المتقلب، وتسلط عليهم خوف الفقر حتى أصبحوا من خوف الموت في الموت.

وهكذا انقرض هذا الجيل وطوى هذا البساط، ولفظ هذا العهد الروحي نفسه الأخير، وتلاه عهد المادة، وأصبحت الدنيا سوقا ليس فيها إلا البيع والشراء.

طغيان المادية والمعدة:

رووا أن شاعرة جاهلية هي (كبشة بنت معد يكرب) عاتبت أخاها عمرو بن معد يكرب، وعيرته بميله إلى قبول دية أخيه المقتول فقالت:

ودع عنك عمرا إن عمرا مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم؟

ما تتصور المرأة الجاهلية البسيطة أن بطن إنسان يتجاوز مقدار شبر، فكيف لو رأت معدة الإنسان الحاضر ابن القرن العشرين؛ تضخمت وكبرت حتى وسعت الأرض، وتجاوزت حتى أصبحت لا يملؤها إلا التراب!.

نعم تضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى صارت لا يشبعها مقدار من المال، وتولد في الناس غليل لا يروي أوار لا يشفى، وأصبح كل واحد يحمل في قلبه جهنم لا تزال تبتلع وتستزيد، ولا تزال تنادي هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ تسلط على الناس- أفرادا وأمما- شيطان الجشع والحرص، فكأن بهم مسا من الجنون، وأصبح الإنسان نهما يلتهم الدنيا التهاما، ويستنزف موارده حلالا وحراما، ثم لا يرى أنه قضى لبانته وشفي نفسه، والعهدة في ذلك على وضع الحياة الحاضرة وطبيعتها، وكونها مادية صرفة لا تؤمن بالآخرة. وخليق بمن لا يعتد إلا بحياته الدنيا ولا يرى وراءها عالما آخر وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته، رأس ماله وأكبر همه وغاية رغبته ومبلغ علمه، وألا يؤخر من حظوظها وطيباتها ولذائذها شيئا، وألا يضيع فرصة من فرصها، ولأي عالم يدخر، وهو لا يؤمن بعالم وراء هذا العالم، ولا بحياة بعد هذه الحياة؟

وقد عبر عن هذه النفسية الجاهلية الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد في صراحة وبساطة فقال:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
كريم يروي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى

وكل إنسان متمدن اليوم- إلا من عصمه الله بالإيمان- يرى هذا الرأي، ويذهب هذا المذهب في الحياة، إلا أنه قد يجرؤ على أن يصرح به، وقد لا يملك ذلك اللسان البليغ الذي يعبر عن ضميره.

والسبب الثاني: هو الأدب العصري- بمعناه الواسع- الذي لا يتحدث إلا عن المادة وأصحابها، ويخنع لأهل الثراء وأصحاب الاحتكار وأصحاب الإنتاج، الخنوع الذي لا يليق بالأدب الشريف العالي، فيكتب دقائق حياتهم في تفصيل، وينشر ألقابهم وأسماءهم بقلم عريض، وكل نفس من أنفاس مدحه وتقريظه وكل فصل من فصول روايته ينتهي إلى نتيجة مادية أو إلى بطل من أبطال المادة، ويزين للقارئ المذهب الأبيقوري تارة بالتلميح وتارة بالتصريح، ويحث الشباب على التهام الحياة وانتهاب المسرات؛ نثرا وشعرا وفلسفة ورواية وتحليلا وتصويرا، فلا ينتهون منه إلا بالروح المادي والتقديس لرجال المادة.

وكذلك المجتمع الذي لا يقدر إلا الغني الظريف متناسيا كل ما فيه من رذيلة ولؤم أصل وسوء خلق، ويتجنى على الإنسان الذي لا يترجح في ميزانه مهما كثرت مواهبه وطاب عنصره وسما جوهره، ويلمح وقد يصرح بأن الفقير لا يستحق الحياة، ويعامله معاملة الدواب والحمير والكلاب، فيرغم الإنسان- إذا لم يكن ثائرا على المجتمع- على أن يخضع لشريعة مجتمعه، وأن يتجمل ويتظرف لمجتمعه، فلا يلبس إلا لغيره ولا يتأنق إلا لغيره.

وهذا المجتمع لا تزال مقاييسه للشرف والظرافة تتغير، ومعاييره للإنسانية تتبدل وتتحور، ومطالبه تتنوع وتتكثر، حتى يضيق الإنسان بها ذرعا ويلجأ إلى طرق غير شريفة لتحصيل المال، وإلى كدح وكد في الحياة، وهناك هموم تتوالى ولا تنتهي ومتاعب تتسلسل ولا تنقطع.

وزاد الطين بلة تنافس الصناع والمنتجين والمصانع؛ ففي كل صباح يتدفق على المدينة سيل جديد من أحدث المنتجات وأحدث طراز من السيارات والسجاير والأزياء والقبعات والأحذية، والأدهان والأطلية وأسباب الزينة والزخارف والأجهزة، ولا يجلب منها شيء قياما بالواجب وسدا للثغور، بل كله في سبيل الاستغلال الصناعي والاحتكار التجاري،

ولا تلبث هذه المنتجات التي هي من فضول الحياة أن تدخل في أصول المعاش ولوازم المدنية، والذي لا يتحلى بها لا يعد من الأحياء.

ولهذه الأسباب ولغيرها ارتفعت قيمة المال في عيون الناس ارتفاعا لم تبلغه في الزمن السابق، وبلغ من الأهمية والمكانة مبلغا لم يبلغه- على ما نعرف- في دور من أدوار التاريخ المدون، وأصبح المال هو الروح الساري في جسم المجتمع البشري، والحافز الأكبر للناس على أعمالهم ونشاطهم المدني، وقد يدفع المخترع إلى الاختراع، والصانع إلى صناعته، والسياسي إلى مقالته، والمرشح إلى انتخابه، والعالم إلى تأليفه، حتى القادة إلى الحرب، فهو القطب الذي تدور حوله رحى الحياة العصرية، كما يقول الأستاذ (جود) معلم الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن: «إن النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هي النظرية الاقتصادية، وأصبح البطن أو الجيب ميزانا لكل مسألة، فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعنون بها».

إذا حكمت على عصرك وطبائعه وأذواقه وأنت بمعزل عن الحياة، وبنيت حكمك على مؤلفات ومقالات، إنما تكتب في زاوية من زوايا المكتب فإنك تغالط نفسك، وقد تقرأ في هذه الكتب الفلسفية أو المقالات العلمية التحليلية كأنك في عصر متمدن راق تتحكم فيه معايير الأخلاق وتسود فيه المثل العليا، ويغشاه سحاب الفضيلة والنبل، وتحلق عليه روح الديانة والعلم، ولكن الواقع غير ذلك، فإن هذه الكتب ألفت في عالم الخيال الذي يعيش فيه مؤلفوها، وإن أهواءهم وأذواقهم هي التي خلقت لهم عالما خياليا يصفونه ويصورونه في كتبهم، حتى يخيل إلى القارئ أنه هو العالم المحيط به... وللأهواء عجائب وخوارق.

ولكنك إذا اتصلت بالحياة عن كثب لا عن كتب، وخالطت الناس ودرست أحوالهم، وأصغيت إلى حديثهم في البيت وفي القطار والبستان وعلى المائدة وفي السمر، رأيت (الذهب) حديث النوادي وشغل الألسنة وهوى القلوب، والبداية والنهاية في كل موضوع، والقطب الذي تدور حوله رحى الحياة.

إن شاعرا عربيا يلعن الصعلوك الذي لا يتعدى نظره ولا يسمو فكره عن لباس وطعام ويقول:

لحا الله صعلوكا مناه وهمه ... من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما

فكيف إذا أشرف هذا الشاعر على هذه المدنية، وهي تجري بفلاسفتها وسياسييها ونوابغها وعلمائها، وأشرافها وأغنيائها وفقرائها وراء غاية لا تتعدى لبوسا ومطعما، مهما تنوعت أشكالها وتضخمت ألقابها؟! فالحياة كلها جهاد في سبيل اللباس والطعام.

التدهور في الأخلاق والمجتمع:

احتل الأجانب الشرق الإسلامي وقد أصاب المجتمع الشرقي الإسلامي انحطاط في الأخلاق والاجتماع، وسبقت إليه أدواء خلقية اجتماعية، كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية، وانهزام الأمم الشرقية.

ولكن مع ذلك لم يزل المجتمع الشرقي الإسلامي- على علاته- محتفظا ببعض المبادئ الخلقية السامية والخصائص الاجتماعية الفاضلة التي لا يوجد لها مثيل في الأمم، وقد نضج واكتمل فن الأخلاق عند الشرقيين ووصل من الدقة والتفصيل واللطافة ورقة الحواشي ذروة لا يصل إليها ذهن العصر، ولا يتصورها الغربي إلا في الشعر والأدب.

ويقرأ الإنسان أو يسمع روايات عن استحكام الروابط والأواصر بين أعضاء المجتمع العام وأفراد الأسرة، وتغلغلها في الأحشاء، واستمرارها إلى الأحقاب والأجيال، وخلوها من كل مصلحة ومنفعة مادية، ما لا يتصوره أبناء هذا العصر. وكذلك من حنو الآباء على الأبناء وبر الأبناء بالآباء، وتوقير الصغير للكبير، وحدب الكبير على الصغير، وعن عفاف النساء ووفاء الحلائل، وأمانة الخدم ووفائهم، واستقامة الشبان وثباتهم على الأخلاق، ومعاملة الأشراف بعضهم لبعض، والمحافظة على الرواتب والعادات والاطراد في مسألة اللباس والشعائر والعشرة، والإيثار في شأن الأصدقاء والنصح لهم، يسمع منها غرائب لا يكاد يصدق بها.

كان بر الأبناء للآباء وطاعتهم إلى حد التفاني في سبيلهم والاضمحلال في وجودهم منتزعا من قول النبي ﷺ: «أنت ومالك لوالدك» (١).

وكان حب الأبناء لآبائهم وبرهم وحرصهم على أداء حقوقهم غير مقتصر على حياة الأبوين، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتهما بصلة أصدقائهما وأهل أنسهما والإهداء إليهم والتحبب إلى أولادهم وعشيرتهم، وكان ذلك عملا بقوله ﷺ: «إن من أبر البر صلة

(١) رواه أبو داود، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا.

الرجل بأصل ود أبيه بعد أن يولي»(١).

وكان الأبوان مثلا للنصح والإخلاص في حبهما للأولاد، وكانا يضحيان بجميع أهوائهما وميولهما وراحتهما وبلذة الأمومة والأبوة في سبيل تثقيفهم وتربيتهم وتعليمهم، ويتحملان في ذلك- حتى الرجل الأمي والمرأة الجاهلة- إجحاف المعلمين وعسفهم وإضرارهم في بعض الأحيان بجسم الصغار، ويتجرعان المرائر ويصبران على الغصص في سبيل الأولاد ونبوغهم، وقد تواضع على ذلك أهل البيوتات والشرف حتى أهل الطبقات الوضيعة، ويعدون من خالف ذلك رجلا نذلا لئيما، والذي روى عن هارون الرشيد في تنبيهه لولديه الأمين والمأمون ووصيته لهما بخدمة الكسائي معروف في التاريخ.

ومن غرائب ما يروى في هذا الباب ويمثل الطبيعة الشرقية أن (تاج الدين ألدز) أمير الأفغان بعد السلطان شهاب الدين الغوري أسلم ولده إلى معلم، وضرب المعلم الولد حتى مات، فلما علم بذلك (تاج الدين) أشار على المعلم بأن يهرب وقال: «لا آمن عليك من أم الولد، فعسى أن ينالك منها مكروه».

كانت الرابطة بين الصغير والكبير في المجتمع الإسلامي مؤسسة على تعاليم الشرع: «**من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا**»(٢).

ومن خصائص الحضارة الشرقية الاطراد في الحياة والمحافظة على لون واحد والتظاهر بمظهر واحد، فكان الرجل إذا شرع في أمر وتظاهر بمظهر واصله إلى غايته، وإذا اتخذ عادة أو شارة في اللباس أو عامل أحدا نوع معاملة واظب عليه إلى آخر أنفاسه، ولا تؤثر في ذلك الحوادث ولا تغيره الفصول، ولا انحراف الصحة ولا الكسل ولا المصالح.

ولم يكن العمدة في حياة الأسرة والقبائل ولم يكن الميزان في التوقير والشرف هو كثرة المال، فيختلف المستوى المالي في أسرة اختلافا كبيرا، ويتفاوت الرجال في قبيلة أو قوم تفاوتا عظيما في المال والجاه، فهذا ثري مثر وذلك فقير معدم، ولم يكن يستطيع أحد أن يفرق بينهم ويرفع بعضهم فوق بعض لأجل التفاوت الاقتصادي في مجتمعات الأسر والبيوتات والمآتم (بمعناها اللغوي)، فإذا شم أحد رائحة الفرق أو نظرة الازدراء، ثار

(١) رواه مسلم، عن ابن عمر ﷺ.

(٢) رواه أبو داود، عن عبد الله بن عمر.

كالليث، أو إذا بدرت بادرة من المضيف تنم عن هذا الفصل انسحبت الأسرة كلها من الضيافة، وقاطعوا أهل الضيافة، وكانوا يدا واحدة مع أخيهم المهضوم.

وكان الفقير الصعلوك في قبيلة يواجه الأغنياء والملوك من تلك القبيلة بجرأة، وهو معتز بنفسه معتد بشرفه، لا يرى في نفسه نقيصة لأجل فقر، وكان الغني أو الملك يكرمه، ويحله المحل اللائق بشرفه ونسبه وفضيلته الذاتية، بصرف النظر عن رثاثة هيئته وتبذله، والأزمة الاقتصادية الطارئة على كرم عنصره وصفاء معدنه وطيب منبته ومتانة دينه ووفور علمه.

وكان الفقير في ذلك يبالغ كثيرا في إخفاء عسرته وضنك معيشته ويتحمل ويتجلد، ويسوؤه أن يفطن أحد إلى فاقته ورقة حاله.

وكان ضمير الحر عزيزا محترما كدينه وعرضه، لا يساوم عليه ولا يباع بأي ثمن، وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة أو خيانة يخلص بها نفسه من الموت.

وقد روى لنا التاريخ الهندي طرائف في هذا الباب لابد أن تكون أمثلتها متوافرة في تاريخ جميع البلاد الإسلامية: منها أن الشيخ رضي الله البداوني اتهم بالاشتراك في الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧م، وحوكم أمام حاكم إنجليزي كان من تلاميذه، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه. ولكن الشيخ أبي وقال: قد اشتركت في الخروج على الإنجليز فكيف أجحد؟ واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام، ولما قدم للشنق بكى الحاكم وقال له: حتى في هذ الساعة لو قلت مرة: إن القضية مكذوبة علي، وإني بريء لاجتهدت في تخليصك. ، فغضب الأستاذ وقال: أتريد أن أحبط عملي بالكذب على نفسي؟ لقد خسرت إذا وضل عملي بل قد اشتركت في الثورة، فافعلوا ما بدا لكم. وشنق الرجل!!

ولم يكن صدقهم واعترافهم بما يعملون ويعتقدون مقتصرا على ما يتصل بأنفسهم، بل كانوا صادقين فيما يتصل بالأمة والشعب، فلم يكونوا يعرفون العصبية الجنسية والوطنية والجنف القومي الذي أصبح اليوم من واجبات الجنسية والوطنية. وكانوا يعدون الكذب وشهادة الزور لأجل الأمة والوطن والملة رذيلة وإثما كبيرا، وكانوا يعتقدون أن أحكام الشرع تعم الفرد والأمة والأمور الشخصية والاجتماعية، وكانوا متمسكين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾

[النساء:١٣٥] ، وقوله: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑧﴾ [المائدة:٨] وقوله: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾[النساء:٥٨] وقوله: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام:١٥٢].

ومما يروي لنا الشيوخ من ذلك: أنه وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين في قرية كاندهلة من مديرية (مظفر نكر) في ولايات المتحدة الهندية على أرض، فادعى الهنادك أنها معبد لهم، والمسلمون أنها لهم مسجد. وتحاكموا إلى حاكم البلد الإنجليزي، فسمع الحاكم القضية ودلائل الفريقين ولم يطمئن إلى نتيجة، فسأل الهنادك: هل يوجد في القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه؟ قالوا: نعم، فلان: وسموا شيخا من علماء المسلمين وصالحيهم، فأرسل إليه الحاكم وطلبه إلى المحكمة، فلما جاءه الرسول قال: قد حلفت ألا أرى وجه أفرنجي، ورجع الرسول، فقال الحاكم: لا بأس، ولكن أحضر وادل برأيك في القضية، فحضر الشيخ وولى دبره إلى الحاكم وقال: الحق مع الهنادك في هذه القضية، والأرض لهم. بذلك قضى الحاكم، وخسر المسلمون القضية، ولكن كسبوا قلوب الهنادك وأسلم منهم جماعة.

وكذلك كان الناس يعدون العلم عارية مقدسة ووديعة من الله لا يبيعونه كسلعة في السوق، ولا يتعاونون به على إثم آثم وعدوان معتد، وكانوا لا يرضون أن يستعين به نظام جائر أو حكومة غير إسلامية.

ومما حكى لنا الثقات وقرأناه في التاريخ أن الشيخ عبد الرحيم الرامبوري (م١٢٣٤هـ) كان يعلم في بلدة رامبور براتب زهيد يتقاضاه كل شهر من الإمارة الإسلامية لا يزيد على عشر روبيات (أقل من جنيه مصري)، فقدم إليه حاكم الولاية الإنجليزي المستر هاكنس وظيفة عالية في كلية بريلي راتبها مائتان وخمسون روبية (تسعة عشر جنيها مصريا)، وذلك يساوي خمسين جنيها في هذا العهد، ووعد بالزيادة في الراتب بعد قليل، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال: إني أتقاضى عشر روبيات، وإنها ستنقطع إذا تحولت إلى هذه الوظيفة. فتعجب الإنجليزي وقال: ما رأيت كاليوم: أنا أقدم راتبا يزيد على راتبك الحالي بأضعاف أضعاف، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقنع بالنزر اليسير!!. فتعلل الشيخ بأن في بيته شجرة سدر وهو مغرم بثمرها، وأنه سيحرمها إذا قام في بريلي. ولم يفطن الإنجليزي بعد

إلى مقصود الشيخ. فقال: أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلي، فتشبث ثالثة بأن حوله طلبة وتلاميذ يقرؤون عليه في بلده، فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم. ولم ييأس الإنجليزي المناقش من إقناعه فقال: أنا أجري لهم جرايات في بريلي ويواصلون دروسهم هناك، وهنا أطلق الشيخ آخر سهامه الذي أصمى رميته فقال: وماذا يكون جوابي غدا إذا سألني ربي: كيف أخذت الأجرة على العلم؟ وهنا بهت الإنجليزي وسقط في يديه، وعرف نفسية العالم المسلم، وقضى الشيخ حياته على أقل من جنيه يأخذه كل شهر.

قارن هذه الروح السامية والنفس الكبيرة التي تربأ بالعلم أن يباع بيع السلع، وتغار على العقيدة والكرامة أن تشتري بمال أو منفعة، بهذا التبذل والإسفاف الذي وصل إليه أهل العلم والعقل والصناعة في هذا الزمان، فقد عرض كثير منهم علمهم وعقلهم وما يحسنونه كالسلع في الأسواق، يبيعونهما بالمناداة (المزاد العلني) ليشتريها من يزيد في الثمن كائنا من كان، فليس الشأن عندهم في العقيدة ولا في الغرض والنتيجة، ولا في الملاءمة والذوق، إنما الشأن عندهم في الثمن الذي يدفعه المشتري.

وكل يوم نطلع على مضحكات مبكيات في هذا الباب، فهذا الأستاذ كان أمس في معهد إسلامي يدرس العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وقدمت إليه الكلية الكاثوليكية الفلانية وظيفة تدريس براتب يزيد على راتبه السابق بخمسة جنيهات، فانتقل إليها، وهذا السيد فلان كان في وزارة المعارف سابقا، وكان شابا مثقفا وعالما له هوى في التحقيق والدراسة، تقرأ له مقالات علمية في المجلات الراقية، فإذا به ينتقل فجأة إلى مصلحة الطيران أو الإذاعة، وسألناه: ماذا حدث له حتى غير طريقه وقلب تيار حياته؟ فأخبرنا أن ذلك لأجل أنه يربح في مركزه الجديد عشرة جنيهات!! وهذا الباحث الفلاني كتب مقالة عن التصوف الإسلامي ونال بها ثناء أهل العلم قد تحول إلى وزارة الخارجية، أو أصبح ترجمان دولة أوروبية، وما هو لأجل زيادة بمقدار بضعة جنيهات. أوليس هذا لأن الربح المالي قد أصبح كل شيء، ولأن الذهب اللماع أصبح المتصرف الوحيد في مناهج الحياة والمسيطر الوحيد على الأرواح والعقليات؟!.

قرأنا في التاريخ الإسلامي أن المنصور الخليفة العباسي المشهور طلب من ابن طاوس في مجلس أن يناوله الدواة ليكتب شيئا، فامتنع، فسأله الخليفة عن سبب امتناعه وعدم امتثاله أمر خليفة المسلمين، فقال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها

ومتعاونا على الإثم والعـدوان!! إلى هذا الحد وصل بهم تمسكهم بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، أما امتناعـهم عن قبول منصب القضـاء في نظام لا يرضونه ولا يرتاحون إلى سـيره وتفاصيله فـرواياته بلغت حد التواتر، واطردت في أدوار الحياة الإسلامية الأولى.

قارن هذا الاحتراس من التعاون على الإثم والـعدوان، وهذا التعفف عن المشاركة في نظام غير صحيح، والامتناع عن أدنى مساعدة لهدف لا يتفق ومصالح الأمة الإسلامية، أو يعود عليها بالضرر، أو فيه غش وخديعة للأمـة.. قارن كل ذلك بهذه المساعدة والتعضيد الذي تتـمتع بـه الحكومات الأوروبيـة من المسلمين، وهذا الذكـاء واللبـاقـة والقلم البليغ واللسان الذلق الذي ينتفع به الأجانب منهم في مصالحهم وإداراتهم.

فهناك شبان مـسلمون وكتاب بارعون يتولون تحرير الـصحف والمجلات التي تصدرها الحكومات الأجنبيـة لنشر دعايتها في بلاد المسلمين والتـأثير في عقليتهم ونفسـيتهم وتمويه الحقائق بمقدرة المأجورين من المسلمين أنفسهم.

وهنالك جمـاعة من (الأفاضل) ينحدرون مـن أصول عربية صـميمة، وينتـمون إلى بيوتات عـريقة في المجد والإخـلاص والإسلام، قد جـاهد آباؤهم في سبـيل الحق ومحق الباطل، وبقـيت نسبتهم في أسـمائهم تروي لنا تاريخا مـجيدا عن آبائهم حافـلا بجلائل الأعمال، وجـرى دمهم في عروقهم، وظهر في مـلامح وجوههم وتقاطيعهـا، ويشتغلون اليوم في الحكومات الأجنبية، ويستعـملون تلك اللغة المضرية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، والتي تكلم بها رسل المسلمـين في مجالس ملوك فارس والروم، فـأدوا بها رسالة الإسلام، وألقـوا المهابة في قلوبهم، والتي ألقى بها القـواد المسلمون خطب الجهـاد- بهذا اللغة الكريمة التي لا تليق إلا للبطولة الإسلامية، وبتلك الكلمـات الفصيحة الرائعة التي لا تجمل إلا فـي مواضع الحق والجهـاد، ينشر هؤلاء دعـاية الحكومات الأجـنبية التي تـعبث بالمسلمين عـبث اللاعـب بالكرة، أو عـبث الوليـد بجـانب القـرطاس، وقـد رزأتهم في سيـاستهم واستـقلالهم وإيمانهم وعقلهم واقـتصادهم، ولهم أعمـال من دون ذلك هم لها عاملون.

قد سـمعنا منهم أن هذه الحكومات تقـوم بجهود نبـيلة لخير العـروبة والإسلام ورفع شأنهما. وأنها (نور الحرية الوضاء في عالم ساده الظلام الدامس)، وقد سمعناهم يشيدون

(بالخدمات الجليلة والمساعدات العظيمة التي تقدمها الإذاعة البريطانية في سبيل نهضة الأقطار العربية وتوحيد تفكيرها وثقافتها وتوثيق الروابط بينها، وما تقوم به من نشر الثقافة العربية الإسلامية، وتعريف المسلمين بتاريخهم المجيد ومدنيتهم الزاهرة، وإطلاع العالم العربي على حقائق الأمور، وسير الحوادث في نزاهة وتجرد وصدق)[١]. ولطالما سمعناهم وقرأنا لهم إشادة بإيمان هذه الحكومات بالديمقراطية الصحيحة، وجهادها لتوطيد الأمن العام وسلام العالم وحرية الأمم المستضعفة والبلاد المهضومة، ورفعها لراية العدل والمساواة، والأخذ للمظلوم من الظالم، وقيامها للحق... إلخ.

فإذا كان هؤلاء المتحدثون لا يرضى ضميرهم بما يقولون، ويعرفون أن هذه الكلمات في غير محلها، وإنما هو كله لمصالحهم المالية، فيالانحطاط النفس الشريفة، ويالرخص السلعة الغالية، ويا ضيعة الكلمات العامرة بالمعاني، ويا شقاء اللغة العربية بأهلها؛ وإذا كان ذلك عن اعتقاد وثقة وفهم للمعنى، فيا جهلا بالحقائق، ويا إنكارا للمحسوس، ويا مسخا للقلوب!!.

وهذا عصر التناقض، فيكتب أديب أو صحافي اليوم كتابا حماسيا في سيرة بطل من أبطال الجهاد الإسلامي، أو مجدد من مجددي الإسلام، ولا يجف مداد مقالته أو كتابه ذلك حتى يكتب بقلمه تقريظا أو ثناء على خائن من خونة الأمة، أو صنيعة من صنائع الأجانب، لمصلحة سياسية ومنفعة مالية، ولا يرى في ذلك تناقضا.

طلب ملك من ملوك العرب من شاعر عربي فرسه، فاعتذر أن يعطيها بأي ثمن كان وقال:

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع

ولكن كأن الضمير عند هؤلاء الذين يشتغلون في الحكومات الأجنبية، أو حكومات وطنية جائرة مذلة لرقاب المسلمين ومسودة وجوههم، أو يذيعون من محطاتها ما لا يرضى به ضميرهم ولا يصدقه علمهم، أو يصدرون صحفا، أو يؤلفون كتبا على جعالة أو راتب شهري، أذل وأرخص من جواد الجاهلي فهو يعار ويباع، وذلك لم يكن ليعار ولا ليباع!.

وكانت الروابط والأواصر في الشرق- في الغالب- قائمة على أساس غير مادي، إما

---

(١) الكلمات التي بين قوسين منقولة لفظا.

عقلي وإما روحي ووجداني، وكـان للأثرة والأنانية فيها نصيب ضئيل، وكـان نتيجة ذلك وجود روابط وأواصر لا يمكن تعليلها بالمادة وجر النفع إلى أصحابها، وكانت هذه الروابط متغلغلة في الأحشاء، فمن ذلك أن علاقة التلميذ بأستاذه وإخلاصه له في العهد السابق، يزري بعلاقة الولد بوالده وحبه له في هذا العصر.

اشتهر نبأ وفاة الأستاذ الشهير العلامة نظام الدين اللكهنوي (م١١٦١هـ) صاحب منهاج الدرس النظامي الجاري تطبيقه في الهند وخراسان، فلما أتى النعي تلميذه السيد كمال الدين العظيم آبادي، مات من شدة الحزن، وعمى تلميذه الآخر(ظريف العظيم آبادي) من كثرة البكاء، وتحقق بعد ذلك أن الإشاعة كانت غير صحيحة[١]، ولعل ذهن هذا العصر لا يسيغ هذه الرواية، ولكن الذي عرف طبيعة الشرق، ومدى اتصال التلميذ هنالك بأستاذه وحبه له لم يستغرب هذه الرواية ولم يكذبها.

يعلم المطلع على تاريخ الأخلاق وفلسفتها أنه قد ظهرت مدرسة في أوروبا قبل المسيح بأربعة قرون، وكان لها أنصار من كبار الفلاسفة والأخلاقيين إلى القرن التاسع عشر المسيحي، تدين باللذة البدنية وتعتقد أنها ميزان للأخلاق ومعيار للأعمال، وتشير على أتباعها بأن يهتبلوا فرص التمتع بالحياة الدنيا ويغتنموا فلتات الدهر.

وافترق أصحاب هذه المدرسة فرقتين، فمنهم (أولو الأثرة) الذين يقولون: ينبغي ألا يحول بين الإنسان وشهواته حائل، حتى لا يدع حاجة في نفسه إلا قضاها، فينال بذلك التصيب الأكبر من اللذة والهناءة، وقالوا: السعادة هي إرضاء الشهوة، وقضاء مآرب النفس، واقتطاف قطوف المسرة واللذة باليدين.

والفرقة الثانية هم (النفعيون) ويرى أهل هذا المذهب أن الواجب هو تحصيل المنفعة التي ينال بها أكبر عدد من أفراد البشر أوفر قسط من اللذة والهناءة ولا وزن للأفعال الخلقية في نظرهم إلا بما تأتي به المسرة لغالب بني النوع، ويرى هؤلاء أن السعادة هي أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام.

ويرى القارئ ويلمس الروح المادي المتعشق للذة والهناء في آراء هذا المذهب ونزعاته، من أحطها وأكثرها إسفافا إلى أرقاها وأكثرها تحليقا، وهذا يختلف عن طبائع الشرق

---

[١] نزهة الخواطر للشيخ عبد الحي الحسني (المجلد السادس).

وشرائع السماء اختلافا بينا. وقد أثرت هذه النزعة المادية في فلسفة الغرب وأخلاقه وأدبه وحضارته تأثيرا عميقا، ولا تزال مهيمنة على الحياة الغربية وآدابها حتى اليوم.

ثم نزعوا دائما في تشخيص المنفعة ووزنها إلى المادية، لأنهم احتكموا فيها إلى أذهانهم وعقولهم، وقد أصبحت مادية بحتة، لأنها بحقيقة لا تأتي تحت الحس أو المساحة أو العد أو الوزن، ولا تؤمن بمنفعة لا تجلب لذة وهناء، حتى مؤسس هذا المذهب (أبيقور ٢٧١ق.م) صرح بأن مناط الحكم على الأعمال هي المنفعة، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطا، فكيف وقد تدرجت العقول والطبائع الغربية ومردت على النزوع المادي على تعاقب الأجيال والعصور؟

فكان نتيجة ذلك أن الذهن الغربي والمنطق العصري أصبحا عاجزين عن الاهتداء إلى منفعة غير محسوسة لا تجلب لذة واغتباطا، وأصبح العقل الأوروبي محاميا عن المادية لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء، والأفراد من الاغتباط والرخاء، فأصبح الربح المادي هو ميزان الأخلاق، والفارق بين الشر والخير، وأصبحت الأخلاق التي لا وزن لها في ميزان المادة، ليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية في المصطلح القديم، ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول، وتعدم أنصارا، تصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضي؛ كحنان الأبوين وحبهما للأولاد، ووفاء الأزواج وحفظهن للغيب، وتحل محل هذه الأخلاق المقدرة الصناعية والاختراع والإنتاج والوطنية والجنسية، ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجح وزنها.

ولا يزال المجتمع العصري يستغني عن الروابط المنزلية والأرحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية شعبية على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية. ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده أو الزوجة زوجها إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون في الدائرة المدنية التي اختطها المجتمع حول أفراده، وما دام لا يحدث عملهم هذا اضطرابا في المجتمع وثورة على النظام، ولا يعرقل سير المدنية؛ فلا بأس إذا كان هنالك عقوق من ولد أو فرك من قرينة، أو جفاء من زوج، أو دعارة من امرأة، أو فسق من رجل، أو خيانة من زوجة.

الباب الخامس

قيادة الإسلام للعالم

الفصل الأول:

نهضة العالم الإسلامي

اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية:

لأسباب تاريخية عقلية، طبيعية قاسرة، ذكرناها في البحوث السابقة، تحولت أوروبا النصرانية جاهلية مادية، تجردت من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية، وفضائل خلقية، ومبادئ إنسانية، وأصبحت لا تؤمن في الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادية، وفي الحياة السياسية إلا بالقوة والغلبة، وفي الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية، والقومية الغاشمة، وثارت على الطبيعة الإنسانية، والمبادئ الخلقية، وشغلت بالآلات، واستهانت بالغايات، ونسيت مقصد الحياة، وبجهادها المتواصل في سبيل الحياة، وبسعيها الدائب في الاكتشاف والاختبار، مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية وتغذية الروح، وجحودها بما جاءت به الرسل، وبإمعانها في المادية، وبقوتها الهائلة مع فقدان الوازع الديني، والحاجز الخلقي، أصبحت فيلا هائجا، يدوس الضعيف، ويهلك الحرث والنسل.

وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة وتنازلهم عن قيادة العالم وإمامة الأمم، وبتفريطهم في الدين والدنيا، وجنايتهم على أنفسهم وعلى بني نوعهم، أخذت أوروبا بناصية الأمم، وخلفتهم في قيادة العالم وتسيير سفينة الحياة والمدنية التي اعتزل ربانها، وبذلك أصبح العالم كله- بأممه وشعوبه ومدنياته- قطارا سريعا تسير به قاطرة الجاهلية والمادية إلى غايتها، وأصبح المسلمون- كغيرهم من الأمم- ركابا لا يملكون من أمرهم شيئا، وكلما تقدمت أوروبا في القوة والسرعة، وكلما ازدادت وسائلها ووسائطها، ازداد هذا القطار البشري سرعة إلى الغاية الجاهلية، حيث النار والدمار والاضطراب والتناحر والفوضى الاجتماعية والانحطاط الخلقي والقلق الاقتصادي والإفلاس الروحي، وها هي أوروبا تستبطئ الآن أسرع قطار، وتريد أن تصل إلى غايتها بسرعة الطائرة، بل بسرعة القوة الذرية.

استيلاء الفلسفة الأوروبية على العالم:

وليس على وجه الأرض اليوم أمة أو جماعة تخالف الأمم الغربية في عقائدها

ونظرياتها، وتزاحمها في سيرها وتعارضها في وجهتها وتناقشها في مبادئها وفلسفتها الجاهلية، ونظام حياتها المادي، لا في أوروبا ولا في أمريكا، ولا في أفريقية وآسيا، والذي نرى ونسمع من خلاف سياسي ونزاع بين الأمم فإنما هو تنافس في القيادة، وتنازع فيمن يكون هو القائد إلى هذه الغاية المشتركة، فدول المحور[١] إنما كانت تكره أن يبقى الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل، مستأثرين بموارد الأرض وخيراتها وأسواقها ومستعمراتها، وبشرف السيادة على العالم وحدهم، مع أنها كانت تريد أن تسير إلى غاية أخرى، وأن تقوم بدعوة المسيح، وتقيم في الأرض القسط، وأن تقود الأمم إلى الدين والتقوى، وتنصرف بها وتتجه من المادية إلى الروحانية والأخلاق، فهيهات هيهات.

أما روسيا الشيوعية فليست إلا ثمرة الحضارة الغربية، قد أينعت وأدركت. ولا تمتاز عن الشعوب والدول الأوروبية إلا أن روسيا قد خلعت جلباب النفاق والزور ، ونفذت ما تزوره وتبطنه الأمم الغربية منذ زمن طويل، وتعتقده منذ قرون في الأخلاق والاجتماع، وقد استبطأت روسيا سير هاتيك الأمم والدول في سبيل الإلحاد واللادينية والإباحة المادية البهيمية، فهي تريد أن تتولي قيادة العالم، وتسير بالأمم الإنسانية سيرا حثيثا إلى ما وصلت إليه.

الشعوب والدول الآسيوية:

أما الشعوب والدول الآسيوية والأمم الشرقية فهي في طريقها إلى الغاية التي وصلت إليها شعوب أوروبا في الحضارة والسياسة، وتدين بما تدين به هذه الشعوب في الأخلاق والآداب والاجتماع، وتعتقد ما تعتقده عن الحياة والكون وتتحلى بما تتحلى به من سيرة وخلق وتهذيب، إلا أنها لا ترضي أن يتولى أمرها النزلاء الأجانب، ويقيموا عليها الحجر كما يقام على السفيه، وأن تكون للأوروبيين عليها دول وإمبراطوريات ينعمون في ظلها ويرتعون في جنباتها، ولا يكو لها مثلها في الشرق وأفريقية وآسيا، ولا تستمتع حتى في داخل بلادها بما استمتع به الأوروبيون طويلا حتى في خارج بلادهم. أما أنها تنكر على الأوروبيين ماديتهم، وتنقم منهم أخلاقهم وسيرتهم، وتنعي عليهم فلسفتهم ومبادئهم، فلعل ذلك لا يخطر منها على بال، بل قد زين لها كل ما تتصف به الأمم الأوروبية، فحلا في عينها.

---

(١) دول المحور : هى ألمانيا وحلفاؤها فى الحرب العالمية الثانية .

وكلما سنحت لهـذه الأمم فرصة الاستقلال، وملكت زمـام أمورها تجلت أخلاقـها ومبادؤها، وظهرت سـيرتها الجاهلية في صورتها الطبـيعية الحقيقـية، فإذا هي أفظع صورة وأبشعها في التاريخ، قساوة قلب وضـراوة بالدم الإنساني، وهتكا للأعراض ونهبا للأموال وقتلا وتدميرا، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على إثر استقلالها من الحكم الأجنبي فظائع ومنكرات تستبشـعها الوحوش والسباع وتستك منها الأسـماع، فقد عاملت بعض الشعوب المواطـنة بعصبية دينيـة وسياسية، مـعاملة عز نظيرها في التـاريخ؛ رضعاء يقتلون ويقطعون إربا إربا، ونساء تهتك أعراضهن ثم يقتلن من غير رحمة ولا حياء، وآبار تسمم وبيوت تهدم، ونيران تشعل وقنابل تقذف، وإذا دخلوا قرية فاتحين منتشرين أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ووضعوا فيهـا السيف، وعاث الوحوش في الدماء والأعراض، حتى أقفرت القـرى أو امتلأت الآبار بالسيدات اللاتي آثرن المـوت على هتك الأعراض هذا عدا نساء قـتلن بهمجيـة وطرق فظيعة لم تسبـق في التاريخ، إلى غير ذلك من الأفـاعيل التي يشك فيها الناس في البلاد الإسلامية والمتحضرة.

هذا غير ذلـك الاضطهاد الديني والمقاطعة الاجـتماعيـة التي تلقاها تلك الطوائف في بلادها، وما تلقي ثقافـتها وديانتها من مطاردة ومهـاجمة من تلقاء هذه الشعـوب، فتحرم الحرية الثقافية واللسانية، وترغم على لغة مصطنعة دائرة، ويحاول الأقوياء أن يمحوا كل أثر من آثار حضارتها وثقافتها ويختلقوا عليها الأكاذيب والجنايات، ويمثلوا قصة الحمل والذئب كل يوم، فـيعـزل رجـالها من الوظائف، وتـسد في وجـوههم أبواب المعـاش والتجـارة والحرف، وتقـفل دكاكينهـم ومحالهم التـجارية، وتصادر أمـلاكهم وأموالهـم بعلل واهية مضحكة.

ثم إن هذه الأمم أفلست إفلاسـا شائنا في الدين والأخلاق، وقد أشـربت في قلوبها حب المال والمادة، وتسلط عليـهـا شيطان الأثـرة والجشع حـتى ضجـت منها الحكومـات وتعبت، فقد ارتفعت الأسعـار ارتفاعا فاحشا، فلما التجأت الحكومة إلى التـسعير اختفت السلع والأموال، وأصـبح الناس لا يجدون كسوة ولا طعـاما ولا حاجة إلا بالسـعر الذي يريده التاجر، فنفـقت السوق السوداء، وشاعت الجنايات والخيانات والارتشـاء والتهريب، وأصبحت الحكومة والتجار كفرسي رهان أو قرني ميدان، كل يريد أن يغلب صاحبه وينتهز غرته، وأصبح الناس حبة بين حجري الرحى لا يدرون كيف يفعلون.

وقد حاول رجال الإصلاح والديانة أن ينفخوا فـي هذه الأمم حياة جديدة، ينوا فيها

روح الأخلاق والفضيلة والأمانة والاقتصاد، فأخفقوا إخفاقا تاما، وعلموا أن خلق أمة بأسرها أهون من إصلاح هذه الأمم وتهذيبها، وقد انقطعت مادتها وانقضى أجلها.

وهكذا أصبح العالم شرقا وغربا في أزمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية تطلب حلا سريعا عاجلا.

الحل الوحيد للأزمة العالمية:

والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة.

إن تحول القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعا إلى روسيا لا يغني غناء، ولا يغير من الموقف شيئا، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس، فما دام المجدف واحدا فلا فرق بين يمينه وشماله، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدي رجل واحد تتداول دفة الحياة، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة.

إن التحول المؤثر الواضح هو تحول من أوروبا- بالمعنى الواسع الذي يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا، ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية- التي تقودها المادية والجاهلية، إلى العالم الإسلامي الذي يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم.

هذا هو التحول الذي يغير وجه التاريخ، ويحول مجرى الأمور، وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التي ترقبه.

إن حقا على العالم الإسلامي أن يمني نفسه بهذا المنصب الخطير ويطمح إليه، وإن حقا على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن يشد حيازيمه لذلك، وإن حقا على كل مسلم أن يجاهد في سبيله ويبذل ما في وسعه، فهذه هي المهمة الشريفة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود، ويوم ظهرت نواتها في جزيرة العرب.

العالم الإسلامي على إثر أوروبا:

من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا في الزمن الأخير في كثير من نواحي الأرض، حتى في مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوروبية وجنودا متطوعين

لها، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى في الشعوب الأوروبية التي تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون، ونفخت فيها روحا جديدة، وركزت أعلامها على الشرق والغرب: ناصرا للمسلمين، حاميا لذمار الإسلام المستضعف، حاملا لراية العدل في العالم قواما بالقسط.

ورضى عامة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية، بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك، فترى المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها، وترى تهافتا على الشهوات ونهما للحياة، نهم من لا يؤمن بالآخرة، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدخر من طيباتها شيئا. وترى تنافسا في أسباب الجاه والفخار وتكالبا عليها، فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها، وترى إيثارا للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق، شأن من لا يؤمن بنبي ولا بكتاب، ولا يرجو معادا، ولا يخشى حسابا، وترى حبا للحياة وكراهة للموت، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته، ومنتهى أمله ومبلغ علمه، وترى افتتانا بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية، وترى خضوعا للإنسان، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب، وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبدة الأصنام.

المسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل:

ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض، التي تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم، ومزاحمتها في وضع العالم، والتي يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم، وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتحول بينها وبين جهنم ما استطاعت من القوة، والتي يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول أمة جاهلية.

هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود في حين من الأحيان خطرا على النظام الجاهلي الذي بسطته أوروبا في الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها.

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم: (محمد إقبال) في قصيدته البديعية (برلمان إبليس) على لسان إبليس، ذكر فيها:

إن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى، وتباحثوا في سير العالم، وأخطار الغد وفتنته، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم، وجللوا خطبها وتناذروا شرها، فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حسابا كبيرا، فقال الثاني: لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري، إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها، فألهيناه بلعبة الجمهورية، وليس الشأن في الأمير والملك. إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيه الملوكية، وفرد يستبد بالسلطان، وإنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالا على غيره مستشرفا إلى متاع غيره، سواء في ذلك الشعب والفرد. أما رأيت نظام الغرب الجمهوري وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان؟

فقال الآخر: لا بأس إذا بقيت روح الملوكية، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يدعى كارل ماركس، ذلك الباقعة الذي ليس نبيا ولكنه يحمل عند أتباعه كتابا مقدسا، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة؟

فقال الآخر مخاطبا رئيس المجلس: يا صاحب الفخامة، إن سحرة أوروبا وإن كانوا مريديك المخلصين، ولكني لم أعد أثق بفراستهم، ها هو السامري اليهودي الذي هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسي الاشتراكي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده، فاستنسر البغاث، وأصبح الصعاليك، يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا)، إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية، وها هي ذي قد استفحلت وتفاقم شرها، ها هي الأرض ترجف بهول فتنة الغد.. يا سيدي، إن العالم الذي كنت تحكمه سينقض عليك، وينقلب نظام العالم ظهرا لبطن.

فتكلم رئيس المجلس (إبليس) وقال: إني أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء، وسيرى العالم عجبا إذا حرشت بين الأمم الأوروبية، فتهارشت تهارش الكلاب، وافترس بعضها بعضا فعل الذئاب، وإذا همست في آذان القادة السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم.

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية؛ فكونوا على ثقة أن الخرق الذي أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطق المزدكي (الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء.

إن كنت خائفا فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وتسيل دموعهم على خدودهم سحرا، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل، ليست الاشتراكية.

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورا، وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم، ولكن أخاف أن قوارع هذا العصر وهزته ستقض مضجعها، وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة محمد ﷺ. إني أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ حامي الذمار، حارس الذمم والأعراض، دين الكرامة والشرف، دين الأمانة والعفاف أو دين المروءة والبطولة، دين الكفاح والجهاد. يلغي كل نوع من أنواع الرق، يمحو كل أثر من آثار استبعاد الناس، لا يفرق بين مالك ومملوك، ولا يؤثر سلطانا على صعلوك، يزكي المال من كل دنس ورجس، ويجعله نقيا صافيا، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم[(١)]، أمناء لله وكلاء على المال، وأي ثروة أعظم وأي انقلاب أشد خطرا مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل ويوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين.

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متواريا عن أعين الناس، وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه، فخير لنا أن يبقى مشتغلا بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات، اضربوا على آذان المسلم، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطئ سحره، اشغلوه يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم. خير لنا أن يبقى المسلم عبدا لغيره، ويهجر هذا العالم ويعتزله، ويتنازل عنه لغيره زهدا فيه، واستخفافا لخطره، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه.

رسالة العالم الإسلامي:

لا ينهض العالم الإسلامي إلا برسالته التي وكلها إليه مؤسسه ﷺ والإيمان بها والاستماتة في سبيلها، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها، ولا أفضل ولا أيمن للبشرية منها.

(١) ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[الحديد: ٧].

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى، والتي لخصها أحد رسلهم في مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام». رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف، فهي منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحي، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية.

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم- من أوثان منحوته ومنجورة ومقبورة ومنصوبة- ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق، ولا يزال إله الهوى يعبد، ولا يزال الأحبار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أربابا من دون الله، تقرب لها القرابين وينصب لها الجبين.

وكذلك العالم اليوم- رغم اتساعه وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض- أضيق بأهله منه بالأمس، قد ضيفته المادية التي لا تنظر إلا إلى قدمها، ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات. وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في إقليم واسع، والوطنية الضيقة التي تنظر إلي كل أجنبي شزرا، وتجحد له كل فضل وتحرمه كل حق.

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت، يضيقون هذه الحياة لمن شاؤوا ويوسعونها لمن شاؤوا، ويبسطون الرزق- زعموا- لمن شاؤوا، ويقدرونه لمن شاؤوا فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جحر ضب، وأصبح الناس في بلادهم في شبه حجر كحجر السفيه واليتيم، وضاقت على الناس الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وأصبح الناس في أغلال وأصفاد المدينة والمملكة، مهددين في كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية، وحروب خارجية وداخلية، وإضرابات واضطرابات أسبوعية ويومية.

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام! ولا تزال في هذا العصر المتنور الراقي المثقف أديان تعبث بعقول الناس، وتسخرهم كالحمير والبقر، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت في عيد الأضحى، أو شجرة مقدسة عضدت في قرية من القرى.

وهنالك أديان بغير اسم الأديان لا تقل في نفوذها وسلطانها، ولا تقل في جورها وعدوانها وعبثها بعقول أتباعها وفي عجائبها عن الأديان القديمة: وهي النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التي يؤمن بها الناس كدين ورسالة، كالجنسية والوطنية، والديمقراطية والاشتراكية، والدكتاتورية والشيوعية، وهي أقل مسامحة لمن لا يدين بها، وأشد قسوة على منافسيها، وأضيق عطفا من الأديان الجاهلية.

والاضطهاد السياسي اليوم أفظع من الاضطهاد الديني في القرون المظلمة، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية، أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية، أو انتصر فريق على فريق في الانتخاب، سد في وجه منافسه الأبواب، وعذبه أشد العذاب، وما حرب إسبانيا الأهلية التي دامت مدة طويلة، وسفكت فيها دماء غزيرة، وما حرب الصين التي قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين، وحرب (كوريا) التي قامت بين الجنوبيين والشماليين، وحرب فيتنام التي تقوم بين جنوبها وشمالها، وبين أمريكا المتطفلة، وأهل البلاد؛ إلا نتيجة اختلاف في العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية.

فرسالة العالم الإسلامي هي الدعوة إلي الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر، وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوآتها للناس، واشتد تذمر الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام، لو نهض العالم الإسلامي، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال.

الاستعداد الروحي:

ولكن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر الدينية التي جادت بها أوروبا على العالم، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء، إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوروبا كل يوم إفلاسا فيها، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنة، والزهد في حطام الدنيا، وتحمل الأذى في ذات الله صابرا محتسبا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ

اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء:١٠٤]، فقوة المؤمن وسر انتصاره في إيمانه ورجائه لثواب الله، فإذا كان العالم الإسلامي لا يرمي إلا إلى ما تراه أوروبا من حطام الدنيا، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوروبا من المحسوسات والماديات، كانت أوروبا بقوتها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي الذي يتخلف عنها في القوة المادية تخلفا شائنا ولا يفوقها في القوة المعنوية.

لقد أتى على العالم الإسلامي حين من الدهر، وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها، ولا يحتفظ بالبقية منها، ولا يغذيها، حتى نضب معينها في قلبه، فلما خاض العالم الإسلامي المعارك التي تحتاج إلى الإيمان، والصبر والثبات، وتحمل الشدائد والنكبات؛ وزلزل بعض الزلزال، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، هنالك عرف أنه قد جني على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها، وبحث في جعبته فلم يجد شيئا يسد مكانها ويغني غناءها.

وخاض العالم الإسلامي في معارك حاسمة، هو يرى أن المسلمين تقوم قامتهم، وسوف يهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة، ويغضبون لله ورسوله وحرماته، وأن الأقطار الإسلامية تشتعل نارا وتتوقد حمية وحماسة؛ فإذا الحادث لم يؤثر في العالم الإسلامي التأثير المنتظر، وإذا النظر ضئيل والسخط خافت، وإذا العالم الإسلامي كعادته- في غدواته وروحاته - منهمك في لذاته وشهواته، كأن لم يحدث كبير شيء، فعرف أن الحمية الدينية قد ضعفت في العالم الإسلامي، وأن شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي وخذلانه وهوانه على أنفسهم.

فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي، وجمعياته وهيئاته الدينية وللدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين، وإشعال العاطفة الدينية، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالآخرة، على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى، لا يدخر في ذلك وسعا، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم، كتجوال الدعاة في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارسة كتب السيرة، وأخبار الصحابة وكتب المغازي والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه؛

ومذاكرة أبواب الجهاد، وفضائل الشهداء، وتستخدم لذلك (الإذاعة) والصحافة وكتب الأدب، وجميع القوى والوسائل العصرية.

والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، رتجعلا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقا على الجاهلية وسخطا على النظم الجائرة.

إن علة العالم الإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة، فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيجه منكر، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس. ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية- إن وجدا إلى القلب سبيلا- يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين والشك، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة، وبين راحة الجسم ونعيم القلب، وبين حياة البطالة وموت الشهادة، صراع أحدثه كل نبي في وقته، ولا يصلح العالم إلا به، حينئذ يقوم في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي بل في كل أسرة إسلامية وفي كل بلد إسلامي ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٣، ١٤].

هنالك تتجدد ذكرى بلال، وعمار، وخباب، وخبيب، وصهيب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وأنس بن النضر، هنالك تفوح روائح الجنة وتهب نفحات القرن الأول، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء.

الاستعداد الصناعي والحربي:

ولكن مهمة العالم الإسلامي لا تنتهي هنا، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة، والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب، وأن يستغني عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة؛ وفي كل حاجة من الحاجات، يقوت ويكسو نفسه، ويصنع سلاحه، وينظم شؤون حياته، ويستخرج كنوز أرضه وينتفع بها؛ ويدر حكوماته برجاله وماله، ويمخر البحار المحيطة به بسفنه وأساطيله، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده، وتزيد صادراته على وارداته، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب، ولا يضطر إلى أن يلجأ إلى راية من راياته وينضم إلى معسكر

من معسكراته.

أما ما دام العالم الإسلامي خاضعا للغرب في العلم والسياسة والصناعة والتجارة، يمتص الغرب دمه، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة، وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامي وبيوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شيء.

وما دام العالم الإسلامي يستدين من الغرب الأموال، ويستعير منه الرجال، ليديروا حكومته، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدربوا جيوشه، ويستورد منه البضائع ويجلب منه الصنائع، وينظر إليه كأستاذ ومرب، وسيد ورب، لا يبرم أمرا إلا بإذنه ولا يصدر إلا عن رأيه، فلا يستطيع أبدا أن يواجه الغرب فضلا عن أن يناهضه ويغالبه.

هذه هي الناحية العلمية والصناعية التي أخل بها العالم الإسلامي في الماضي، فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة، وابتلى العالم الإسلامي بالسيادة الأوروبية الجائرة التي ساقت العالم إلى النار والدمار والتناحر والانتحار، فإن فرط العالم الإسلامي مرة ثانية في الاستعداد العلمي والصناعي والاستقلال في شؤون حياته كتب الشقاء للعالم وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها .

تبوء الزعامة في العلم والتحقيق:

وقد تنازل العالم الإسلامي- بما فيه العالم العربي- منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية والتوجيه، والاستقلال الفكري، وأصبح عيالا على الغرب متطفلا على مائدته حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق، والدراسة والتأليف، وهم المنتهى والمرجع والحجة في الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية، وهم الأسوة في النقض والإبرام، وعدد كبير منهم قساوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصبون، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته ﷺ العداء والبغضاء، وللحضارة الإسلامية السخرية والاستهزاء، ويخونون في النصوص والنقول، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ولم يبرع فيها، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة.

وقد تغلغلت أفكارهم ودعاياتهم في الأوساط العلمية الحديثة في العالم الإسلامي، وتجلت بصورة واضحة في الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة وأن الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع وأن الدين عقيدة وعبادة وخلق لا شأن له بالسياسة والحكم وفي الدعوة

إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها. . . إلى غير ذلك من الأفكار التي يدعو إليها تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم في الشرق الإسلامي.

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجها لوجه ونقد أسسها وقيمها نقدا حرا جريئا، فيه الابتكار، وفيه الاستقلال. وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير، والإغراق في التقليد منزلة رأى فيها أن الحضارة الغربية هي آخر ما وصل إليه العقل البشري، وأنه لا منزلة وراءها، ومنهم من دعا إلى تطبيق الحضارة الغربية برمتها، وعلى علاتها في الشرق، ودعا بعض الأقطار الإسلامية العربية إلى اعتبار نفسها جزءا لا يتجزأ من القارة الأوروبية، وإذابتها فيها، واختيار الثقافة اليونانية التي هي أصل الثقافات الأوروبية[1].

وندر في هذه الطبقة وجود (عملاق) يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة حياتها وقيمها، ويشرح الحضارة الغربية وأسسها التي قامت عليها في ثقة واعتداد وعلم وبصيرة. ونستثني من هذه الكلية بعض الأفراد الأفذاذ.

ولابد- إذا أراد العالم الإسلامي أن يقوم على قدميه ويفكر بعقله- أن يقاوم هذا الخضوع، ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة، يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والتعديل، ويتبحرون في العلوم الإسلامية ويتعمقون فيها حتي يفيد منهم كبار المستشرقين وآراءهم في أوروبا وأمريكا، ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم، ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالم العربي وحواضر العالم الإسلامي، كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوروبا وأمريكا. فهذه المدن الإسلامية أولى بأن تكون مركزا للثقافة الإسلامية والعلوم الدينية وآداب اللغة العربية من العواصم الأوروبية وجامعات أوروبا، ومن سقوط الهمة والقناعة بالدون أن تتخلى هذه العواصم العريقة في العلم والدين عن زعامتها العلمية ومكانتها الرئيسية.

التنظيم العلمي الجديد:

ولابد للعالم الإسلامي من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته. وقد ساد العالم الإسلامي على العالم القديم بزعامته العلمية، فتسرب بذلك في عقلية العالم

(١) اقرأ كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) للدكتور طه حسين.

وثقافته، وتغلغل في أحشاء الأدب والفلسفة، وظل العالم المتمدن قرونا يفكر بعقله ويكتب بقلمه ويؤلف بلغته، فكان المؤلفون في إيران وتركستان وأفغانستان والهند لا يؤلفون كتابا له شأن إلا باللغة العربية، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالي في :(كيمياء السعادة).

وإن كانت هذه الحركة العلمية التي ظهرت في صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامي النقي والروح الإسلامي؛ وإن كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها، واضمحلت أمامها النظم العلمية القديمة.

وجاءت نهضة أوروبا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها ونقدها العلمي، ووضعت منهاجا جديدا للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسيتها المادية، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متشبع بهذه الروح، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمي، وخضع له العالم الإسلامي بطبيعة الحال- إذ كان مصابا بالانحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان، وكان لا يجد المدد والغوث إلا في أوربا- فقبل هذا النظام التعليمي على علاته، فهو النظام السائد اليوم في أنحاء العالم الإسلامي.

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية، صراعا بين النفسية الإسلامية- إن كانت لا تزال في الشباب،لم تقتلها البيئة- وبين النفسية الجديدة، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاق الأوروبية، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها، وكانت نتيجة هذا النظام حدوث الشك والنفاق في الطبقة المثقفة، وقلة الصبر، والنهم للحياة وترجيح العاجل على الآجل، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوروبية.

فإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته، ويتحرر من رق غيره، وإذا كان يطمح إلى القيادة، فلابد إذن من الاستقلال التعليمي، بل لابد من الزعامة العلمية، وما هي بالأمر الهين، إنها تحتاج إلى تفكير عميق، وحركة التدوين والتأليف الواسعة، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر، مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولي القوة، إنما هي من شأن الحكومات الإسلامية، فتنظم لذلك جمعيات، وتختار لها أساتذة بارعين في كل فن، فيضعون منهاجا تعليميا يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل، وبين العلوم العصرية

النافعة والتجربة والاختبار ، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام، وبروح الإسلام وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم، وينظمون مالية البلاد الإسلامية، ويديرون حكوماتهم على تعاليم الإسلام، بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد، وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوروبية، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوروبا عن حلها.

وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته، وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده، فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد، فتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أي استعداد:

كل امرئ يجري إلى يوم الهياج بما استعدا

دور القيادة الجديدة :

لقد وقف العالم- نتيجة لقيادة الغرب- على فوهة بركان مستعد للانفجار، أو على شفا جرف هار، ولا صلاح للعالم، ولا بقاء للإنسانية، ما دام الغرب في وضعه الحاضر، هو المهيمن على الحياة كلها، وهو مصدر التوجيه، والإرادة في جميع القارات- فضلا عن البلاد والحكومات- كالدمل الممتد في جسم الإنسانية السليم؛ وهو مرد كل قلق، وكل فوضى، وكل ثورة وانقلاب في أقصى الشرق، وفي أبعد أطراف العالم الإسلامي، لا تثمر مع سيطرته جهود إصلاحية، ولا تبقى رغم إرادته ومصالحه حكومات صالحة، ولا نظام راشد، ولا أمل في السعادة إلا في تحول القيادة والقوة من الغرب المادي الأناني الذي لم يعد قادرا على إسعاد البشرية، ولا رغبة له فيه إلى من يحمل للعالم وللإنسانية روحا جديدا، وتصميما جديدا، ويعتبر نفسه مسؤولا عن ذلك أمام الله، مكلفا به من قبله، هو المسلم الذي ينتظره العالم من جديد، ويهيب به شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، فيقول:

« أنت للسر الأزلي حارس وأمين، ولسيد هذا الكون يسار ويمين[1]. لقد كانت

---

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية، وجارحة لها.

نشأتك من التـراب، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم، اشـرب كأسا فائضـة من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده، واشتدت وطأته.

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقـول، وسحروا النفوس، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقة والدلال، ومرة بالقيود والأغلال، وتارة مثلوا دور (شيرين) وطورا لعبوا دور (أبرويز)(١). لقد مثل الأوروبيـون في العصر الحديث دور جنكيـز وهولاكو، وأصبح العالم كله خرابا يبابا بإغارتهم وغزوهم.

يا باني الحرم، ويا خليـفة إبراهيم، انهض لبناء العالـم من جديد، انتبه من السـبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته» (٢).

(١) يشير إلى قص غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند، تمثل (شيرين) دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال، و(أبرويز) دور الملك القاهر الذي عشقها، واستأثر بها.

(٢) (زبور عجم)، ص ١١٦-١١٨ باختصار وتوسع. (روائع إقبال، الطبعة الثانية ص ١٠٠-١٠١).

الفصل الثاني:

زعامة العالم العربي

أهمية العالم العربي:

إن العالم العربي لـه أهمية كبيـرة في خريطة العالم السيـاسية، وذلك لأنه وطن أمم لعبت أكبـر دور في التاريخ الإنساني، ولأنه يحتضن منابع الثـروة والقوة الكبرى: الذهب الأسود الذي هو دم الجسم الصناعي والحـربي اليوم، ولأنه صلة بين أوروبا وأمريكا، وبين الشرق الأقصى، ولأنه قلب العـالم الإسلامي النابض يتجه إليه روحيا وديـنيا ويدين بحبه وولائه، ولأنه عسى- لا قدر الله-أن يكون ميدان الحرب الثالثة، ولأن فيه الأيدي العاملة، والعقول المفكرة، والأجسام المقاتلة، والأسواق التجارية، والأراضي الزراعية.

ولأن فيـه مصر ذات النيل السـعيد بنتـاجها ومـحصولها وخـصبهـا وثروتها ورقيـها ومدينتـها، وفيه سـورية وفلسطين وجاراتها، باعـتدال مناخهـا وجمال إقليمـها وأهميتـها الاستراتيجية، وبلاد الرافدين بشكيمة أهلها ومـنابع البترول فيها، والجزيرة العربية بمركزها الروحي وسلطانهـا الديني، واجـتـماع الحج السنـوي الذي لا مثـيل له في العـالم، وآبار البترول الغزيرة.

كل ذلك قد جـعل العالم العـربي محط أنظار الغـربيين، وملتقى مطامـعهم ومـيدان تنافس لقيادتهم، وكـان رد فعله أن نشأ في العالم العربي شـعور عميق بالقوميـة العربية، وكثر التغني (بالوطن العربي) و(المجد العربي).

محمد رسول الله روح العالم العربي:

ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربي بغيـر العين التي ينظر بها الأوروبي، وبغير العين التي ينظر بها الوطني العربي، إنه ينظر إليه كمهـد الإسلام ومشرق نوره ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة الـعالمية، ويعتقد أن سيـدنا محمد العربي هو روح العالـم العربي وأساسه وعنوان مجـده، وأن العالم العربي- بما فـيه من موارد الثـروة والقوة وبما فيه من خـيرات وحسنات- جسم بلا روح، وخط بلا وضوح إذا انفـصل- لا سمح الله بذلك- عن سيدنا رسول الله ﷺ وقطع صلتـه عن تعاليـمه ودينه، وأن سيـدنا رسول الله ﷺ هو الذي أبرز

العالم العربي للوجود، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة، وقبائل متناحرة، وشعوبا مستعبدة، ومواهب ضائعة، وبلادا تتسكع في الجهل والضلالات، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية والدولة الفارسية، ولا يخطر ذلك منهم على بال، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم في حال من الأحوال.

وكانت سورية التي تكون جزءا مهما من العالم العربي مستعمرة رومية تعاني الملكية المطلقة والحكم الجائر المستبد، لا تعرف معنى الحرية والعدل، وكان العراق مطية لشهوات الدولة الكيانية مثقلة بالضرائب المجحفة والإتاوات الفادحة. وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوبا ركوبا، يجزون صوفها ويظلمونها في علفها، ثم إنها تعاني الاضطهاد الديني مع الاستبداد السياسي.

فما لبث هذا العالم العربي المفكك المنحل، المظلوم المضطهد أن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، أدرك رسول الله هذا العالم وهو ضائع هالك، وأخذ بيده وهو ساقط متهالك، فأحياه بإذن الله، وجعل له نورا يمشي به في الناس، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام، ورسول الأمن والسلام، ورائد العلم والحكمة، ومشعل الثقافة والحضارة. كان غوثا للأمم، وغيثا للعالم، هنالك كانت الشام، وكان العراق، وكانت مصر، وكان العالم العربي الذي نتحدث عنه، فلولا محمد ﷺ، ولولا رسالته، ولولا ملته، لما كانت سورية، ولا كان العراق ولا كانت مصر، ولا كان العالم العربي، بل ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارة وعقلا، وديانة وخلقا.

فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربي وحكوماته، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولي، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره، أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التي لا شأن لها بالإسلام، ولم يرض برسول الله قائدا ورائدا وإماما وقدوة، فليرد على محمد بن عبد الله ﷺ نعمته ويرجع إلى جاهليته الأولى، حيث الحكم الروماني والإيراني، وحيث الاستعباد والاستبداد، وحيث الظلم والاضطهاد، وحيث الجهل والضلالة، وحيث الغفلة والبطالة، وحيث العزلة عن العالم، والخمول والجمود، فإن هذا التاريخ المجيد، وهذه الحضارة الزاهية، وهذا الأدب الزاخر، وهذه الدول العربية، ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام.

الإيمان هو قوة العالم العربي:

فالإسلام هو قومية العالم العربي، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربي وإمامه وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشري كله فانتصر عليه، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس، به يقهر أعداءه، ويحفظ كيانه، ويؤدي رسالته. إن العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية أو الشيوعية أو عدوا آخر بالمال الذي ترضخه بريطانيا أو تتصدق به أمريكا أو روسيا، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية، وبالروح التي حارب بها الدولة الرومية والإمبراطورية الفارسية في ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعا.

إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة، وعقل يخامره الشك وتتنازع فيه الأفكار والأهواء، أو بيد مضطربة وقلب متشكك ضعيف الإيمان، وقوة متخاذلة في الميدان في الشعوب العربية، وجماهير الأمة وأولياء الأمور، والجيوش العربية والفلاحين والتجار، وفي كل طبقة من طبقات الجمهور، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد في سبيل الله، والتوق إلى الجنة، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة، وكيف يتحملون الشدائد في سبيل الله، وكيف يستقبلون الموت بثغر باسم، وكيف يتهافتون عليه تهافت الفراش على النور.

تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية:

بعث رسول الله ﷺ وقد بلغت شقاوة الإنسانية غاية ما وراءها غاية، وكانت قضية الإنسانية أعظم من أن يقوم لها أفراد متنعمون لا يتعرضون لخطر ولا لخسارة ولا محنة، لهم النعيم الحاضر والغد المضمون، إنما تحتاج هذه القضية إلى أناس يضحون بإمكانياتهم ومستقبلهم في سبيل خدمة الإنسانية وأداء رسالتهم المقدسة، ويعرضون نفوسهم وأموالهم ومعائشهم وحظوظهم من الدنيا للخطر والضياع، وتجاراتهم وحرفهم ومكاسبهم للتلف والكساد، ويخيبون آمال آبائهم وأصدقائهم فيهم، حتى يقولوا للواحد منهم كما قال قوم صالح: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

إنه لا بقاء للإنسانية ولا قيام لدعوة كريمة بغير هؤلاء المجاهدين، وبشقاء هذه الحفنة

من البشر في الدنيا- كما يعتقد كثير من معاصريهم- تنعم الإنسانية وتسعد الأمم، ويتحول تيار العالم من الشر إلى الخير. ومن السعادة أن يشقى أفراد وتنعم أمم، وتضيع أموال وتكسد تجارات لبعض الأفراد وتنجو نفوس وأرواح لا يحصيها إلا الله من عذاب الله ومن نار جهنم.

علم الله عند بعثة الرسول ﷺ أن الروم والفرس والأمم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيع بحكم حياتها المصطنعة المترفة أن تتعرض للخطر، وتتحمل المتاعب والمصاعب في سبيل الدعوة والجهاد وخدمة الإنسانية البائسة، ولا تستطيع أن تضحي بشيء من دقائق مدنيتها وتأنقاتها في الملبس والمأكل، وأن تتنزل عن حظوظها ولذاتها وزخارفها فضلا عن حاجاتها، وأنه لا يوجد فيها أفراد يقومون على قهر شهواتهم، والحد من طموحهم، والزهد في فضول الحياة ومطامع الدنيا، والقناعة بالكفاف، فاختار لرسالة الإسلام وصحبة الرسول ﷺ أمة تضطلع بأعباء الدعوة والجهاد وتقوى على التضحية والإيثار، تلك هي الأمة العربية القوية السليمة التي لم تبتلعها المدنية ولم ينخرها البذخ والترف، وأولئك هم أصحاب محمد ﷺ، أبر الناس قلوبا وأعمقهم علما وأقلهم تكلفا.

قام الرسول بهذه الدعوة العظيمة فأدى حقوقها: من الجهاد في سبيلها وإيثارها على كل ما يقف في وجهها، والعزوف عن الشهوات ومطامع الدنيا، فكان في ذلك أسوة وإماما للعالم كله، كلمه وفد قريش وعرض عليه كل ما يغري الشباب ويرضي الطامحين، من رئاسة وشرف ومال عظيم وزواج كريم، فرفض كل ذلك في صرامة وصراحة، وكلمه عمه وحاول أن يحد من نشاطه في سبيل الدعوة فقال: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**».

ثم كان أسوة للناس في عصره وبعد عصره بقيامه بأكبر قسط من الجهاد والإيثار، والزهد وشظف العيش، وأقل قسط من العيش وأسباب الحياة، فقد أوصد على نفسه الأبواب وسد في وجهه الطرق، وتعدى ذلك إلى أسرته وأهل بيته والمتصلين به، فكان أكثر الناس اتصالا به وأقربهم إليه أقلهم حظا في الحياة، وأعظمهم نصيبا في الجهاد والإيثار، فإذا أراد أن يحرم شيئا بدأ ذلك بعشيرته وبيته، وإذا سن حقا أو فتح بابا لمنفعة قدم الآخرين، وربما حرمه على عشيرته الأقربين.

أراد أن يحرم الربا فبدأ بربا عـمه عباس بن عبد المطلب فـوضعه كله، وأراد أن يهدر دماء الجاهلية فـبدأ بدم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فـأبطله، وسن الزكاة وهي منفعة مالية عظيـمة مستمـرة إلى يوم القيامة، فحـرمها على عشيـرته بني هاشم إلى آخر الأبد، وكلمـه علي بن أبي طالب يوم الفتـح أن يجمع لبني هاشم الحـجابة مع السـقاية فـأبى، وطلب عثمان بن طلحة وناوله مفتاح الكعبة، وقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، وقال: خذوها خالدة تالدة فيكم، لا ينزعها منكم إلا ظالم.

وحمل أزواجـه على الزهد والقناعة وشظف العـيش وخيرهن بـين عشرته مع الفـقر وضيق العيش، ومفـارقته مع السعة والرخاء، وتلا عليـهن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٨، ٢٩]، فاخترن الله والرسول. وتأتيه فاطمة تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى، وبلغها أنه جاءه رقيق، فيوصيها بالتسبيح والتحميد والتكبير، ويقول لها: إنه خير لها من خادم... وهكذا كان شأنه مع أهل بيته والمتصلين به فالأقرب ثم الأقرب.

وآمن به رجال من قريش في مكة، فـاضطربت حياتهم الاقتصـادية اضطرابا عظيما، وكسدت تجاراتهم، وحرم بعضهم رأس ماله الذي جمـعه في حياته، وحرم بعضهم أسباب الترف والرخاء وأناقة اللباس التي كان فيها مـضرب المثل، وكسدت تجارة بعضهم لاشتغاله بالدعوة وانصراف الزبائن عنه، وحرم بعضهم نصيبه في ثروة أبيه.

ثم لما هاجر الرسول إلى المدينة وتبعه الأنصار تأثرت بذلك بساتينهم ومزارعهم، فلما أرادوا أن يقـبلوا عليهـا بعض الوقت ويصلحـوها لم يســمح لهم بذلك، وأنذرهم الله به فقال: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾ [البقرة: ١٩٥].

وهكذا كان شـأن العرب والذين احتـضنوا هذه الدعوة منهم، فقـد كان نصيـبهم من متاعب الجهاد وخسائر النفوس والأموال أعظم من نصيب أى أمة في العالم، وقد خاطبهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾[التوبة: ٢٤].

وقال: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]. لأن سعادة البشرية إنما كانت تتوقف على ما يقدمونه من تضحية، وإيثار ما يتحملون من خسائر ونكبات فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾[البقرة: ١٥٥]، وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾[العنكبوت: ٢]. وكان إحجام العرب عن هذه المكرمة وترددهم في ذلك امتدادا لشقاء الإنسانية واستمرارا للأوضاع السيئة في العالم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقد وقف العالم في القرن السادس المسيحي على مفترق الطرق، إما أن يتقدم العرب ويعرضوا نفوسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يعز عليهم للخطر، ويزهدوا في مطامع الدنيا ويضحوا في سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم، فيسعد العالم وتستقيم البشرية وتقوم سوق الجنة وتروج بضاعة الإيمان، وإما أن يؤثروا شهواتهم ومطامعهم وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية وصلاح العالم، فيبقى العالم في حمأ الضلالة والشقاء إلى ما شاء الله، وقد أراد الله بالإنسانية خيرا وتشجع العرب- بما نفخ فيهم محمد ﷺ من روح الإيمان والإيثار، وحبب إليهم الدار الآخرة وثوابها- فقدموا أنفسهم فداء للإنسانية كلها، وزهدوا في مطامع الدنيا طمعا في ثواب الله وسعادة النوع الإنساني، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وضحوا بكل ما يحرص عليه الناس من مطامع وشهوات وآمال وأحلام، وأخلصوا لله العمل والجهاد، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين.

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول، ووقف العالم على مفترق الطرق مرة ثانية، إما أن يتقدم العرب- وهم أمة الرسول وعشيرته- إلى الميدان، ويغامروا بنفوسهم وإمكانياتهم ومطامحهم، ويخاطروا فيما هم فيه من رخاء وثراء، ودنيا واسعة، وفرص متاحة للعيش، وأسباب ميسورة؛ فينهض العالم من عثاره، وتتبدل الأرض غير الأرض؛ وإما أن يستمروا فيما هم فهي من طمع وطموح، وتنافس في الوظائف والمرتبات، وتفكر في كثرة الدخل والإيراد، وزيادة غلة الأملاك وربح التجارات، والحصول على أسباب الترف والتنعم ؛ فيبقى العالم في هذا المستنقع الذي يتردى فيه منذ قرون.

إن العالم لا يسعد وخيرة الشباب في العواصم العربية عاكفون على شهواتهم، تدور

حياتهم حول المادة والمعدة لا يفكرون في غيرهما، ولا يترفعون عن الجهاد في سبيلهما، ولقد كان شباب بعض الأمم الجاهلية الذين ضحوا بمستقبلهم في سبيل المبادئ التي اعتنقوها أكبر منهم نفسا، وأوسع منهم فكرا، بل كان الشاعر الجاهلي (امرؤ القيس) أعلى منهم همة، إذ قال:

ولو أني أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

إن العالم لا يمكن أن يصل إلى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم. إن الأرض لفي حاجة إلى سماد، وسماد أرض البشرية الذي تصلح به وتنبت زرع الإسلام الكريم هي: الشهوات والمطامع الفردية التي يضحي بها الشباب العربي في سبيل علو الإسلام وبسط الأمن والسلام على العالم، وانتقال الناس من الطريق المؤدية إلى جهنم إلى الطريق المؤدية إلى الجنة.

إنه لثمن قليل جدا لسلعة غالية جدا!!

العناية بالفروسية والحياة العسكرية:

من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيرا من خصائصها العسكرية، ورزئت في فروسيتها التي كانت معروفة بها في العالم، فكانت رزيئة كبيرة وخسارة فادحة، وكانت سببا من أسباب ضعفها وعجزها في ميدان الجهاد، فقد اضمحلت الروح العسكرية، وضعفت الأجسام، ونشأ الناس على التنعم، وقد حلت السيارات محل الجياد حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية، وهجر الناس المصارعة والمناضلة وسباق الخيل وأنواع الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية، واستبدلوا بها ألعابا لا تفيدهم شيئا. فالمهم لرجال التعليم والتربية قادة الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية، وعلى البساطة في المعيشة وخشونة العيش والجلادة، وتحمل المشاق والمتاعب، والصبر على المكروه!

وقد كتب المربي الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى بعض عماله العرب وهم في بلاد العجم: «إياكم والتنعم وزي العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب،

وتمعددوا[١]، واخشوشنوا[٢]، واخشوشبوا[٣]، واخلولقوا[٤]، وأعطوا الركب أسنتها، وانزوا نزوا، وارموا الأغراض»[٥].

وقد قال النبي ﷺ: **«ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا»**[٦] وقال: **«ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»**[٧].

ومن واجب رجال التربية وولاة الأمر أن يحاربوا بكل قوتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة ويبعث على التخنث والعجز، من عادات وأدب وصحافة وتعليم، ويأخذوا على يد الصحافة الماجنة والأدب الخليع الملحد، الذي ينشر في الشباب النفاق والدعارة والفسوق، وعبادة اللذة والشهوات، ولا يسمحوا لهؤلاء التجار الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا أن يدخلوا في معسكر محمد ﷺ الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها وأخلاقها، ويزينوا لها الفسوق والعصيان، وحب الفحشاء، بثمن بخس دراهم معدودة؛ وقد شهد التاريخ بأن كل أمة أصيب رجالها في رجولتهم وغيرتهم، ونساؤها في أنوثتهن وأمومتهن، وطغى فيهن التبرج، ومزاحمة الرجال في كل شيء، والزهد في الحياة المنزلية، وحبب إليهن العقم؛ أفل نجمها وكسفت شمسها، فأصبحت أثرا بعد عين.

هذه كانت عاقبة اليونان والرومان والفرس، وإن أوروبا لفي طريقها إلى هذه العاقبة، فليحذر العالم العربي من هذا المصير الهائل.

محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغني والصعلوك:

وقد اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة، والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة

---

(١) تمعدد الغلام: شب وغلظ، وقيل معناه: تشبهوا بعيش معد بن عدنان، وكان ذا غلظ وتقشف.

(٢) اخشوشن: تخشن في المطعم والملبس.

(٣) اخشوشب: صار صلبا كالخشب في أحواله وصبره على الجهد.

(٤) تبذلوا في الملابس.

(٥) رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي.

(٦) رواه البخاري.

(٧) رواه مسلم.

والشهوة والفخر والزينة.

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير، جوع وعري وفقر فاضح، يرى الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية، فتدمع العين ويحزن القلب وينتكس الرأس حياء وخجلا، فبينا هنالك رجل عنده فضول الثياب، وزائد الطعام والشراب لا يعرف كيف يستهلكه، إذا ببدوي لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه؛ وبينما أمراء العرب وأغنياؤهم على سيارات تباري الريح وتثير النقع، إذا بفوج من النساء والأطفال عليه ثياب سوداء، قد أصبحت خيوطا من طول اللبس، يعدو لأجل فلس أو قرص؛ فمادامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة والسيارات الفاخرة، وبين الأكواخ الحقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة، ومادامت التخمة والجوع يزخران في مدينة واحدة، فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق لا توقفها دعاية ولا قوة، وإذا لم يسد النظام الإسلامي في بلاده بجماله واعتداله؛ يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقابا من الله كرد فعل عنيف.

التخلص من أنواع الأثرة:

لقد أتى على العالم العربي عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد- وهو شخص الخليفة أو الملك- أو حول حفنة من الرجال- هم الوزراء وأبناء الملك- وكانت البلاد تعتبر ملكا شخصيا لذلك الفرد السعيد والأمة كلها فوجا من المماليك والعبيد، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم، ولم تكن الأمة التي كان يحكم عليها إلا ظلا لشخصه، ولم تكن حياتها إلا امتدادا لحياته.

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها، فإذا استعرض أحد تاريخ هذا العهد أو أدب تلك الفترة من الزمان وجد هذه الشخصية تسيطر على الأمة أو المجتمع، كما تسيطر شجرة باسقة على الحشائش والشجيرات التي تنبت في ظلها وتمنعها من الشمس والهواء، كذلك تضمحل هذه الأمة في شخص هذا الفرد وتذوب، وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة، ولا حرية لها ولا كرامة.

وكان هذا الفرد هو الذي تدور لأجله عجلة الحياة، فلأجله يتعب الفلاح ويشتغل التاجر ويجتهد الصانع ويؤلف المؤلف وينظم الشاعر، ولأجله تلد الأمهات، وفي سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش، بل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ويقذف البحر نفائسه

وتستخرج كنوز الأرض خيراتها.

وكانت الأمة- وهي صاحبة الإنتاج وصاحبة الفضل في هذه الرفاهية كلها تعيش عيش الصعاليك، أو الأرقاء المماليك، وقد تسعد بفتات مائدة الملك، وبما يفضل عن حاشيته، فتشكر، وقد تحرم ذلك أيضا، فتصبر، وقد تموت فيها الإنسانية فلا تنكر شيئا، بل تتسابق في التزلف وانتهاز الفرص.

هذا هو العهد الذي ازدهر في الشرق طويلا، وترك رواسب في حياة هذه الأمة ونفوسها وفي أدبها وشعرها، وأخلاقها واجتماعاتها، وخلف آثارا باقية في المكتبة العربية، ومن هذه الآثار الناطقة كتاب (ألف ليلة وليلة) الذي يصور ذلك العهد تصويرا بارعا، يوم كان الخليفة في بغداد أو الملك في دمشق أو القاهرة، وهو كل شيء، وبطل رواية الحياة ومركز الدائرة.

إن هذا العهد الذي يمثله كتاب (ألف ليلة وليلة) بأساطيره وقصصه، وكتاب الأغاني بتاريخه وأدبه، لم يكن عهدا إسلاميا، ولا عهدا طبيعيا معقولا، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه، فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد ﷺ فسماه الجاهلية ونعي عليه، وأنكر على ملوكه- ككسرى وقيصر- وعلى أثرتهم وترفهم أشد الإنكار.

إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في أي مكان وفي أي زمان، ولا سبيل إليه إلا إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة في عقلها أو فاقدة الوعي والشعور أو ميتة النفس والروح.

إن هذا الوضع لا يقره عقل، ومن الذي يسوغ أن يتخم فرد أو بضعة أفراد بأنواع الطعام والشراب، ويموت الآلاف جوعا ومسغبة، ومن الذي يسوغ أن يعبث ملك أو أبناء ملك بالمال عبث المجانين، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ومن الكسوة ما يستر جسمهم، ومن الذي يسوغ أن يكون حظ طبقة- وهي الكثرة- الإنتاج وحده والكدح في الحياة والعمل المضني الذي لا نهاية له، وحظ طبقة- وهي لا تجاوز عدد الأصابع- إلا التلهي بثمرات تعب الطبقة الأولى، من غير شكر وتقدير وفي غير عقل ووعي، ومن

الذي يسوغ أن يشقى أهل الصناعة وأهل الذكاء وأهل الاجتهاد وأهل المواهب وأهل الصلاح، وينعم رجال لا يحسنون غير التبذير، ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور وشرب الخمور؟! ومن الذي يسوغ أن يجفى أهل الكفاية وأهل النبوغ وأهل الأمانة ويقصوا كالمنبوذين، ويجتمع حول ملك أو أمير فوج من خساس النفوس وسخفاء العقول وفاقدي الضمائر، ممن لا هم لهم إلا ابتزاز الأموال وإرضاء الشهوات، ولا يحسنون فنا من فنون الدنيا غير التملق والإطراء والمؤامرة ضد الأبرياء، ولا يتصفون بشيء غير فقدان الشعور وقلة الحياء.

إنه وضع شاذ لا ينبغي أن يبقي يوما فضلا عن أن يبقى أعواما.

إنه إن سبق في عهد من عهود التاريخ، وبقي مدة طويلة فقد كان ذلك على غفلة من الأمة أو على الرغم منها، وبسبب ضعف الإسلام وقوة الجاهلية، ولكنه خليق بأن ينهار ويتداعى كلما أشرقت شمس الإسلام واستيقظ الوعي وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها.

فالذين لا يزالون يعيشون في عالم (ألف ليلة وليلة) إنما يعيشون في عالم الأحلام، إنما يعيشون في بيت أوهن من بيت العنكبوت، إنما يعيشون في بيت مهدد بالأخطار لا يدرون متى يكبس، ولا يدرون متى تعمل فيه معاول الهدم، وإن سلموا من كل هذا فلا يدرون متى يخر عليهم السقف من فوقهم، فإنه بيت قائم على غير أساس متين وعلى غير دعائم قوية.

ألا إن عهد ألف ليلة وليلة قد مضى فلا يخدعن أقوام أنفسهم، ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت، إن الملوكية مصباح- إن جاز هذا التعبير- قد نفد زيته واحترقت فتيلته، فهو إلى انطفاء عاج ولو لم تهب عاصفة.

إنه لا محل في الإسلام لأي نوع من أنواع الأثرة، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية أو العائلية التي نراها في بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية، ولا محل فيه للأثرة المنظمة التي نراها في أوروبا وأمريكا وفي روسيا، فهي في أوروبا أثرة حزب من الأحزاب، وفي أمريكا أثرة الرأسماليين، وفي روسيا قلة آمنت بالشيوعية المتطرفة وفرضت نفسها على الكثرة، وهي تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ووحشية ربما لا يوجد لها

نظير في تاريخ السخرة الظالمة[١].

إن الأثرة بجميع أنواعها ستنتهي، وإن الإنسانية ستثور عليها وتنتقم منها انتقاما شديدا، إنه لا مستقبل في العالم إلا للإسلام السمح العادل الوسط، وإن طال أجل هذه (الأثرات) وأرخى لها العنان وتمادت في غيها وطغيانها مدة من الزمان.

إن الأثرة- فردية كانت أو عائلية أو حزبية أو طبقية- غير طبيعية في حياة الأمة، وإنها تتخلص منها في أول فرصة، إنه لا محل لها في الإسلام ولا محل لها في مجتمع واع بلغ الرشد، ولا أمل في استمرارها؛ فخير للمسلمين وخير للغرب وخير لقادتهم وولاة أمورهم أن يخلصوا أنفسهم منها، ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تغرق فيغرقوا معها.

إيجاد الوعي في الأمة:

إن أخوف ما يخاف على أمة، ويعرضها لكل خطر، ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعي في هذه الأمة، وافتتانها بكل دعوة واندفاعها إلى كل موجة، وخضوعها لكل متسلط، وسكوتها على كل فظيعة وتحملها لكل ضيم، وتعقل الأمور ولا تضعها في مواضعها، ولا تميز بين الصديق والعدو وبين الناصح والغاش، وأن تلدغ من جحر مرة بعد مرة، ولا تنصحها الحوادث، ولا تروعها التجارب، ولا تنتفع بالكوارث، ولا تزال تولي قيادها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة والأثرة والأنانية والجبن والعجز، والخرق والطيش، وكان سببا للهزيمة والذلة، ولا تزال تضع ثقتها فيه، وتمكنه من نفسها وأموالها وأعراضها ومفاتيح ملكها، وتنسى سريعا ما لاقت علي يده من الخسائر والنكبات، فيجترئ بذلك السياسيون المحترفون والقادة الخائنون، ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها، ويتمادون في غيهم ويسترسلون في خياناتهم وعبثهم ثقة ببلاهة الأمة وسذاجة الشعب وفقدان الوعي.

إن الشعوب الإسلامية والبلاد العربية- مع الأسف- ضعيفة الوعي، إذا تحرجنا أن نقول: فاقدة الوعي، فهي لا تعرف صديقها من عدوها ولا تزال تعاملهما معاملة سواء، أو تعامل العدو أحسن مما تعامل الصديق الناصح، وقد يكون الصديق في تعب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو، ولا تزال تلدغ من جحر واحد ألف مرة، ولا تعتبر بالحوادث والتجارب، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضي الزعماء والقادة،

---

(١) اقرأ في ذلك كتاب:

Professor Ernest tallgren لمؤلفه Forced Labourin Russia

وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة، وهي ضعيفة في الوعي الديني والوعي الاجتماعي وأضعف في الوعي السياسي، وذلك ما جر عليها ويلا عظيما وشقاء كبيرا، وسلط عليها القيادة الزائفة وفضحها في كل معركة.

إن الأمم الأوروبية- برغم إفلاسها في الروح والأخلاق وبرغم عيوبها الكثيرة التي بحثنا عنها في هذا الكتاب- قوية الوعي، والوعي المدني والسياسي، قد بلغت سن الرشد في السياسة، وأصبحت تعرف نفعها من ضررها، وتميز بين الناصح والخادع، وبين المخلص والمنافق، وبين الكفء والعاجز، فلا تولي قيادها إلا الأكفاء الأقوياء الأمناء، ثم لا توليهم أمورها إلا على حذر، فإذا رأت منهم عجزا أو خيانة، أو رأت أنهم مثلوا دورهم وانتهوا من أمرهم، استغنت عنهم، وأبدلت بهم رجالا أقوى منهم وأعظم كفاءة وأجدر بالموقف، ولم يمنعها من إقالتهم أو إقصائهم من الحكم ماضيهم الرائع وأعمالهم الجليلة وانتصارهم في حرب، أو نجاحهم في قضية. وبذلك أمنت السياسيين المحترفين، والقيادة الضعيفة أو الخائنة، وخوف ذلك الزعماء ورجال الحكم، وكانوا حذرين ساهرين يخافون رقابة الأمة وعقابها وبطش الرأي العام.

فمن أعظم ما تخدم به هذه الأمة وتؤمن من المهازل والمآسي التي لا تكاد تنتهي هو إيجاد الوعي في طبقاتها ودهمائها، وتربية الجماهير التربية العقلية والمدنية والسياسية. ولا يخفى أن الوعي غير فشو التعليم وزوال الأمية، وإن كانت هذه الأخيرة من أنجح وسائلها، وليعرف الزعماء السياسيون والقادة أن الأمية التي يعوزها الوعي غير جديرة بالثقة لا تبعث حالتها على الارتياح، وإن أطرت الزعامة والزعماء وقدستهم، فإنها- مادامت ضعيفة الوعي- عرضة لكل دعاية وتهريج وسخرية، كريشة في فلاة تلعب بها الرياح ولا تستقر في مكان.

استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها:

وكذلك لابد للعالم العربي - كالعالم الإسلامي- من الاستقلال في تجارته وماليته وصناعته وتعليمه لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبته أرضه وتنسجه يده، وتستغني عن الغرب في جميع شؤون حياتها وفي كل ما تحتاج إليه من كسوة، وطعام، وبضائع، ومصنوعات، وأسلحة وجهاز حربي، وآلات وماكينات وأدوية، فلا تكون كلا على الغرب

وعيالا عليه في معيشتها ومتطفلة على مائدته.

إن العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الغرب-إذا احتاج إلى ذلك ودعت: إليه الظروف- وهو مدين له في ماله، عيال عليه في لباسه وبضائعه، لا يجد قلما يوقع به على ميثاق مع الغرب إلا القلم الذي صنع في الغرب، ولا يجد ما يقاتل به الغرب إلا الرصاص الذي أفرغ في الغرب، إن عارا على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها، وأن يجري ماء الحياة في عروقها وشرايينها إلى أجسام غيرها، وأن يدرب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه، ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله، فلا بد للعالم العربي أن يقوم هو نفسه بحاجاته: تنظيم التجارة والمالية، وحركة التوريد والتصدير، والصناعة الوطنية، وتدرب الجيش، وصنع الآلات والماكينات، وتربية الرجال الذين يضطلعون بجميع مهمات الدولة ووظائف الحكومة في خبرة ومهارة فنية، وأمانة ونصيحة.

رجاء العالم الإسلامي في العالم العربي:

والعالم العربي بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي، ويزاحم أوروبا، بعد الاستعداد الكامل، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله، ويحول العالم من الشر إلى الخير، ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام.

إلى قمة القيادة العالمية:

ما أعظم التطور الذي حدث في تاريخ العرب على إثر بعثة محمد ﷺ ونادت به سورة الإسراء وقصة المعراج في لغة صريحة بليغة وفي أسلوب مبين مشرق[1]. وما أعظم النعمة التي أسبغها الله على العرب، نقلهم من جزيرتهم التي يتناحرون فيها إلى العالم الفسيح الذي يقودونه بناصيته، ومن الحياة القبلية المحدودة التي ضاقوا بها إلى الإنسانية الواسعة التي يشرفون عليها ويوجهونها، وأصبحوا بفضل هذا التطور العظيم الذي فاجأ العرب وفاجأ العالم يقولون بكل وضوح وشجاعة لإمبراطور المملكة الفارسية العظيمة وأركانه دولته: «الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن

(١) تضم سورة الإسراء وقصة المعراج إعلانا بأن محمدا ﷺ هو نبي القبلتين وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله وإمام الأجيال بعده.

ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام».

نعم، لقد خرجوا من ضيق الدنيا أولا إلى سعتها، ثم أخرجوا الأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها آخرا، وهل أضيق من الحياة القبلية والجنسية، وأوسع من الحياة الإنسانية الآفاق؟ وهل أضيق من الحياة التي لا يفكر فيها إلا في المادة الزائلة والحياة الفانية، ولا يجاهد إلا في سبيلها!! وهل أوسع من الحياة الإيمانية الروحانية التي لا نهاية لها ولا تحديدا!؟

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب ومن ضيق الحياة فيها، ومن ضيق التفكير في مسائلها ومصالحها، ومن ضيق التناحر على سيادتها، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل وملكها الضئيل وعيشها الذليل، إلى عالم جديد من السيادة الروحية والخلقية والعلمية والسياسية. ليس الدانوب الفائض والنيل السعيد والفرات العذب والسند الطويل إلا سواقي حقيرة وترعا صغيرة فيه، وليست جبال الألب والبرانس وعقاب لبنان وقمم هيمالايا إلا تلالا متواضعة وسدودا صغيرة، وليست البلاد الواسعة كالهند والصين وتركستان إلا أحياء ضيقة وحارات صغيرة، ونقطا مغمورة في هذا العالم، وليست هذه الأرض كلها- إذا نظر إليها من ارتقى إلى قمة هذه السيادة- إلا خريطة صغيرة ملونة يراها الطائر المحلق في السماء، وليست الأمم الكبيرة- مع ثقافتها وحضارتها وآدابها- إلا أسرا صغيرة في أمة كبيرة.

لقد قام العالم الكبير على أساس العقيدة الواحدة، والإيمان العميق والصلة الروحية القوية، وكان أوسع عالم عرفه التاريخ، وكانت الشعوب التي تكون هذا العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ. تنصهر فيها الثقافات المختلقة، والعبقريات المختلفة، فتكون منها ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية، التي لم تزل تظهر في نوابغ الإسلام الذين لا يحصيهم عدد، وفي المآثر الإسلامية- بين علمية وعملية- التي لا يستقصيها التاريخ.

لقد كانت- ولا تزال- قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق أشرف قيادة وأعظمها وأقواها في تاريخ الزعامة والقيادة، وقد أكرم الله بها العرب لما أخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية وتفانوا في سبيلها، فأحبهم الناس في العالم حبا لم يعرف له نظير، وقلدوهم في كل شيء تقليدا لم يعرف له نظير، وخضعت للغتهم اللغات، ولثقافتهم الثقافات، ولحضارتهم الحضارات، فكانت لغتهم هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه، هي اللغة المقدسة الحبيبة التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشؤوا عليها،

ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم وأحب مؤلفاتهم، ويتقنونها كأبنائها وأحسن، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي، ويقر بفضلهم وإمامتهم أدباء العرب ونقادهم.

وكانت حضارتهم هي الحضارة المثلى التي يتمجد الناس ويتظرفون بتقليدها، ويحث علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الأخرى ويطلقون على كل ما يخالفها من الحضارات (اسم الجاهلية) و(العجمية)، وينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها.

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة والناس لا يفكرون في ثورة عليها، وفي بالتخلص منها كما هي عادة المفتوحين والأمم المغلوبة على أمرها في كل عهد، لأن صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح بالفاتح أو المحكوم بالحاكم، أو الرقيق بالسيد القاهر، إنما هي صلة المتدين بالمتدين وصلة المؤمن بالمؤمن وعلى الأكثر إنما هي صلة التابع بالمتبوع الذي سبقه بمعرفة الحق والإيمان بالدعوة والتفاني في سبيلها، فلا محل للثورة، ولا محل للتذمر، ولا محل لنكران الجميل، إنما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل، وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء ، وأن يقولوا: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ١٠].

وهكذا كان، فقد ظلت هذه الأمم المفتوحة تعتبر العرب المنقذ من الجاهلية والوثنية، والداعي إلى دار السلام، والقائد إلى الجنة، والمعلم والأستاذ في الأدب.

هذه هي القيادة العالمية التي هيأتها البعثة المحمدية، وأعلنتها سورة الإسراء، وهي القيادة التي يجب أن يحرص عليها العرب أشد الحرص، ويعضوا عليها بالنواجذ، ويسعوا إليها بكل ما أوتوا من مواهب، ويتواصى بها الآباء والأبناء، ولا يجوز لهم- في شريعة العقل والدين والغيرة- أن يتخلوا عنها في زمن من الأزمان، ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة، وليس في غيرها عوض عنها وكفاية، وهي القيادة التي تشمل جميع أنواع القيادة والسيادة، وهي تسيطر على القلوب والأرواح، أكثر من سيطرتها على الأجسام والأشباح.

إن الطريق إلي هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب، وهي الطريق التي جربوها في عهدهم الأول: الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها، وتبنيها والتفاني في سبيلها، وتفضل منهج الحياة الإسلامي على جميع مناهج الحياة.

وبذلك - من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبوئها - تخضع لهم الأمم الإسلامية في أنحاء العالم، وتتهالك على حبهم وإجلالهم وتقليدهم، وبذلك تنفتح لهم أبواب جديدة وميادين جديدة في مشارق الأرض ومغاربها، الميادين التي استعصت على غزاة الغرب مستعمريه وثارت عليه، وتدخل أمم جديدة في الإسلام، أمم فتية في مواهبها وقواها وذخائرها، أمم تستطيع أن تعارض أوروبا في مدنيتها وعلومها إذا وجدت إيمانا جديدا، ودينا جديدا، وروحا جديدا، ورسالة جديدة.

إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التي فتحتم بها العالم القديم في ميادين ضيقة محدودة؟ وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم - الذي جرف بالأمس المدنيات والحكومات- في حدود هذا الوادي الضيق، تصطرع أمواجه ويلتهم بعضها بعضا؟

إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته واجتباكم لهدايته، وكانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد في تاريخ أمتكم وفي تاريخ العالم جميعا، وفي مصيركم ومصير العالم جميعا، فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد، وتفانوا في سبيلها، وجاهدوا فيها: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج: ٧٨].

﴿انتهى الكتاب، والحمد لله أولا وآخرا﴾

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الباب الثاني

من الجاهلية إلى الإسلام

الباب الثالث

العصر الإسلامي

الباب الرابع

العصر الأوروبي

الباب الخامس
قيادة الإسلام للعالم